مطبوعات برنامج إعداد المفسِّر (١٠)

معهد آفاق التيسير للتعليم عن بعد

تفسير سورة الفاتحة

تأليف
عبد العزيز بن داخل المطيري

تَفْسِيرُ سُورَةِ الفَاتِحَةِ

حقوق الطبع محفوظة

إلا ممن أراد طباعته لتوزيعه مجانا

الطبعة الأولى

رجب ١٤٣٨هـ

معهد آفاق التيسير للتعليم عن بعد

afaqattaiseer 0505941199 www.afaqattaiseer.com

afaqattaiseer afaqattaiseer afaqattaiseer@gmail.com

تفسير سورة الفاتحة

تأليف
عبد العزيز بن داخل المطيري

معهد آفاق التيسير
للتعليم عن بعد

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

الحمد لله أنزل الكتاب المبين، هدى ورحمة للمؤمنين، وحجة على جميع المعرضين، فأحكمَه غايةَ الإحكام، وحفظه أجود الحفظ، وبيّنه أحسن البيان، وجعل فيه تفصيل كلّ شيء، فلا تخلو مسألة من حكمه، ولا حال ولا عمل من دلائله وبيانه، علم ذلك من علمه وجهله من جهله، وجعله لعباده المؤمنين شَرَفاً وذِكْراً، وشفاء وبشرى، يتبصرون ببصائره، ويهتدون بهداه، ويتعظون بمواعظه، وينهلون منه العلم والحكمة، حتى طهَّر به قلوبهم، وزكّى به نفوسهم، وَأَصَلَح به أعمالهم وأحوالهم، وأكرم به مآلهم.

والصلاة والسلام على النبيّ المصطفى، والرسول المجتبى، الذي اختصّه الله تعالى بتبليغ كتابه الكريم، فبعثه به هادياً وبشيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، فبيّن للناس ما نُزّل إليهم من آيات ربّه، وكان لهم فيه أسوة حسنة؛ يتلو كتاب الله حقّ تلاوته، ويقوم به أحسن القيام، ويجاهد به حقّ الجهاد، فدعا بلسانه وبيانه، ودعا بحسن هَدْيِه وسمته، وحبَّب إليه بحسن خلقه، وكريم شمائله، حتى أدّب أصحابه أحسن الأدب، وربَّاهم أحسن التربية، وعلّمهم وزكّاهم، فأخرج الله به من شاء من عباده من الظلمات إلى النور؛ ومن الضيق إلى السعة، ومن الذلّة إلى العزّة، وعلَّمهم الكتاب والحكمة، وجعلهم أئمةً يهدون بأمره، ويجاهدون في سبيله، ويقيمون أمر دينه؛ فاجتمعوا من بعد افتراق، وائتلفت قلوبهم من بعد اختلاف، حتى

نالوا بفضل الله ورحمته ما نالوا ، وبلغوا من الدرجات العلى ما بلغوا: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾؛ فصلّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم عليه تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإنّ علم تفسير القرآن من أشرف العلوم وأنفعها، وأجلّها وأوسعها، وأعظمها بركةً، وأحسنها ثمرةً، وإنَّ هذا العلم على جلالة قدرهِ وعظيم نَفْعِه، لا ينتفع به إلا من رزقه الله البصيرة، ووفّقه لاتّباع الهدى﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾.

فنسأل الله تعالى أن يجعلنا ممَّن يزيدهم بهذا العلم بصيرة وهدى، وأن يجيرنا من الضلال والحرمان.

وقد منَّ الله تعالى عليَّ بالاشتغال بالعمل على إعداد كتاب «جمهرة التفاسير» سنوات عديدة، وكانت عمدة تلك الجمهرة جمع أقوال العلماء بنصوصها، وتصنيفها وترتيبها على العلوم والمسائل والوفيات، فجمعت فيه ما أمكن من تفاسير السلف وتفاسير اللغويين من مصادر كثيرة متنوّعة؛ وطبعت منه تفسير المعوذتين في مجلّد كبير، ونشرت بقية ما جمع منه في موقع جمهرة العلوم على الشبكة العالمية «الإنترنت» وهو على سور القرآن الكريم من الفاتحة إلى الناس، بفضل الله تعالى وحسن عونه.

وقد أتممنا فيه ثلاث مراحل، وهي:

١. تفاسير السلف من الكتب المسندة وما يتصل بها من شروح الحديث.

٢. تفاسير اللغويين.

٣. أقوال علماء اللغة المتقدمين في التفسير من كتبهم المصنفة في غير التفسير ومعاني القرآن.

وقد أعانني في إعداده ونشره جمعٌ من الإخوة والأخوات من طلاب العلم أسأل الله تعالى أن يثيبهم على ما بذلوا من جهد ووقت ثواباً كريماً، وأن يجزيهم عنّي خير الجزاء، وما يزال العمل في بقيّة المراحل لم يتمّ بعد إلى هذا الوقت، ولعلّ الله يهيّئ سبباً لاستكماله كما ينبغي، ويعين على نشره.

ولما كانت الحاجة داعية إلى تلخيص هذا الكتاب الكبير وتقريبه؛ استخرت الله تعالى في إعداد تفسير متوسّط؛ يشتمل على لُبَابه، وينهل من عُبابه، ويكمّل فوائده، ويحرّر مسائله؛ فشرح الله صدري لإعداد هذا التفسير الذي سمّيتُه «زاد المفسّر» لاجتماع همّتي فيه على جمع ما يحتاجه المفسّر وتقريبه، وترتيبه وتهذيبه، والاجتهاد في تيسيره وتحريره.

وأرجو أن يكون العمل في إعداد هذا التفسير على مراحل، كلّما أتممت تفسير سورة نشرتُه في دروس علمية ميسّرة؛ ثم أعود بعد مدّة من نشر تلك الدروس إلى مراجعتها وتهذيبها، بعد الاستفادة من أسئلة طلاب العلم وتنبيهاتهم، وملحوظاتهم وتعقّباتهم.

وقد يسّر الله تعالى بفضله وكرمه تفسير سورة الفاتحة في دورة علمية لطلاب برنامج إعداد المفسّر في شهر ذي القعدة من عام ١٤٣٧هـ جمعت فيها ما أمكن من مسائل تفسير هذه السورة العظيمة، واجتهدت في بيان معانيها وهداياتها، وتقريب أقوال المفسّرين في علومها ومسائلها.

ثمّ عدت إليها في شهر جمادى الآخرة من عام ١٤٣٨هـ؛ فراجعت مادّتها العلمية وهذبتها، وأضفت ما تحسن إضافته، لتخرج في كتاب مطبوع يسهل تداوله ونشره.

وأسأل الله تعالى أن يمنّ بالقبول والتوفيق، وأن ينفع بهذا الكتاب كلَّ من قرأه ونشره، وأن ييسّره للدارسين، ويبارك فيه بركة من عنده، وأن يعين على إتمام هذا التفسير، ويوفق فيه للصواب وحسن البيان، ويرزقني الإخلاص والسداد، وأن يقيني شرور نفسي وسيئات أعمالي، لا إله إلا هو الوليّ الحميد.

أبواب الكتاب:

الباب الأول: في بيان فضائل سورة الفاتحة.

الباب الثاني: في بيان معاني أسماء سورة الفاتحة.

الباب الثالث: في شرح مسائل نزول الفاتحة

الباب الرابع: عدد آيات سورة الفاتحة.

الباب الخامس: تفسير الاستعاذة.

الباب السادس: تفسير البسملة.

الباب السابع: تفسير قول الله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾.

الباب الثامن: تفسير قول الله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾.

الباب التاسع: تفسير قول الله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾.

الباب العاشر: تفسير قول الله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾.

الباب الحادي عشر: تفسير قول الله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾.

الباب الثاني عشر: تفسير قول الله تعالى: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾.

الباب الثالث عشر: شرح مسائل التأمين بعد الفاتحة.

الباب الأول: بيان فضائل سورة الفاتحة

صحّ في فضل سورة الفاتحة أحاديث كثيرة دلَّت على أنّها أعظمُ سُوَرِ القرآن، وأنّها أفضل القرآن، وأنّها خير سورة في القرآن، وأنها أمّ القرآن أي أصله وجامعة معانيه ومقدّمه، وأنّه ليس في التوراة، ولا في الزبور، ولا في الإنجيل، ولا في القرآن مثلها، وأنّها نورٌ لم يُؤتَه نبيّ قبل نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم، وأنّه لا يَقرأ بحرفٍ منها إلا أعطيه، وأنّها رقية نافعة، وأن الصلاة لا تتمّ إلا بها.

فهي سورة مباركةٌ كثيرة الفضائل، عظيمة القَدْر، جليلة المعاني، واسعة الهدايات؛ قد أحكمها الله تعالى غاية الإحكام، وجعلها أعظم سورة في القرآن، وفرضها على كلّ مسلم قادر على تلاوتها أن يقرأها في كلّ ركعة من صلاته، وعظّم ثواب تلاوتها، وفي ذلك من دلائل فضلها، وعظيم محبّة الله تعالى لها، والتنبيه على سعة معانيها وحاجة الناس إلى تلاوتها وتدبّرها ما لا يخفى.

ومن الأحاديث الصحيحة الصريحة في فضلها:

١. **حديث أبي سعيد بن المعلَّى رضي الله عنه**، قال: كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فلم أجبْه، فقلت: يا رسول الله إني كنت أصلي؛ فقال: «ألم يقل الله: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾».

ثم قال لي: «لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن، قبل أن تخرج من المسجد». ثم أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج، قلت له: «ألم تقل لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن» قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ «هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته». رواه البخاري من طريق خبيب بن عبد الرحمن، عن حفص بن عاصم، عن أبي سعيد بن المعلى.

٢. **وحديث أبي هريرة رضي الله عنه**، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أم القرآن هي السبع المثاني، والقرآن العظيم» رواه البخاري من طريق ابن أبي ذئب، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة.

٣. **وحديث العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن أبي بن كعب**، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا أعلمك سورة ما أنزل في التوراة، ولا في الزبور، ولا في الإنجيل، ولا في القرآن مثلها؟».

قلت: بلى.

قال: «فإني أرجو أن لا أخرج من ذلك الباب حتى تعلمها».

ثم قام رسول الله؛ فقمت معه؛ فأخذ بيدي، فجعل يحدّثني حتى بلغ قُرْبَ الباب، قال: فذكّرته، فقلت: يا رسول الله، السورة التي قلت لي!

قال: «فكيف تقرأ إذا قمت تصلي؟».

قال: فقرأت فاتحة الكتاب، قال: «هيَ هي، وهي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيت بعد». رواه الإمام أحمد والدارمي والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم والبيهقي في "شعب الإيمان".

ورواه أبو عبيد وأحمد من طريق إسماعيل بن جعفر قال: أخبرني العلاء عن أبيه عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم -وقرأ عليه أبيّ بن كعب أمَّ القرآن- فقال: «والذي نفسي بيده، ما أنزل الله في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في الزبور، ولا في الفرقان مثلها إنها السبع من المثاني».

قال البيهقي: (فيشبه أن يكون هذا القولُ صدرَ من جهةِ صاحبِ الشرعِ صلى الله عليه وسلم لأبيّ، ولأبي سعيد بن المعلَّى كليهما).

٤. **وحديث أنس بن مالك رضي الله عنه** قال: (كان النبي صلى الله عليه وسلم في مسيرٍ له فنزل ونزل رجل إلى جانبه؛ فالتفتَ إليه النبيُّ صلى الله عليه وسلم فقال: «ألا أخبرك بأفضل القرآن» قال: فتلا عليه ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾). رواه النسائي في "السنن الكبرى" وابن حبان والحاكم كلهم من طريق سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس به.

٥. **وحديث عبد الله بن جابر البياضي الأنصاري رضي الله عنه** قال: انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أهراق الماء، فقلت: السلام عليك يا رسول الله؛ فلم يردَّ علي، فقلت: السلام عليك يا رسول الله؛ فلم يردَّ علي، فقلت: السلام عليك يا رسول الله؛ فلم يردَّ علي؛ فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي، وأنا خلفه، حتى دخل رحلَه، ودخلت أنا إلى المسجد؛ فجلستُ كئيباً حزيناً؛ فخرج عليَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم قد تطهَّر، فقال: «عليك السلام ورحمة الله، وعليك السلام ورحمة الله، وعليك السلام ورحمة الله».

ثم قال: «ألا أخبرك يا عبد الله بن جابر بخير سورة في القرآن؟».

قلت: بلى يا رسول الله.

قال: «اقرأ ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ حتى تختمها». رواه الإمام أحمد والضياء المقدسي في "المختارة" من طريق محمّد بن عبيد عن هاشم بن البريد، قال: حدثنا عبد الله بن محمد بن عقيل، عن ابن جابر، وهو حديث حسن، وقد تقدّمت بعض شواهده.

ورواه البيهقي في "شعب الإيمان" من طريق علي بن هاشم بن البريد عن أبيه به، وزاد: قال علي: وأحسبه قال: «فيها شفاء من كل داء» وهذه الزيادة لا تصح.

٦. **وحديث ابن عباس رضي الله عنهما**، قال: بينما جبريل قاعد عند النبي صلى الله عليه وسلم، سمع نقيضا من فوقه، فرفع رأسه، فقال: «هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم» فنزل منه مَلَك، فقال: «هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم»؛ فسلَّم وقال: «أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته». رواه مسلم في صحيحه وابن أبي شيبة في مصنفه والنسائي في الكبرى وأبو يعلى وابن حبان والطبراني في الكبير والحاكم والبيهقي في "السنن الصغرى" وغيرهم من طريق عمار بن رزيق، عن عبد الله بن عيسى، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس.

وقوله: «لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته» فسّر بعض العلماء الحرف بكلّ كلمة فيها طلب نحو «اهدنا» و«غفرانك»، و«اعف عنا»، ولعل الأظهر عموم حروفها؛ كما فسّره حديث أبي هريرة مرفوعاً: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي..» الحديث؛ فكلّ جملة طلبية عطاؤها الإجابة،

وكلّ جملة خبرية عطاؤها ذِكْرُ الله وإثابته.

٧. **وحديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه**، قال: (انطلق نفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في سَفْرَةٍ سافروها، حتى نزلوا على حيٍّ من أحياء العرب؛ فاستضافوهم فأبوا أن يضيفوهم، فلُدِغ سيّد ذلك الحيّ، فسعوا له بكل شيء لا ينفعه شيء، فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا، لعله أن يكون عند بعضهم شيء؛ فأتوهم، فقالوا: يا أيها الرهط إن سيّدنا لُدِغ، وسعينا له بكل شيء لا ينفعه، فهل عند أحد منكم من شيء؟

فقال بعضهم: نعم، والله إني لأرقي، ولكن والله لقد استضفناكم فلم تضيفونا؛ فما أنا براقٍ لكم حتى تجعلوا لنا جُعْلا، فصالحوهم على قطيع من الغنم؛ فانطلق يتفل عليه، ويقرأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ..﴾؛ فكأنما نُشِطَ من عِقَال؛ فانطلق يمشي وما به قَلَبَة، قال: فأوفوهم جُعْلَهم الذي صالحوهم عليه؛ فقال بعضهم: اقسموا؛ فقال الذي رَقَى: لا تفعلوا حتى نأتيَ النبي صلى الله عليه وسلم؛ فنذكرَ له الذي كان؛ فننظرَ ما يأمرُنا؛ فقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكروا له؛ فقال: «وما يدريك أنها رقية؟!!».

ثم قال: «قد أصبتم، اقسموا، واضربوا لي معكم سهما» فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم). متفق عليه من حديث أبي بشر اليشكري عن أبي المتوكّل الناجي عن أبي سعيد الخدري.

ورواه أحمد وابن أبي شيبة والترمذي وابن ماجه من طريق جعفر بن إياس، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري، قال: بعثنا رسول الله

صلى الله عليه وسلم في سرية ثلاثين راكبا، قال: فنزلنا بقوم من العرب، قال: فسألناهم أن يضيفونا فأبوا، قال: فلدغ سيدهم، قال: فأتونا، فقالوا: فيكم أحد يرقي من العقرب؟

قال: فقلت: نعم أنا، ولكن لا أفعل حتى تعطونا شيئا، قالوا: فإنا نعطيكم ثلاثين شاة، قال: فقرأتُ عليها الحمدَ سبع مرات.

قال: فبرأ، قال: فلما قبضنا الغنم، قال: عرض في أنفسنا منها، قال: فكففنا حتى أتينا النبي صلى الله عليه وسلم، قال: فذكرنا ذلك له، قال: فقال: «أما علمت أنها رقية، اقسموها واضربوا لي معكم بسهم».

وله طرق أخرى.

قال النووي: (أما قوله صلى الله عليه وسلم: «واضربوا لي بسهم» فإنما قاله تطييباً لقلوبهم ومبالغةً في تعريفهم أنه حلال لا شبهة فيه).

٨. **وحديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه** أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب» متفق عليه من حديث الزهري، عن محمود بن الربيع، عن عبادة بن الصامت.

والأحاديث في الأمر بقراءة الفاتحة في الصلاة متواترة عن عدد من الصحابة رضي الله عنهم.

٩. **وحديث أبي هريرة رضي الله عنه**، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج» ثلاثا غير تمام. فقيل لأبي هريرة: إنا نكون وراء الإمام؟ فقال: «**اقرأ بها في نفسك**»؛ فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «قال الله تعالى: قسمت

الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قال الله تعالى: أثنى علي عبدي، وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾، قال: مجدني عبدي - وقال مرة فوض إلي عبدي - فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾ قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾ قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل». رواه مسلم في صحيحه وأحمد والبخاري في القراءة خلف الإمام والترمذي والنسائي كلهم من طرق عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه، وله طرق أخرى كثيرة.

١٠ . وحديث ابن عباس رضي الله عنهما أن نفرا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم مروا بماء، فيهم لديغ أو سليم، فعرض لهم رجل من أهل الماء، فقال: هل فيكم من راقٍ، إنَّ في الماء رجلا لديغا أو سليما، فانطلق رجل منهم، فقرأ بفاتحة الكتاب على شاء، فبرأ، فجاء بالشاء إلى أصحابه، فكرهوا ذلك وقالوا: أخذت على كتاب الله أجرا، حتى قدموا المدينة، فقالوا: يا رسول الله، أخذ على كتاب الله أجرا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن أحق ما أخذتم عليه أجرا كتاب الله» رواه البخاري وابن حبان والدارقطني والبيهقي كلهم من طريق أبي معشر يوسف بن يزيد البراء عن عبيد الله بن الأخنس عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس.

١١ . وحديث عامر بن شراحيل الشعبي، عن خارجة بن الصلت، عن عمّه، قال: أقبلنا من عند النبي صلى الله عليه وسلم، فأتينا على حي من

العرب، فقالوا: نُبِّئنا أنكم جئتم من عند هذا الرجل بخير، فهل عندكم دواء أو رقية؟ فإنَّ عندنا معتوها في القيود. قال: فقلنا: نعم.

قال: فجاءوا بالمعتوه في القيود، قال: فقرأت بفاتحة الكتاب ثلاثة أيام غدوة وعشية، أجمع بزاقي، ثم أتفل، قال: فكأنما نشط من عقال قال: فأعطوني جُعْلا، فقلت: لا، حتى أسأل النبي صلى الله عليه وسلم، فسألته فقال: «كل لعمري من أكل برقية باطل لقد أكلت برقية حق». رواه الإمام أحمد وابن أبي شيبة وأبو داوود وابن حبان والحاكم وغيرهم.

وفي رواية عند الإمام أحمد وأبي داوود: «**فرقيته بفاتحة الكتاب، فبرأ، فأعطوني مائة شاة**».

وفي رواية عند أبي داوود قال: فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته، فقال: «هل قلت غير هذا؟» قلت: لا، قال: «خذها؛ فلعمري لمن أكل برقية باطل لقد أكلت برقية حق».

والحديث صححه الألباني في "السلسلة الصحيحة"، وله شاهد من مرسل قيس بن أبي حازم عند ابن أبي شيبة.

١٢. وأثر ابن جريج، عن أبيه، عن سعيد بن جبير، قال: سألت ابن عباس عن قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ قال: «هي أم القرآن، استثناها الله عز وجل لأمة محمد صلى الله عليه وسلم فدخرها لهم، حتى أخرجها لهم، ولم يعطها أحدا قبل أمة محمد صلى الله عليه وسلم».

قال سعيد: «**ثم قرأها ابن عباس، وقرأ فيها** ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾». رواه أبو عبيد في "فضائل القرآن" وابن جرير في تفسيره، ورواه ابن الضريس عن سعيد بن جبير مقطوعاً.

التنبيه على ضعف بعض ما يُروى في فضل سورة الفاتحة

ومما ينبغي التنبّه له والتنبيه عليه ما رواه الضعفاء والمتّهمون من الأحاديث والآثار الضعيفة والواهية في فضل سورة الفاتحة، وكذلك ما أخطأ فيه بعض الثقات، ومن تلك المرويات ما ذاع وشاع، وظنّه كثير من الناس صحيحاً وهو عند التحقيق ضعيف، بل منه ما هو منكر مخالف لما صحّ من النصوص، ومنه ما هو مجازفة من بعض الرواة حُملت عنهم فاشتهرت وانتشرت، وكثير ممن يشيع تلك المرويّات الضعيفة إنما يحملهم عليها التماس الثواب لما ظنّوه من صحّة تلك المرويات وحسنها، وهم مخطئون من جهة تسرّعهم في نشر ما يُنسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من غير تثبّت ولا سؤالٍ لأهل العلم.

ويحسن بطالب علم التفسير أن يكون على معرفة بما شاع من تلك المرويات، وأن يتبيّن سبب ضعفه ومرتبته، وما يُتساهل فيه وما لا يُتساهل فيه منها.

أنواع الضعف في المرويات:

والضعف في المرويات إما أن يكون من جهة الإسناد، وإما أن يكون من جهة المتن.

فأما ضعف الإسناد فهو على درجتين:

إحداهما: الضعف الشديد، وهو ما يكون من رواية متروكي الحديث من الكذابين، والمتّهمين بالكذب، وكثيري الخطأ في الرواية؛ فهؤلاء رواياتهم لا تتقوّى بتعدد الطرق، ولا يُعوَّل عليها.

والأخرى: الضعف غير الشديد، وهو ما يقبل التقوية بتعدد الطرق، وهو على أنواع؛ فمنه ما يكون من رواية الراوي ضعيف الضبط، وما يكون من رواية بعض المدلسين، وبعض الانقطاع في الإسناد، ونحو ذلك من العلل التي توجب ضعف الإسناد في نفسه، لكنَّها لا تمنع تقويته بتعدد الطرق؛ فما تعدّدت طرقه واختلفت مخارجه ولم يكن في متنه نكارة فيحكم بصحته.

وإن لم تتعدّد طرقه ولم يكن في المتن نكارة فمن أهل العلم من رأى التوسّع في رواياتها في الفضائل ونحوها؛ ومنهم من يشدّد، فأمّا ما كان شديد الضعف في الإسناد أو منكر المتن فلا يقبل.

وأما المتون التي تُروى بالأسانيد الضعيفة فهي على ثلاثة أنواع:

النوع الأول: متون صحيحة المعنى لا نكارة فيها، قد دلّت عليها أدلّة أخرى، فيكون في الأدلة الصحيحة ما يُغني عن الاستدلال بما روي بالأسانيد الضعيفة، وقد تُصحح بعض مرويات هذا النوع إذا كان الإسناد غير شديد الضعف.

والنوع الثاني: ما يُتوقّف في معناه فلا يُنفى ولا يُثبت إلا بدليل صحيح، فمرويّات هذا النوع تُردُّ حكماً لضعف إسنادها؛ لكن لا يقتضي ذلك نفي المتن ولا إثباته؛ إلا أن يظهر لأحد من أهل العلم وجه من أوجه الاستدلال المعتبرة فيخرج من هذا النوع ويحكم بنفيه أو إثباته، ومن لم يتبيّن له الحكم فيكل علمَ ذلكَ إلى الله تعالى.

والنوع الثالث: ما يكون في متنه نكارة أو مخالفة لما صحّ من النصوص أو مجازفة بكلام عظيم لا يُحتمل من ضعفاء الرواة.

وقد يقع في بعض المرويات ما يتردد بين نوعين، وما يختلف فيه أهل العلم تصحيحاً وتضعيفاً.

أنواع المرويات الضعيفة في فضل سورة الفاتحة:

المرويات الضعيفة في فضل سورة الفاتحة على ثلاثة أنواع على ما تقدّم تفصيله.

فمن أمثلة النوع الأول:

١. حديث سليم بن مسلم، عن الحسن بن دينار، عن يزيد الرشك قال: سمعت أبا زيد، وكانت له صحبة قال: كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في بعض فجاج المدينة، فسمع رجلا يتهجد ويقرأ بأم القرآن، فقام النبي صلى الله عليه وسلم فاستمع حتى ختمها، ثم قال: «ما في القرآن مثلها» رواه الطبراني في "الأوسط" وقال: (لا يروى هذا الحديث عن أبي زيد عمرو بن أخطب إلا بهذا الإسناد، تفرد به سليم بن مسلم).

الحسن بن دينار هو ابن واصل التميمي، ودينار زوج أمّه، متروك الحديث.

وقد صحّ ما يغني عنه من حديث العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «والذي نفسي بيده، ما أنزل الله في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في الزبور، ولا في الفرقان مثلها إنها السبع من المثاني». رواه الإمام أحمد والترمذي وغيرهما.

٢. وحديث عبادة بن الصامت مرفوعاً: «أم القرآن عوض من غيرها، وليس غيرها منها بعوض».

رواه الدارقطني والحاكم من طريق: محمد بن خلاد الإسكندراني، ثنا أشهب بن عبد العزيز، ثنا سفيان بن عيينة، عن ابن شهاب، عن محمود بن الربيع، عن عبادة بن الصامت.

قال الدارقطني: (تفرد به محمد بن خلاد عن أشهب عن ابن عيينة).

ومحمد بن خلاد مختلف فيه؛ وقد احترقت كتبه فصار يحدّث من حفظه ويروي بالمعنى فيقع في بعض حديثه ما يُنكر عليه.

وهذا الحديث قد رواه البخاري ومسلم وغيرهما من طريق سفيان بن عيينة عن ابن شهاب، عن محمود بن الربيع، عن عبادة بن الصامت بلفظ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب».

فلعلّ ابن خلاد روى الحديث بالمعنى فأخطأ فيه.

ومن أمثلة النوع الثاني:

١. حديث أبان، عن شهر بن حوشب، عن ابن عباس، رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: «فاتحة الكتاب تعدل بثلثي القرآن» رواه عبد بن حميد مرفوعاً، ورواه الفريابي في تفسيره كما في الدر المنثور، وابن مروان الدينوري في المجالسة كلاهما موقوفاً على ابن عباس بلفظ: «فاتحة الكتاب ثلثا القرآن».

واختُلف في أبان هذا من هو؛ فذهب البوصيري إلى أنه أبان بن صمعة، وهو ثقة لكنّه اختلط بعدما أسنّ.

وذهب الألباني إلى أنه أبان ابن أبي عياش البصري، وهو متروك الحديث، وقال ابن حجر في "المطالب العالية": (أبان هو الرقاشي: متروك)، ولعله

أراد أبان ابن أبي عياش، فسبق ذهنه إلى يزيد بن أبان الرقاشي، وكلاهما متروكان.

وقد حسّن البوصيري إسناد الحديث، وضعّفه ابن حجر لأجل اختلافهما في تعيين أبان.

وأما الألباني فضعّفه جداً؛ لضعف أبان، وضعف شهر بن حوشب.

٢. وحديث أبي الأحوص الكوفي، عن منصور، عن مجاهد، عن أبي هريرة قال: «**رنَّ إبليس حين أنزلت فاتحة الكتاب، وأنزلت بالمدينة**». رواه الطبراني في "الأوسط" وابن الأعرابي في معجمه.

رجاله ثقات إلا أنّه منقطع، مجاهد لم يسمع من أبي هريرة.

وقد صحّ هذا الأثر عن مجاهد من وجه آخر؛ فرواه أبو الشيخ في "العظمة"، وأبو نعيم في "الحلية" من طريق أبي الربيع الزهراني: حدثنا جرير، عن منصور، عن مجاهد قال: «**رنَّ إبليس أربعا: حين لُعن، وحين أُهبط، وحين بُعث محمد صلى الله عليه وسلم وبُعث على فترة من الرسل، وحين أنزلت** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾».

ورواه ابن الضريس من طريق معلى بن أسد، عن عبد الواحد بن زياد، عن الأعمش، عن مجاهد، قال: (**لما نزلت:** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، **شق على إبليس مشقة عظيمة شديدة، ورن رنة شديدة، ونخر نخرة شديدة**).

قال مجاهد: (فمن رنَّ أو نخر فهو ملعون).

وروى أبو بكر بن عياش عن عبد العزيز بن رفيع الأسدي أحد ثقات التابعين أنه قال: «**لما نزلت فاتحة الكتاب رنَّ إبليس كرنَّتِه يوم لُعِن**» أخرجه ابن الضريس في "فضائل القرآن".

٣. وحديث أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله عز وجل أعطاني فيما منَّ به علي؛ إني أعطيتك فاتحة الكتاب، وهي من كنوز عرشي، ثم قسمتها بيني وبينك نصفين» رواه ابن الضريس في "فضائل القرآن" والعقيلي في الضعفاء والبيهقي في "شعب الإيمان" والديلمي في "مسند الفردوس" كلهم من طريق مسلم بن إبراهيم عن صالح بن بشير المري عن ثابت عن أنس، وصالح بن بشير ضعيف الحديث، قال النسائي: متروك الحديث.

قال ابن عدي: (هو رجل قاص حسن الصوت، وعامة أحاديثه منكرات ينكرها الأئمة عليه، وليس هو بصاحب حديث، وإنما أتى من قلة معرفته بالأسانيد والمتون، وعندي أنه مع هذا لا يتعمد الكذب، بل يغلط [فيها]).

٤. وحديث العلاء بن المسيّب، عن فضيل بن عمرٍو، عن علي بن أبي طالبٍ رضي اللهّ عنه أنّه سئل عن فاتحة الكتاب، فقال: ثنا نبيّ اللهّ صلّى اللهّ عليه وسلّم ثمّ تغيّر لونه، وردّدها ساعةً حين ذكر النّبيّ صلّى اللهّ عليه وسلّم ثمّ قال: «أنها نزلت من كنزٍ تحت العرش». رواه إسحاق بن راهويه كما في "إتحاف الخيرة" والديلمي في "مسند الفردوس" كلاهما من هذا الطريق، وهو ضعيف لانقطاع إسناده؛ فإنّ فضيلاً لم يدرك عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه.

وقد صحّ من حديث حذيفة بن اليمان وحديث أبي ذرٍّ رضي الله عنهما أنّ الذي نزل من تحت العرش خواتيم سورة البقرة.

٥. حديث معاوية بن صالح، عن أبي سليمان قال: مرّ أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في بعض غزواتهم على رجل مقعد متربّع فقرأ بعضهم في أذنه شيئا من القرآن فبرئ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «هي أمّ القرآن، وهي شفاء من كل داء» رواه الثعلبي، وهو مرسل.

وقال السيوطي في "الدر المنثور": (وأخرج الثعلبي من طريق معاوية بن صالح عن أبي سلمان قال: مر أصحاب رسول الله في بعض غزوهم على رجل قد صرع، فقرأ بعضهم في أذنه بأم القرآن فبرأ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هي أم الكتاب وهي شفاء من كل داء»).

ونسخة تفسير الثعلبي المطبوعة كثيرة التصحيف؛ فلعل ما ذكره السيوطي أقرب.

٦. وحديث علي بن هاشم، عن أبيه، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن جابر بن عبد الله، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: «يا جابر، ألا أخبرك بخير سورة نزلت في القرآن؟».

قال: قلت: بلى يا رسول الله.

قال: «فاتحة الكتاب» قال علي: وأحسبه قال: «فيها شفاء من كل داء». رواه البيهقي في "شعب الإيمان".

وأصل الحديث قد صحّ في مسند الإمام أحمد دون زيادة «فيها شفاء من كل داء» وقد انقلب اسم الصحابي على الرواي والصحيح هو عبد الله بن

جابر البياضي كما في "مسند الإمام أحمد".

٧. ومرسل عبد الملك بن عمير، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «في فاتحة الكتاب شفاء من كل داء» رواه الدارمي والبيهقي في "شعب الإيمان" وابن مروان الدينوري في "المجالسة" من طريق سفيان الثوري عن عبد الملك بن عمير مرسلاً.

٨. وحديث سلام الطويل عن زيد العمي عن ابن سيرين عن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «فاتحة الكتاب شفاء من السُّمّ». رواه سعيد بن منصور ومن طريقه البيهقي في "شعب الإيمان"، وقال: (وعندي أن هذا الاختصار من الحديث الذي رواه محمد بن سيرين عن أخيه، عن معبد بن سيرين، عن أبي سعيد في رقية اللديغ بفاتحة الكتاب).

سلام الطويل متّهم بالكذب، وزيد العمي ضعيف، وقد حكم الألباني على هذا الخبر بالوضع في "السلسلة الضعيفة".

وعامّة أحاديث هذا النوع مما لا يُنكر معناه، لكنَّها لا تُحتمل بهذه الأسانيد الضعيفة، لما فيها من زيادات يفتقر الجزم بها إلى دليل ثابت.

ومن أمثلة النوع الثالث:

١. وحديث يوسف بن عطية، عن سفيان، عن زاهر الأزدي، عن أبي الدرداء مرفوعاً: «فاتحة الكتاب تجزي ما لا يجزي شيء من القرآن، ولو أن فاتحة الكتاب جعلت في كفة الميزان، وجعل القرآن في الكفة الأخرى، لفضلت فاتحة الكتاب على القرآن سبع مرات» في "مسند الفردوس"، ويوسف بن عطية الصفار كثير الوهم والخطأ متروك الحديث.

قال فيه البخاري: منكر الحديث.

وقال النسائي: متروك الحديث، وليس بثقة.

وقال الفلاس: كان يهم وما علمته يكذب.

٢. وحديث سليمان بن أحمد الواسطي عن علي بن الحسين الأحول، عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قرأ أم القرآن وقل هو الله أحد فكأنما قرأ ثلث القرآن» رواه الطبراني في "الأوسط".

ورواه ابن الشجري في أماليه من طريق سليمان بن أحمد عن صلة بن سليمان الأحول عن ابن جريج به.

وسليمان بن أحمد الواسطي متروك الحديث.

٣. وحديث الوليد بن جميل، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبي أمامة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أربع آيات نزلن من كنز تحت العرش، لم ينزل منهن شيء غيرهن: أم الكتاب، فإنه يقول: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ٤﴾، وآية الكرسي، وسورة البقرة، والكوثر». رواه ابن الضريس في "فضائل القرآن"، والطبراني في "المعجم الكبير"، والمستغفري في "فضائل القرآن" وغيرهم.

والوليد بن جميل القرشي ليّن الحديث، قال فيه أبو حاتم الرازي: شيخ يروي عن القاسم أحاديث منكرة.

وقد ضعّف الألباني هذا الحديث في "السلسلة الضعيفة".

٤. وحديث عبيد الله بن أبي حميد، عن أبي المليح، عن معقل بن يسار، رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اعملوا بالقرآن، أحلوا حلاله وحرموا حرامه، واقتدوا به ولا تكفروا بشيء منه، وما تشابه عليكم منه فردوه إلى الله وإلى أولي العلم من بعدي، كما يخبرونكم به، وآمنوا بالتوراة والإنجيل والزبور، وما أوتي النبيون من ربكم، وليسعكم القرآن وما فيه من البيان، فإنه شافع مشفع، وما حل مصدق ألا وإن لكل آية منه نورا يوم القيامة، ألا وإني أعطيت سورة البقرة من الذكر الأول، وأعطيت طه والطواسين من ألواح موسى، وأعطيت فاتحة الكتاب وخواتيم البقرة من تحت العرش، والمفصل نافلة» رواه محمد بن نصر المروزي في "قيام الليل"، والحاكم في "المستدرك"، والبيهقي في "السنن الكبرى".

وعبيد الله بن أبي حميد الهذلي قال فيه البخاري: منكر الحديث.

وقال أيضاً: يروي عن أبي المليح عجائب.

وقال الإمام أحمد: ترك الناس حديث.

وقال النسائي: ليس بثقة.

وهذا الحديث بعض ما فيه قد دلت عليه أحاديث صحيحة، لكنّه تفرّد بزيادات منكرة.

٥. ومرسل الحسن البصري الذي أخرجه أبو عبيد في "فضائل القرآن" من طريق أبي نصيرة مسلم بن عبيد، عن الحسن قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قرأ فاتحة الكتاب فكأنما قرأ التوراة والإنجيل والزبور والفرقان».

وروي موقوفاً على الحسن وهو أشبه، رواه البيهقي في "شعب الإيمان" والثعلبي في تفسيره من طريق الحسين بن الفضل قال: حدثنا عفان بن مسلم، عن الربيع بن صبيح، عن الحسن، قال: «**أنزل الله عز وجل مائة وأربعة كتب من السماء أودع علومها أربعة منها: التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، ثم أودع علوم التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، ثم أودع علوم القرآن المفصل، ثم أودع علوم المفصل فاتحة الكتاب فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير جميع كتب الله المنزلة**».

زاد الثعلبي: (**ومن قرأها فكأنما قرأ التوراة والإنجيل والزبور والفرقان**).

٦. وحديث أحمد بن الحارث الغساني، قال: حدثتني ساكنة بنت الجعد، قالت: سمعت رجاء الغنوي، وكان أصيبت يده يوم الجمل قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «استشفوا بما حمد الله به نفسه قبل أن يحمده خلقه، وبما مدح الله به نفسه»، قلنا: وما ذاك بأبي وأمي يا رسول الله؟ قال: «الحمد لله وقل هو الله أحد، فإنه من لم يشفه القرآن فلا شفاه الله» رواه أبو محمد الخلال في "فضائل سورة الإخلاص"، وابن قانع في "معجم الصحابة"، وأبو نعيم في "معرفة الصحابة"، والثعلبي والواحدي في تفسيريهما.

والحديث ضعيف جداً؛ أحمد بن الحارث الغساني متروك الحديث.

قال الألباني: (وهذا الحديث يوحي بترك المعالجة بالأدوية المادية والاعتماد فيها على تلاوة القرآن وهذا شيء لا يتفق في قليل ولا كثير مع سنته صلى الله عليه وسلم القولية والفعلية، فقد تعالج صلى الله عليه وسلم بالأدوية المادية مرارا، وأمر بذلك فقال: «يا عباد الله تداووا فإن الله لم ينزل

داء إلا وأنزل له دواء»، أخرجه الحاكم بسند صحيح، وهو مخرج في "غاية المرام" (٢٩٢) عن جمع من الصحابة نحوه)ا.هـ.

٧. وحديث شداد بن أوس مرفوعاً: «إذا أخذ أحدكم مضجعه، فليقرأ بأم الكتاب وسورة، فإن الله يوكل به ملكا يهب معه إذا هب». رواه ابن عساكر من طريق عبد الأعلى بن عبد الأعلى عن رجل عن مطرف بن عبد الله بن الشخير عن رجل من أهل بلقين، قال: وأحسبه من بني مجاشع عن شداد بن أوس مرفوعا.

قال الألباني: (وهذا إسناد ظاهر الضعف، لجهالة الرجل البلقيني شيخ مطرف، وكذا الراوي عنه. لكنه لم يتفرد به، فقد قال الخرائطي في "مكارم الأخلاق" (٨ / ٢٣٣ / ١): حدثنا عمر بن شبة قال: حدثنا سالم بن نوح عن الجريري عن أبي العلاء عن رجل من مجاشع عن شداد بن أوس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فذكره، إلا أنه قال: «سورة من كتاب الله». ورجاله ثقات غير الرجل المجاشعي، وأبو العلاء اسمه يزيد بن عبد الله بن الشخير، وهو أخو مطرف المذكور في الطريق الأولى. وبالجملة، فالحديث ضعيف لجهالة تابعيه. والله أعلم).

٨. وحديث أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعاً: «إذا وضعت جنبك على الفراش وقرأت فاتحة الكتاب و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ فقد أمنت من كل شيء إلا الموت». رواه البزار من طريق غسان بن عبيد الموصلي، عن أبي عمران الجوني، عن أنس، وغسان ضعيف الحديث، كتب الإمام أحمد حديثه ثمّ تركه لنكارة ما يرويه، وقال فيه يحيى بن معين: (لم يكن يعرف الحديث إلا أنه لم يكن من أهل الكذب).

٩. وحديث عمران بن حصين مرفوعاً: «فاتحة الكتاب وآية الكرسي لا يقرؤهما عبد في دار فتصيبهم في ذلك اليوم عين إنس أو جن». رواه الديلمي في "مسند الفردوس" كما في "الدر المنثور"، وضعّفه الألباني.

١٠. وحديث المأمون بن أحمد الهروي قال: حدّثنا أحمد بن عبد الله [الجويباري] قال: حدثنا: أبو معاوية الضرير، عن أبي مالك الأشجعي، عن ابن حمران، عن حذيفة بن اليمان، قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إن القوم ليبعث الله عليهم العذاب حتما مقضيّا فيقرأ صبيّ من صبيانهم في الكتاب: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فيسمعه الله عزّ وجلّ فيرفع عنهم ذلك العذاب أربعين سنة» رواه الثعلبي في تفسيره.

قال المناوي: موضوع.

وقال الزيلعي: (رواه الثعلبي في تفسيره، من حديث أبي معاوية الضرير، عن أبي مالك الأشجعي، عن ربعي بن حراش، عن حذيفة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، فذكره سواء).

قال ابن حجر: (إلا أن دون أبي معاوية من لا يحتج به، وله شاهد في مسند الدارمي، عن ثابت بن عجلان، قال: «كان يقال: إن الله ليريد العذاب بأهل الأرض فإذا سمع تعليم الصبيان بالحكمة صرف ذلك عنهم»، يعني بالحكمة: القرآن).

وقال ولي الدين العراقي: (فيه أحمد بن عبد الله الجويباري، ومأمون بن أحمد الهرويّ، كذابان، وهو من وضع أحدهما). ذكره المناوي.

قال المناوي: (ولفظ «كان يقال» حكمه الرّفع، فإن صدر من صحابيّ كان مرفوعا متّصلا، ومن تابعيّ فمرفوع مرسل).

١١. عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أتى منزله فقرأ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ سورة الفاتحة و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ نفى الله عنه الفقر، وكثر خير بيته حتى يفيض على جيرانه». رواه الحافظ السمرقندي في فضائل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ كما في "الدر المنثور".

١٢. وحديث صالح المري، عن أيوب، عن أبي قلابة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من شهد خاتمة القرآن كان كمن شهد الغنائم حين تقسم، ومن شهد فاتحة القرآن كان كمن شهد فتحا في سبيل الله» رواه أبو عبيد القاسم بن سلام وابن الضريس في "فضائل القرآن".

١٣. وحديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قرأ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ثم قرأ فاتحة الكتاب ثم قال: آمين لم يبق في السماء ملك مقرب إلا استغفر له». رواه الديلمي في "الفردوس".

١٤. حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه مرفوعاً: «إن فاتحة الكتاب وآية الكرسي والآيتين من آل عمران: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٨ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ و﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ إلى قوله: ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٢٧﴾ معلّقات، ما بينهن وبين الله حجاب لما أراد الله أن ينزلهن تعلقن بالعرش، قلن: ربنا، تهبطنا إلى أرضك، وإلى من يعصيك. فقال الله عز وجل: بي حلفت، لا يقرأكن أحد من عبادي دبر كل صلاة إلا جعلت الجنة مثواه على ما كان منه، وإلا أسكنته حظيرة القدس، وإلا

نظرت إليه بعيني المكنونة كل يوم سبعين نظرة، وإلا قضيت له كل يوم سبعين حاجة، أدناها المغفرة، وإلا أعذته من كل عدو ونصرته منه، ولا يمنعه من دخول الجنة إلا الموت». رواه ابن حبان في "المجروحين" وابن السني في "عمل اليوم والليلة" وابن الفاخر في "موجبات الجنة" والمستغفري في "فضائل القرآن" كلهم من طريق محمد بن زنبور المكي عن الحارث بن عمير: حدثنا جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن علي بن أبي طالب مرفوعا.

قال ابن حبان: (موضوع لا أصل له، والحارث كان ممن يروي عن الأثبات الموضوعات).

وذكره الألباني في "السلسلة الضعيفة" وقال: موضوع.

الباب الثاني: بيان معاني أسماء سورة الفاتحة

سورة الفاتحة أكثر سور القرآن الكريم أسماءً وألقاباً، وذلك من دلائل فَضْلِها، وعَظَمَةِ شأْنها، وكَثرةِ ذِكْرِها، وقد تضمَّنت تلك الأسماء والألقاب أنواعاً من المعاني الجليلة التي من تأمّلها وتفكّر في دلائلها تبيّنت له عظمة هذه السورة الجليلة، وازداد يقيناً بفضلها، وحرصاً على الانتفاع بها.

والفرق بين اسم السورة ولقبها:

- **أن اسم السورة** ما وضع لتعيينها والدلالة عليها.
- **ولقب السورة:** ما اشتهرت به من وصف مدح بعدَ تقرُّرِ أسمائها.

ولذلك إذا اجتمع الاسم واللقب كان الأفصح تقديم الاسم لتقدّمه في الوضع ولدفع الالتباس إلا أن يكون اللقب أشهر من الاسم وأكثر تداولاً أو لإرادة التشويق بذكر الوصف ثم التعريف بذكر الاسم.

ويصحّ أن يُعدّ اللَّقبُ اسماً كما في الصحيحين من حديث محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن لي أسماء، أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعده أحد».

وهذه ألقابٌ وأوصاف مَدح له صلى الله عليه وسلم، وهي أسماؤه باعتبار دلالتها على المسمَّى.

تعداد أسماء سورة الفاتحة:

من أسمائها الثابتة: فاتحة الكتاب، وفاتحة القرآن، والفاتحة، وأم الكتاب، وأم القرآن، و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، والحمد، والسبع المثاني، والقرآن العظيم.

وقد ذكر عدد من المفسّرين أسماءً أخرى للفاتحة حتى أوصلوها إلى نحو ثلاثين اسماً عامّتها ألقاب وأوصاف أُخذت من بعض الأحاديث والآثار، وفي بعضها تكرار، وفي بعضها نظر من جهة عدم ظهور دلالة النصّ على إرادة التسمية.

ومما ذكر من تلك الأسماء: الشافية، والكافية، والوافية، والرقية، والصلاة، والدعاء، والسؤال، والشكر، والكنز، والأساس.

شرح معاني أسماء سورة الفاتحة:

١. فاتحة الكتاب

وهو أكثر الأسماء وروداً في الأحاديث والآثار الصحيحة، ففي الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب».

وفي هذا الاسم أحاديث أخرى في الصحيحين وغيرهما من حديث ابن عباس وأبي سعيد الخدري وأبي قتادة وعائشة رضي الله عنهم.

وسمّيت فاتحة الكتاب لأنّها أوّل ما يُستفتح منه، أي يُبدأ به.

قال ابن جرير الطبري: (وسمّيت فاتحة الكتاب، لأنّه يفتتح بكتابتها المصاحف، وبقراءتها الصّلوات، فهي فواتح لما يتلوها من سور القرآن في الكتاب والقراءة).

وفي سبب هذه التسمية قول آخر ضعيف، وهو أنها سميت بذلك لأنها أوّل سورة نزلت من السماء، وهذا القول ذكره العيني في شرحه على "صحيح البخاري"، وهو قول ضعيف مخالف لما ثبت في الأحاديث الصحيحة من أنّ أوّل ما نزل من القرآن صدر سورة «اقرأ».

٢. ومن أسمائها «فاتحة القرآن»، وهذا الاسم روي عن بعض الصحابة والتابعين: منهم عبادة بن الصامت وأبو هريرة وابن عباس ومحمد بن كعب القرظي، وورد في أحاديث مرفوعة في إسنادها مقال.

وسميت «فاتحة القرآن» باعتبار أنها أوّل ما يقرأ منه لمن أراد قراءة القرآن من أوّله، أو أوّل ما يقرأ من القرآن في الصلاة.

٣. ومن أسمائها «الفاتحة»، هو اسم مختصر من الاسم المشتهر لهذه السورة في الأحاديث والآثار وهو «فاتحة الكتاب».

والتعريف فيه للعهد الذهني، وهو أكثر أسمائها شهرة واستعمالاً عند المسلمين، لاختصاره وظهور دلالته على المراد.

٤. ومن أسمائها: «أم القرآن»؛ ودليل هذا الاسم ما ثبت في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم».

وفي "موطأ الإمام" مالك و"مسند الإمام أحمد" و"صحيح مسلم" وغيرها من حديث أبي السائب مولى هشام بن زهرة عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج هي خداج هي خداج غير تمام».

قال أبو السائب: فقلت: يا أبا هريرة إني أحياناً أكون وراء الإمام.

قال: فغمز ذراعي ثم قال: «**اقرأ بها في نفسك يا فارسي**».

الخداج هي الناقصة، يقال: طفل خديج إذا ولد غير تام الخلقة أو قبل أوان ولادته.

قال الأصمعي: (الخداج النقصان، مثل خداج الناقة إذا ولدت ولدا ناقص الخَلْقِ أو لغير تمام).

والعرب تسمي ما يولَد قبل تمامِ حملِه خديجاً وخديجة.

والمقصود بأم القرآن هنا سورة الفاتحة، **وفي معنى تسميتها بأم القرآن أقوال لأهل العلم يمكن إرجاعها إلى قولين:**

القول الأول: سميت بذلك لتضمنها أصول معاني القرآن؛ فهي أم القرآن باعتبار أن ما تضمنته من المعاني جامع لما تضمنته سائر سورِهِ؛ ففيها حمد الله تعالى والثناء عليه وتمجيده وإفراده بالعبادة والاستعانة وسؤاله الهداية التي من وفّق لها فهو من الذين أنعم الله عليهم من عباد الله الصالحين السائرين على الصراط المستقيم قد نجّاه الله من سلوك سبل الأشقياء من المغضوب عليهم والضالين.

وسائر سور القرآن الكريم تفصيل وبيان لهذه المعاني، واحتجاج لها بأنواع الحجج، وضرب الأمثال والقصص والعبر التي تبين هذه المعاني وتجليها.

وهذا القول ذكره بمعناه جماعة من المفسرين.

القول الثاني: سمِّيت بذلك لتقدمها على سائر سور القرآن الكريم في القراءة في الصلاة وفي كتابة المصاحف، والعرب تسمِّي المقدم أمًّا لأنَّ ما خلفه يؤمُّه، فهي أمّ القرآن لأنها مقدّمة في التلاوة في الصلاة وفي الكتاب في المصحف؛ فيبدأ بها كما يبدأ بالأصل.

وهذا القول ذكره بمعناه أبو عبيدة معمر بن المثنى في مجاز القرآن، والبخاري في صحيحه، ثم ذكره جماعة من المفسّرين بعد ذلك.

قال ابن الجوزي في "زاد المسير": (ومن أسمائها: أم القرآن وأم الكتاب لأنها أمَّت الكتاب بالتقدم).

وقد جمع ابن جرير بين القولين فقال: (وإنما قيل لها أمَّ القرآن لتسميةِ العربِ كلَّ جامعٍ أمرًا أو مقدَّمٍ لأمرٍ إذا كانت له توابعُ تتبعه هو لها إمام جامع: «أُمًّا»).

ثمّ ذكر شواهد لغوية صحيحة على هذا القول لا نطيل بذكرها.

٥. ومن أسماء الفاتحة: أم الكتاب

وقد ورد في هذا الاسم أحاديث وآثار صحيحة:

- فمن الأحاديث ما رواه البخاري من حديث عبد الله بن أبي قتادة، عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في الظهر في الأولين بأم الكتاب وسورتين، وفي الركعتين الأخريين بأم الكتاب.

- ومن الآثار ما رواه مسلم من حديث حبيب المعلم، عن عطاء قال: قال أبو هريرة: «**في كل صلاة قراءة فما أسمعنا النبي صلى الله عليه وسلم، أسمعناكم، وما أخفى منا، أخفيناه منكم، ومن قرأ بأم الكتاب فقد أجزأت عنه، ومن زاد فهو أفضل**».

قال البخاري في صحيحه: (وسميت أم الكتاب أنه يبدأ بكتابتها في المصاحف، ويبدأ بقراءتها في الصلاة).

وهو مختصر من كلام أبي عبيدة في مجاز القرآن.

والكلام في معنى هذا الاسم نظير ما تقدّم من القولين في اسم «أمّ القرآن»، والصواب الجمع بين المعنيين لصحّتهما، وصحّة الدلالة عليهما، وعدم تعارضهما.

وقد روي عن بعض السلف كراهة تسمية الفاتحة بأمّ الكتاب؛ لأنه اسم من أسماء اللوح المحفوظ كما في قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾، وقوله: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾.

روى ابن الضريس عن وهيب بن خالد عن أيوب السختياني أن محمد بن سيرين كان يكره أن يقول: «أم الكتاب»، قال: ويقرأ: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ ولكن يقول: «فاتحة الكتاب».

وذكر ابن كثير وابن حجر كراهة هذه التسمية عن أنس والحسن البصري ولم أقف على إسناد الروايتين عنهما.

وذكر السهيلي هذا القول عن بقيّ بن مخلد في تفسيره وهو مفقود.

والصواب صحّة التسمية بهذا الاسم لثبوت النص به، ولأنّ تسمية اللوح المحفوظ بأمّ الكتاب لا تمنع اشتراك الاسم، وقد قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي مُعظمه وأصله الذي تُرجع إليه معانيه وما تشابه منه؛ فتسمية الآيات المحكمات بأمّ الكتاب لا يعارض تسمية اللوح المحفوظ بهذا الاسم؛ فكذلك لا يمتنع أن تسمّى الفاتحة بهذا الاسم.

قال ابن حجر: (ولا فرق بين تسميتها بأمّ القرآن وأمّ الكتاب، ولعلّ الّذي كره ذلك وقف عند لفظ الأمّ، وإذا ثبتَ النصُّ طاحَ ما دونَه).

٦. سورة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

وهذا من باب تسمية السورة بأول آية فيها، ولهذا نظائر كثيرة في أسماء السور؛ كسورة ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ١﴾، وسورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ١﴾.

ومن أدلّة هذا الاسم: حديث حفص بن عاصم عن أبي سعيد بن المعلّى رضي الله عنه قال: مرَّ بي النبي صلى الله عليه وسلم وأنا أصلي فدعاني؛ فلم آته حتى صليت ثم أتيت.

فقال: «ما منعك أن تأتي؟».

فقلت: كنت أصلي.

فقال: «ألم يقل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾».

ثم قال: «ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد؟!».

فذهب النبي صلى الله عليه وسلم ليخرج من المسجد فذكَّرتُه فقال: «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته». رواه البخاري والدارمي والنسائي وغيرهم.

فسمّى السورة بأوّل آية فيها.

وقد أنكر بعض فقهاء الشافعية هذا الاسم، والصواب ثبوته، وفيه أحاديث أخرى عن أنس وغيره، وآثار عن السلف الصالح.

٧. سورة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾

وهذا الاسم اختصار لما قبله، ومن أدلة هذا الاسم حديث ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أمّ القرآن وأمّ الكتاب والسبع المثاني». رواه أحمد والدارمي والترمذي، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

٨. سورة الحمد

وهو اختصار لما قبله، وقيل لأجل ذكر الحمد فيها، وهو من الأسماء المشتهرة لهذه السورة العظيمة.

وقد ورد هذا الاسم في بعض روايات حديث وائل بن حجر في صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم كما في مسند البزّار وفيه: (ثم افتتح القراءة، فجهر بالحمد، ثم فرغ من سورة الحمد، ثم قال: «آمين» حتى سمَّع من خلفه، ثم قرأ سورة أخرى).

وهو اسم متداول من قديم، ونقل الحافظ العراقي عن بعض فقهاء الشافعية قولهم إنّ تسمية السورة بهذا الاسم عرف متأخر، ثمّ تعقّبهم

بحديث أبي سعيد بن المعلّى.

وقد روي هذا الاسم عن يحيى بن يعمر العدواني وهو من كبار قرّاء التابعين من أقران أبي عبد الرحمن السلمي.

وقال عبد الرحمن بن مهدي: (كان إسرائيل يحفظ حديث أبي إسحاق كما يحفظ سورة الحَمْدِ). رواه الدارقطني.

وممن اختار تسمية الفاتحة بهذا الاسم في كتابه: أبو عبيدة في "مجاز القرآن"، وابن قتيبة في "تفسير غريب القرآن"، والزجاج في "معاني القرآن وإعرابه"، والنحاس في "معاني القرآن"، وأبو عمرو الداني في "البيان".

٩. السبع المثاني

وقد استُدّل لهذا الاسم بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ۝٨٧﴾.

وبتفسير النبي صلى الله عليه وسلم وبعض الصحابة رضي الله عنهم للمراد بالسبع المثاني في هذه الآية أنه سورة الفاتحة.

كما تقدم في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم». رواه البخاري.

وصحّ نحوه من حديث أبي سعيد بن المعلّى وحديث أبيّ بن كعب.

وهذا القول مروي عن عمر وعلي وأبي هريرة وهو رواية عن ابن عباس رضي الله عنهم أجمعين، وقال به من التابعين: الحسن البصري وأبو العالية الرياحي وقتادة، وهو رواية عن مجاهد وسعيد بن جبير.

وهذا الاسم «السبع المثاني» مشترك مع السبع الطوال، وقد اختلف في تعيينها على أقوال ليس هذا محلّ بسطها، وقد فسّرت هذه الآية بها، وهو قول ابن مسعود ورواية عن ابن عباس، والمشهور عن مجاهد وسعيد ابن جبير.

واشتراك الأسماء يقع كثيراً كما كان اسم «أمّ الكتاب» مشترك بين ثلاثة أشياء على ما تقدّم بيانه.

قال ابن جرير رحمه الله: (وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: عني بالسبع المثاني: السبع اللواتي هنّ آيات أم الكتاب، لصحة الخبر بذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم).

وهذا الترجيح للمراد بالسبع المثاني في آية الحِجْر لا يقتضي نفي تسمية السبع الطوال بالسبع المثاني.

معنى تسمية الفاتحة بالسبع المثاني

المراد بالسبع آياتها، ولذلك خالفت المعدود بالتذكير في اللفظ، **وفي معنى تسميتها بالمثاني أقوال لأهل العلم:**

القول الأول: لأنّها تُثنى أي تعادُ في كلِّ ركعة، بل هي أكثر ما يُعاد ويكرر في القرآن، وهذا القول مرويّ عن عمر بن الخطاب والحسن البصري وقتادة، وهو رواية عن ابن عباس.

قال قتادة: «**فاتحة الكتاب تثنى في كلّ ركعة مكتوبة وتطوّع**». رواه عبد الرزاق وابن جرير.

وقال به من المصنّفين: الفراء، وأبو عبيد القاسم بن سلام، وابن قتيبة، وابن جرير، وابن الأنباري، وأبو منصور الأزهري، ومكي بن أبي طالب، والبغوي، وغيرهم.

قال ابن جرير رحمه الله: (وأما وصف النبي صلى الله عليه وسلم آياتها السبعَ بأنهنَّ مَثانٍ، فلأنها تُثْنَى قراءتها في كل صلاة وتطوُّع ومكتوبة. وكذلك كان الحسن البصري يتأوّل ذلك).

والقول الثاني: لأنّ الله تعالى استثناها لرسوله صلى الله عليه وسلَّم فلم يؤتها أحداً قبله، وهذا القول رواه ابن جرير عن ابن عباس، وحكاه جماعة من المفسّرين.

قال ابن جريج: (أخبرني أبي، عن سعيد بن جبيرٍ، أنّه أخبره أنّه، سأل ابن عبّاسٍ عن السّبع المثاني، فقال: «**أمّ القرآن**»، قال سعيدٌ: ثمّ قرأها، وقرأ منها: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قال أبي: قرأها سعيدٌ كما قرأها ابن عبّاسٍ، وقرأ فيها ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قال سعيدٌ: قلت لابن عبّاسٍ: فما المثاني؟ قال: «**هي أمّ القرآن، استثناها اللّه لمحمّدٍ صلّى اللّه عليه وسلّم، فرفعها في أمّ الكتاب، فذخرها لهم حتّى أخرجها لهم، ولم يعطها لأحدٍ قبله**»). رواه ابن جرير.

والقول الثالث: قول أبي عبيدة معمر بن المثنى إذ قال: (وإنما سميت آيات القرآن مثاني لأنها تتلو بعضها بعضاً فثنيت الأخيرة على الأولى، ولها مقاطع تفصل الآية بعد الآية حتى تنقضي السورة وهي كذا وكذا آية، وفي آية أخرى من الزمر تصديق ذلك: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ..﴾).

والقول الرابع: لأنها مما يُثنى به على الله تعالى، وهذا القول ذكره الزجاج احتمالاً؛ قال: (ويجوز والله أعلم أن يكون من المثاني أي مما أثني به على الله، لأن فيها حمد الله، وتوحيده وذكر ملكه يوم الدّين).

والقول الخامس: المثاني ما دل على اثنين اثنين كأنه جمع مَثْنى أو مشتقّ من المُثنّى الدالّ على اثنين، **واختلف في تفسير ذلك على أقوال:**

- **أحدها:** لأن حروفها وكلماتها مُثنّاة مثل: الرحمن الرحيم، إياك وإياك، الصراط الصراط، عليهم عليهم، غير غير في قراءة عمر، وهذا القول ذكره الثعلبي والواحدي في البسيط وابن الجوزي غير منسوب لأحد معروف.

- **والثاني:** لأنها منقسمة إلى قسمين: نصفها ثناء ونصفها دعاء، ونصفها حق الربوبية ونصفها حقّ العبودية، وهذا القول ذكره الثعلبي.

- **والثالث:** ما ذكره ابن جرير في تفسيره قال: (وكان بعض أهل العربية، يزعم أنها سميت مَثَانِيَ لأن فيها الرحمن الرحيم مرّتين).

- **والرابع:** سمّيت مثاني لأنها مقسومة بين الله وبين العبد قسمين اثنين، ذكره الثعلبي وابن الجوزي.

- **والخامس:** لأنها نزلت مرتين، ذكره الثعلبي والواحدي وابن الجوزي عن الحسين بن الفضل.

- **والسادس:** لما فيها من ذكر المعاني المتقابلة كحق الله وحق العبد، والثواب والعقاب، والهدى والضلال، ونحو ذلك مما يطول شرحه، وهذا القول مأخوذ من معنى وصف القرآن كلّه بأنّه مثاني في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ على أحد الأقوال.

قال أبو المظفر السمعاني: (وإنما سمى القرآن مثاني؛ لاشتماله على علوم مثناة من الوعد والوعيد، والأمر والنهى، ونحوها).

والأقوال الأربعة الأولى مستندة على أصول لغوية صحيحة، وهي في نفسها معان صحيحة، لكن حمل معنى الآية على القول الأول أرجح وأولى، وهو قول جمهور العلماء.

معاني المثاني في لغة العرب:

ويطلق لفظ «المثاني» في اللغة على معانٍ سوى ما تقدّم: منها ما كان بعد المبادئ، وأثناء الشيء، وما انعطف وانحنى وإن لم يردّ آخره على أوّله ومنه مثاني الوادي أي ما انعطف وانحنى منه، وأكثر ما يطلق هذا اللفظ في كلام العرب وأشعارهم على الحبال لأنّها تُثْنَى بعضها على بعض عند فَتْلِها، ولهذه المعاني شواهدها المبثوثة في كتب اللغة، وترجع إلى أصول متقاربة، وليس هذا محلّ بسطها، وإنما المراد التنبيه إلى الأصول اللغوية لأقوال أهل العلم.

المراد بـ«المثاني» في النصوص وفي كلام أهل العلم:

ولفظ «المثاني» يرد في النصوص وفي استعمال أهل العلم على ستة معانٍ؛ فهو اسم مشترك لمعانٍ متعدّدة لا تعارض بينها، وأكثرها صحيح لا خلاف فيه، وفي بعضها ما استخرج فهماً لا نصاً، **والسياق يحدد المعنى المراد:**

المعنى الأول: القرآن كله مثانٍ، واستُدِلَّ له بقول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾.

وقال حسان بن ثابت:

فمن للقوافي بعد حسـان وابنه ... ومـن للمثاني بعد زيد بن ثابت

ونُسب هذا البيت لابنه عبد الرحمن.

والمعنى الثاني: آيات سورة الفاتحة، وبه فُسِّرَ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ على أحد الأقوال كما تقدّم.

والمعنى الثالث: السور السبع الطوال، وبه فسرت الآية السابقة على أحد الأقوال، واختلف في تعيين أسماء السور السبع على نحو أربعة أقوال.

والمعنى الرابع: أنها سور الربع الثالث من القرآن وهي ما بين المئين والمفصل على أحد الأقوال في معنى حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه مرفوعاً: «أعطيت السبع الطول مكان التوراة، وأعطيت المئين مكان الإنجيل، وأعطيت المثاني مكان الزبور، وفضلت بالمفصل» رواه أبو عبيد وأبو داوود الطيالسي وأحمد وابن جرير وغيرهم من طريق قتادة عن أبي المليح عن واثلة، وهو حديث حسن إن شاء الله.

قال إبراهيم النخعي: (قدم علقمة مكة فطاف بالبيت أسبوعا ثم صلى عند المقام ركعتين قرأ فيهما بالسبع الطول.

ثم طاف أسبوعا ثم صلى ركعتين قرأ فيهما بالمئين.

ثم طاف أسبوعا ثم صلى ركعتين قرأ فيهما بالمثاني.

ثم طاف أسبوعا ثم صلى ركعتين قرأ فيهما بالمفصل). رواه أبو عبيد في "غريب الحديث" عن جرير بن عبد الحميد عن منصور بن المعتمر عن إبراهيم النخعي، وهذا إسناد صحيح رجاله أئمّة ثقات.

وعلقمة هو ابن قيس النخعي من كبار فقهاء التابعين وقرائهم، صلّى خلف عمر سنتين، ولزم عبد الله بن مسعود وتفقّه به، وكان يُشبَّه به في هديه ودلّه وسمته، وهو خال إبراهيم النخعي.

و(طاف أسبوعاً) أي سبعة أشواط.

قال ابن جرير: (وأما «المثاني»: فإنَّها ما ثَنَّى المئِيَن فتلاها، وكان المئون لها أوائل، وكان المثاني لها ثواني).

وهذا المعنى راجع إلى تسمية ما بعد المبادئ بالمثاني.

والمعنى الخامس: أنها ما كانت آياتها دون المائة وليست من المفصل، وهذا القول ذكره البيهقي في شعب الإيمان، واستدلّ له بقول ابن عباس: «**قلت لعثمان: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني، وإلى براءة وهي من المئين، فقرنتم بينهما، ولم تكتبوا بينهما سطر** ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ **فوضعتموها في السبع الطول**» رواه أحمد وأبو داوود والترمذي والنسائي في الكبرى من طريق عوف الأعرابي عن يزيد الفارسي عن ابن عباس، ويزيد الفارسي ذكره البخاري في "الضعفاء"، وقال أبو زرعة: لا بأس به، ولعل الراجح أنه ممن لا يقبل تفرّده بمثل هذا الخبر.

والمعنى السادس: أنها أنواع معاني القرآن؛ فهو أمر ونهي، وبشارة ونذارة، وضرب أمثال، وتذكير بالنعم، وأنباء.

وهذا القول روى معناه ابن جرير عن زياد بن أبي مريم في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ قال: «**أعطيتك سبعةَ أجزاءٍ: مُرْ، وانْهَ، وبشِّرْ، وأنذِرْ، واضربِ الأمثال، واعدُدِ النّعم، وآتيتك نبأَ القرآن**».

وتفسير الآية بهذا المعنى لا دليل عليه، وهو مخالف لما صحّ عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ولا أعلم مستنداً لحصر معاني القرآن في هذه الأنواع من أثر ولا نظر، وبعض ما ذكر داخل في بعض.

١٠. القرآن العظيم

ودليل هذا الاسم ما تقدّم من أحاديث أبي هريرة وأبيّ بن كعب وأبي سعيد بن المعلّى: «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته».

وبه فسّر قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾

وهذا راجع إلى أنّ العظيم في هذا الموضع صفة مقيدة لا كاشفة، والفرق بينهما أن الصفة الكاشفة لا تخصص الموصوف وإنما تبيّن حاله وصفته كما في قوله تعالى: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾﴾ فالعُلى صفة كاشفة للسموات؛ لأن السموات السبع كلها عالية.

والصفة المقيّدة تخصص الموصوف وتخرج ما ليس على هذه الصفة، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ فلا تجزئ في كفارة القتل رقبة غير مؤمنة.

وبناء على هذا فقد **اختلف المفسّرون في وصف العظيم في قوله تعالى: ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ على قولين:**

القول الأول: صفة مقيّدة، والمراد به سورة الفاتحة، وإطلاق لفظ القرآن على بعض آياته من باب إطلاق الكل على الجزء، كما لو سمعت رجلاً يقرأ سورةً ثمّ قلت: هو يقرأ القرآن، كان خبرُكَ عنه صادقاً؛ وإن لم يكن يقرأ القرآن كلّه.

وهذا القول هو قول جمهور المفسّرين، لما تقدّم من الأحاديث، ويكون عطف «القرآن العظيم» على «السبع المثاني» لأجل تغاير الصفات مع كون الموصوف واحداً، كما في قول الله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١﴾، وقوله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾.

والقول الثاني: صفة كاشفة، والمراد القرآن كلّه، وهذا قول مجاهد بن جبر والضحاك بن مزاحم، وقال به من علماء اللغة أبو عبيدة وأبو علي القالي.

وهذا القول وإن كان حقاً في نفسه من حيث أن القرآن كلّه عظيم إلا أنّ المراد بهذا القرآن مخصوص بما دلّت عليه الأحاديث الصحيحة؛ ووصف العظم يتفاضل، فالقرآن بعضه أعظم من بعض، والفاتحة أعظم سورة في القرآن، وهي أولى بوصف القرآن العظيم.

فهذه عشرة أسماء ثابتة بأدلتها لهذه السورة، ومنها ما هو أقرب إلى اللقب من الاسم.

١١. الشافية، الشفاء

أمّا اسم الشافية فذكره: الزمخشري والبيضاوي وابن جزيء الكلبي وأبو حيان الأندلسي، وابن كثير وابن حجر والعيني وغيرهم.

وأمّا اسم الشفاء فذكره: الثعلبي والرازي والقرطبي وأبو حيان وغيرهم.

وهو من ألقاب سورة الفاتحة، ولا ريب أنّ القرآن كلّه شفاء، وأنّ سورة الفاتحة التي هي أعظم سوره أولى بهذا الوصف وأكثر نصيباً منه.

وقد ذكر بعض المفسّرين أن هذا الاسمَ مأخوذٌ من الأحاديث المروية في وصف الفاتحة بأنها شفاء؛ كمرسل عبد الملك بن عمير: «**في فاتحة الكتاب شفاء من كل داء**» رواه الدارمي والبيهقي، ونحوه من الأحاديث التي تقدّم ذكرها، وبيان ضعفها من جهة الإسناد.

وقد صحّ في الأحاديث الصحيحة أنها رقية نافعة، وقد شفى الله بها من شاء من خلقه.

لكن إذا أريد قصر شفاء الفاتحة على الرقية بها أمراض الأبدان؛ فهو صرف للمعنى عن المقصود الأعظم به، وهو شفاء القلب من أمراضه، والنفس من عللها وأدوائها، لما تضمّنته من الهدايات الجليلة العامّة التي شملت كلّ ما يُحتاج إليه بأحسن تنبيه، وأيسر طريق.

وبيان ذلك: أن شقاء النفس لا يكون إلا بسبب زيغها عن هدى الله تعالى، وتفريطها في اتّباع سبيل من أنعم الله عليهم؛ وعملها ببعض أعمال المغضوب عليهم والضالين، وكلّ شقاء مردّه إلى نوع من أنواع الضلالة عظمت أو دقّت.

وما يعمله العبد من الضلالات الدقيقة والجليلة له آثاره على قلبه ونفسه وجوارحه؛ وعلى ما يُبتلى به كما قال الله تعالى: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ والصواب أنّ هذه الآية ليست منسوخة، وقد فسّرها النبي صلى الله عليه وسلّم بما يدفع احتمال النسخ، ولا تعارض بينها وبين آيات العفو والمغفرة.

والمقصود أن كل ما يُخرج العبد من الشقاء أو يعصمه منه فهو شفاء، ولا ريب أنّ دلالة هذه السورة على ما يُهدى به العبد لذلك أعظم الدلالات

وأعمّها وأيسرها؛ فنصيبها من وصف الشفاء أعظم وأتمّ.

١٢. الكافية

وهذا الاسم أوّل من علمته ذكره من المفسّرين «الثعلبي» في تفسيره إذ روى بإسناده عن عفيف بن سالم الموصلي أنه قال: (سألت عبد الله بن يحيى بن أبي كثير عن قراءة الفاتحة خلف الإمام فقال: عن الكافية تسأل؟!

قلت: وما الكافية؟

قال: أما علمت أنها تكفي عن سواها، ولا يكفي سواها عنها، إياك أن تصلي إلّا بها).

وهذا الأثر فيه نكارة.

وقد استدلّ له الثعلبي بحديث: «أمّ القرآن عوض عن غيرها وليس غيرها منها عوضا» وقد تقدّم بيان ضعفه.

وممن ذكر هذا الاسم: الثعلبي والرازي والقرطبي والبيضاوي وأبو حيان وابن كثير وابن حجر والعيني والشوكاني وغيرهم.

١٣. الوافية

قال عبد الجبار بن العلاء: (كان سفيان بن عيينة يسمّي فاتحة الكتاب: «الوافية»). رواه الثعلبي.

وفي معنى تسميتها بالوافية قولان:

القول الأول: لأنها لا تقرأ إلا وافية في كلّ ركعة، وهذا قول الثعلبي.

قال الثعلبي: (وتفسيرها لأنها لا تُنَصَّفُ، ولا تحتَمِلُ الاجتزاء؛ ألا ترى أنَّ كلّ سورة من سور القرآن لو قرئ نصفها في ركعة والنصف الآخر في ركعة كان جائزاً، ولو نُصِّفَت الفاتحة وقرئت في ركعتين كان غير جائز).

والقول الثاني: لأنّها وافية بما في القرآن من المعاني، وهذا قول الزمخشري.

وهذا الاسم ذكره: الثعلبي والزمخشري والرازي والقرطبي والبيضاوي وابن كثير وابن حجر العسقلاني والعيني والسيوطي والشوكاني وغيرهم.

وتصحَّف هذا الاسم في تفسير ابن جزيء وتفسير أبي حيان وبعض طبعات تفسير ابن كثير إلى «الواقية».

١٤. سورة الرقية

وهذا الاسم ذكره القرطبي وابن كثير والسيوطي في حاشيته على تفسير البيضاوي.

قال القرطبي: (ثبت ذلك من حديث أبي سعيد الخدري وفيه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للرجل، الذي رقى سيد الحي: «ما أدراك أنها رقية»).

وقال ابن كثير: (ويقال لها: الرقية؛ لحديث أبي سعيد في الصحيح حين رقى بها الرجل السليم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وما يدريك أنها رقية؟»).

وهذا إذا أريد به اشتقاق وصف مدح للسورة من هذا الحديث فبابه واسع على الراجح من قولي العلماء، وإن أريد أن الحديث دالٌّ على أن من أسماء سورة الفاتحة «الرقية»؛ ففيه نظر كبير.

١٥ . سورة الصلاة

وهذا الاسم ذكره: الزمخشري والقرطبي والبيضاوي وأبو حيان وابن كثير وابن حجر والعيني والشوكاني وغيرهم.

واختلف في سبب هذه التسمية على قولين:

القول الأول: لأنّ الصلاة لا تجزئ إلا بها، وهذا القول قال به الثعلبي والزمخشري والبيضاوي.

والقول الثاني: للحديث القدسي: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، قال الله تعالى: حمدني عبدي...» الحديث، رواه مسلم، وقال بهذا قول النووي والقرطبي وابن كثير.

قال النووي: (قوله سبحانه وتعالى: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين» الحديث.

قال العلماء: المراد بالصلاة هنا الفاتحة، سميت بذلك لأنها لا تصح إلا بها كقوله صلى الله عليه وسلم: «الحج عرفة»)ا.هـ.

ولتسمية الفاتحة بالصلاة وجه آخر قويّ، وهو أنّ **الفاتحة صلة بين العبد وربّه، ويتحقق بها معنيا الصلاة:**

- **فهي صلاة من العبد لربّه** باعتبار دعائه وثنائه على الله وتوجّهه إليه.

- **وصلاة من الله على عبده** باعتبار إجابة الله لعبده وذكره له ورحمته إياه وإعطائه سؤله.

١٦. سورة الدعاء

قال مكحول الدمشقي: (مكحول، قال: أم القرآن قراءة ومسألة ودعاء). رواه أبو عبيد في فضائل القرآن من طريق أبي اليمان عن أبي بكر بن مريم عن مكحول، وهو من علماء التابعين ومفسّريهم.

وهذا الأثر لا يقتضي أن من أسماء الفاتحة الدعاء، لكن من المفسّرين من اشتقّ للسورة هذا الاسم لاشتمالها على الدعاء.

وقد ذكره البيضاوي وأبو حيان وابن حجر والعيني والفيروزآبادي والسيوطي في "الإتقان"، وغيرهم.

١٧. سورة السؤال

وهذا الاسم ذكره الرازي وأبو حيان والعيني والفيروزآبادي والسيوطي في الإتقان والخطيب الشربيني، والسؤال هنا بمعنى الدعاء.

وذكر الثعلبي والبيضاوي من أسمائها: سورة تعليم المسألة، وهو اسم غريب، وهو من دلائل توسّع بعضهم في باب أسماء السور.

١٨. الشكر

وهذا الاسم ذكره البيضاوي وأبو حيان وابن حجر والعيني والسيوطي.

قال العيني: (لأنها ثناء على الله تعالى).

١٩. الكنز

وهذا الاسم ذكره الزمخشري والبيضاوي وأبو حيان وابن كثير وابن حجر والعيني والفيروزآبادي والشوكاني.

واستُدِلَّ له بحديث أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعاً: «إن الله عز وجل أعطاني فيما منَّ به علي؛ إني أعطيتك فاتحة الكتاب، وهي من كنوز عرشي، ثم قسمتها بيني وبينك نصفين».

وقد سبق بيان ضعفه.

٢٠. الأساس، أساس القرآن

روى الثعلبي في تفسيره بإسناده عن وكيع أنه قال: إن رجلا أتى الشعبي فشكا إليه وجع الخاصرة.

فقال: «**عليك بأساس القرآن**».

قال: وما أساس القرآن؟

قال: «**فاتحة الكتاب**».

قال الشعبي: سمعت عبد الله بن عباس غير مرّة يقول: «**إن لكل شيء أساسا** ...» إلى أن قال: «**وأساس الكتب القرآن، وأساس القرآن الفاتحة، وأساس الفاتحة بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**».

وهو خبر مكذوب.

وهذا الاسم ذكره: الثعلبي، والرازي، والقرطبي، البيضاوي، وأبو حيان، وابن كثير، وابن حجر، والعيني، والفيروزآبادي، والسيوطي، والشوكاني.

قال العيني: (لأنها أوَّل سورة في القرآن فهي كالأساس).

وقد ذكر أبو حيان ومن بعده السيوطي لهذه السورة أسماء أخرى منها:

النور، و**المناجاة**، و**التفويض**، ولا أعلم لهذه الأسماء ذكراً في التفاسير المتقدّمة.

وذكر الفيروزآبادي من أسمائها (**سورة الثناء**) ولا أعلم له ذكراً في كتب التفسير.

هذا خلاصة ما ذكره العلماء في شأن أسماء سورة الفاتحة، والله تعالى أعلم.

الباب الثالث: شرح مسائل نزول سورة الفاتحة

من المسائل التي يبحثها أهل العلم في شأن نزول الفاتحة:

- هل سورة الفاتحة مكية أو مدنية؟
- هل تكرر نزولها؟
- هل نزلت جميعاً؟
- كيف كان حال نزولها؟
- وما ترتيب نزولها؟
- وهل صحّ أنها نزلت من كنز تحت العرش؟
- وهل نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو على الأرض أم في السماء حين فرضت الصلاة؟
- وبيان اختصاص هذه الأمة بتنزيل سورة الفاتحة.

وموضوع هذا الباب الجواب على هذه الأسئلة المتقدّمة، وقد أُدخِلُ الحديثَ عن بعض المسائل في بعض.

الخلاف في مكيّة سورة الفاتحة:

اختلف العلماء في نزول سورة الفاتحة على أقوال:

القول الأول: هي سورة مكية، وهو قول أبي العالية الرياحي والربيع بن أنس البكري.

وروي عن عمر وعلي وابن مسعود وابن عباس وفي الرواية عنهم ما يأتي توضيحه إن شاء الله.

وروي عن الحسن البصري وسعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح وقتادة السدوسي وغيرهم.

وقد استدلَّ جماعة من المفسّرين لهذا القول بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ۝٨٧﴾، وهذه الآية من سورة الحجر وهي مكيَّة باتفاق العلماء.

وقد صحّت الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم في أنّ المراد بالسبع المثاني والقرآن العظيم فاتحة الكتاب، وقد تقدَّم ذكرها.

روى ابن جرير الطبري بإسناده عن أبي جعفرٍ الرّازيّ، عن الرّبيع بن أنس البكري، عن أبي العالية الرياحي في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ قال: «**فاتحة الكتاب، سبع آياتٍ**».

قال أبو جعفر الرازي: قلت للرّبيع: إنّهم يقولون: السّبع الطّول.

فقال: «**لقد أنزلت هذه وما نزل من الطّول شيءٌ**».

وروى ابن جرير نحوه موصولاً إلى أبي العالية الرياحي.

تحقيق نسبة هذا القول إلى بعض الصحابة رضي الله عنهم:

روي هذا القول عن عمر وعلي وابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم أجمعين.

فأما عمر بن الخطاب فعمدة نسبة هذا القول إليه ما روي عنه من تفسير السبع المثاني بفاتحة الكتاب.

روى ابن جرير في تفسيره من طريقين عن سعيد الجريري عن أبي نضرة العبدي أنه قال: قال رجلٌ منّا يقال له جابرٌ أو جويبرٌ: طلبت إلى عمر حاجةً في خلافته، فقدمت المدينة ليلاً فمثلت بين أن أتّخذ منزلاً وبين المسجد، فاخترت المسجد منزلاً فأرقت نشوًا من آخر اللّيل، فإذا إلى جنبي رجلٌ يصلّي يقرأ بأمّ الكتاب ثمّ يسبّح قدر السّورة، ثمّ يركع ولا يقرأ، فلم أعرفه حتّى جهر، فإذا هو عمر، فكانت في نفسي، فغدوت عليه، فقلت: يا أمير المؤمنين حاجةٌ مع حاجةٍ قال: «**هات حاجتك**» قلت: إنّي قدمت ليلاً فمثلت بين أن أتّخذ منزلاً وبين المسجد، فاخترت المسجد، فأرقت نشوًا من آخر اللّيل، فإذا إلى جنبي رجلٌ يقرأ بأمّ الكتاب ثمّ يسبّح قدر السّورة ثمّ يركع ولا يقرأ، فلم أعرفه حتّى جهر، فإذا هو أنت، وليس كذلك نفعل قبلنا. قال: «**وكيف تفعلون؟**» قال: يقرأ أحدنا أمّ الكتاب، ثمّ يفتتح السّورة فيقرؤها، قال: «**ما لهم يعلمون ولا يعملون؟ ما لهم يعلمون ولا يعملون؟ ما لهم يعلمون ولا يعملون؟ وما يبتغى عن السّبع المثاني وعن التّسبيح صلاة الخلق**»).

وهذه القصّة فيها نكارة، وفيها جهالة حال شيخ أبي نضرة، وأمّا الجريري وأبو نضرة فثقتان.

وليس في هذه الرواية تصريح بمكيّة الفاتحة سوى تفسير السبع المثاني بفاتحة الكتاب مع ما عُلِم من أنّ سورة الحجر مكية.

وأمّا عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه؛ فرويت عنه روايتان إحداهما صحيحة غير صريحة، والأخرى صريحة غير صحيحة.

فأمّا الرواية الأولى: فما رواه السّدّيّ، عن عبد خيرٍ، عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: «**السّبع المثاني: فاتحة الكتاب**». رواه ابن جرير وسفيان الثوري والطحاوي في "شرح مشكل الآثار" والدارقطني في سننه والبيهقي في "شعب الإيمان" من طرق عن السدّي عن عبد خير عن علي رضي الله عنه، وهو إسناد حسن.

وأما الرواية الأخرى: فما روي عنه أنه قال: «**نزلت فاتحة الكتاب بمكة من كنز تحت العرش**». رواه الثعلبي في تفسيره ومن طريقه تلميذه الواحدي في أسباب النزول بإسنادهما إلى مروان بن معاوية الفزاري عن العلاء بن المسيب عن الفضيل بن عمرو عن علي.

وهذه الرواية ضعيفة لعلّتين:

إحداهما: انقطاع الإسناد فإنّ فضيل بن عمرو لم يدرك عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه.

والأخرى: أنّ هذا الأثر رواه إسحاق بن راهويه كما في "إتحاف الخيرة" قال: حدثنا يحيى بن آدم ثنا أبو زبيد واسمه عبثر عن العلاء بن المسيب عن فضيل بن عمرٍو، عن علي بن أبي طالبٍ رضي اللهّ عنه أنّه سئل عن فاتحة الكتاب، فقال: ثنا نبيّ اللهّ صلّى اللهّ عليه وسلّم ثمّ تغيّر لونه، وردّدها ساعةً حين ذكر النّبيّ صلّى اللهّ عليه وسلّم ثمّ قال: «أنها نزلت من

كنزٍ تحت العرش».

فلم يذكر فيه نزول سورة الفاتحة بمكّة.

وأما ابن مسعود رضي الله عنه فلما روى ابن جرير في تفسيره من طريق عبد الله بن إدريس عن هشام بن حسان عن ابن سيرين، قال: سئل ابن مسعودٍ عن سبعٍ من المثاني، قال: «**فاتحة الكتاب**».

وهذا الأثر رجال إسناده أئمة ثقات لكنَّه منقطع؛ فابن سيرين لم يدرك ابن مسعود.

وأمّا ابن عباس رضي الله عنهما فأخرج له ابن الضريس في "فضائل القرآن" رواية من طريقين عن عطاء الخراساني عن ابن عباس أنه قال: «**أول ما نزل من القرآن بمكة، وما أنزل منه بالمدينة الأول فالأول، فكانت إذا نزلت فاتحة سورة بمكة، فكتبت بمكة، ثم يزيد الله فيها ما يشاء، وكان أول ما أنزل من القرآن:** ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾، **ثم** ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ﴾، **ثم** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١﴾، **ثم** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١﴾، **ثم الفاتحة، ثم** ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ﴾ ...» ثم ساق سور القرآن كلها.

وهذه الرواية ضعيفة جداً، في أحد طريقيها عمر بن هارون متروك الحديث، وفي الثانية ابن جريج وقد عنعن، وعطاء الخراساني لم يدرك ابن عباس، ومتن الأثر فيه نكارة ومخالفة ظاهرة لبعض ما صحّ في نزول السور.

وابن عباس رويت عنه روايتان في المراد بالسبع المثاني أصحّهما التي من طريق عبد الملك بن جريج عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن قال في قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي﴾ قال: «**هي فاتحة الكتاب**». رواه الشافعي وعبد الرزاق وابن جرير.

وقد اختلفت الرواية عن أبي هريرة في هذه المسألة، وسيأتي توضيح ذلك إن شاء الله تعالى.

وأما سعيد بن جبير والحسن البصري وقتادة وعطاء بن أبي رباح فعمدة الرواية عنهم ما صحّ من تفسيرهم السبع المثاني بأنّها سورة الفاتحة مع علمهم بأنّ سورة الحجر مكية.

وهذا القول هو قول جمهور المفسّرين:

قال الثعلبي: (وعلى هذا أكثر العلماء).

وقال البغوي: (وهي مكية على قول الأكثرين).

قال الثعلبي: (ومعلوم أن الله تعالى لم يمتنّ عليه بإتيانه السبع المثاني وهو بمكة، ثم أنزلها بالمدينة، ولا يسعنا القول بأن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان بمكة يصلي عشر سنوات بلا فاتحة الكتاب، هذا ممّا لا تقبله العقول).

وقال ابن عطية: (ولا خلاف أن فرض الصلاة كان بمكة، وما حفظ أنها كانت قط في الإسلام صلاة بغير الحمد لله رب العالمين).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وفاتحة الكتاب نزلت بمكة بلا ريب كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته» وسورة الحجر مكية بلا ريب).

قال: (وكذلك قول من قال: الفاتحة لم تنزل إلا بالمدينة غلط بلا ريب. ولو لم تكن معنا أدلة صحيحة تدلنا على ذلك لكان من قال إنها مكية معه زيادة علم)ا.هـ

وتفسير آخر كلامه أنَّ الفاتحة من القرآن بلا ريب، وهي إما مكية وإما مدنية؛ فمن قال إنها مكيَّة فلِمَا لديه من زيادة علم بتقدّم نزولها.

والقول الثاني: هي مدنية، وهو قول مجاهد بن جبر.

وقد نُسب خطأ إلى أبي هريرة وعبد الله بن عبيد بن عمير، وعطاء بن يسار، وعطاء الخراساني، وسوادة بن زياد، والزهري.

وقد حكى هذه الأقوال عنهم أبو عمرو الداني وابن عطية وابن الجوزي وعلم الدين السخاوي والقرطبي وابن كثير، وكَثُر تداولها في كتب التفسير وعلوم القرآن، وقد زاد بعضهم على بعض، ووقع في بعض هذه الأسماء تصحيف في بعض كتب التفسير.

فربما ظنَّ من رأى كثرة من نُسب إليهم هذا القول أن في المسألة خلافاً قوياً، وهي لا تصحّ عنهم، ولا أصل لها فيما بين أيدينا من الكتب المسندة إلا ما كان من الخطأ في رواية هذا القول عن أبي هريرة رضي الله عنه، وسيأتي توضيحه.

قال ابن حجر العسقلاني: (وأغرب بعض المتأخّرين فنسب القول بذلك لأبي هريرة والزّهريّ وعطاء بن يسارٍ).

قلت: وقد توسّع من بعدهم في نسبة هذا القول إلى آخرين.

بيان أنواع ما يُنسب إلى المفسّرين من الأقوال:

ومما ينبغي أن يعلمه طالب علم التفسير أن الأقوال المنسوبة إلى المفسّرين على نوعين:

النوع الأول: أقوال منصوصة، تدلُّ بنصّها على ما استدلَّ بها عليه، وهذه الأقوال يكون فيها الصحيح والضعيف من جهة الإسناد ومن جهة المتن.

والنوع الثاني: أقوال مستخرجة على أصحابها؛ لم يقولوا بنصّها؛ لكنّها فُهمت من قصّة وقعت لهم، أو من نصّ آخر على مسألة أخرى؛ ففُهم من ذلك النص أنه يلزم منه أن يقول في هذه المسألة بكذا وكذا، أو بطرق أخرى من طرق الاستخراج.

واستخراج الأقوال على قسمين:

- **فمنه استخراج ظاهر**؛ لظهور الدلالة عليه ولزومه لقول صاحبه مع ظهور التزامه به، فهذا النوع قد جرى عمل العلماء على نسبته، ومع هذا فيفضّل عند السعة والبسط أن يبيّن أنه قول مستخرج.

- **ومنه استخراج غير ظاهر**؛ إما لخفاء وجه الدلالة، أو عدم ظهور وجه اللزوم، أو وجود نصّ آخر له يعارض هذا اللزوم، وهذا القسم من الاستخراج لا يصحّ أن ينسب إلى العالم القول بمقتضاه؛ وقد تساهل في ذلك بعض المفسرين، ومنهم من يستخرج القول؛ فينُقل عنه ويشيع.

وقد يجتمع مع عدم صراحة الدلالة عدم صحّة الرواية، ثم ينتشر القول في كتب المفسّرين بسبب كثرة نقل بعضهم عن بعض إلى أن ينبّه إلى ذلك

بعض العارفين بالأسانيد من أهل الحديث والتفسير؛ لكن ربما يخفى ذلك التنبيه على بعض طلاب العلم.

ولذلك حرصت في هذا الكتاب على محاولة التقصّي والتثبّت من نسبة الأقوال إلى قائليها، وتمييز ما صحّ مما لم يصح مما فيه إشكال، وبيان علل الأقوال الضعيفة وأسباب ضعفها ما أمكنني ذلك، جعله الله نصيحةً له تعالى ولكتابه ولطلاب العلم، والله المستعان وعلى التوكّل وبه التوفيق.

ثم لطالب العلم بعد ذلك أن يلخّص ما ترجح بعد معرفته ما صحّ مما لم يصح، وأن يتجاوز الحديث عن كثير من التفصيل في صحة نسبة الأقوال وبيان عللها.

ونسبة القول بأن الفاتحة مدنية إلى أبي هريرة رضي الله عنه لها علّة ينبغي أن تُكشف ليتبيّنها طالب علم التفسير:

فقد روى أبو الأحوص الكوفي عن منصور بن المعتمر عن مجاهد عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «**رنَّ إبليس حين أنزلت فاتحة الكتاب، وأنزلت بالمدينة**» أخرجه الطبراني في "الأوسط"، وابن الأعرابي في معجمه كلاهما من طريق أبي بكر بن أبي شيبة عن أبي الأحوص به، وهو في "مصنف ابن أبي شيبة" مختصراً بلفظ: «**أنزلت فاتحة الكتاب بالمدينة**».

وهذا الإسناد رجاله ثقات إلا أنّه منقطع، فإنّ مجاهداً لم يسمع من أبي هريرة.

وقد سُئل الدارقطني عن هذا الحديث فقال: (يرويه منصور بن المعتمر واختلف عنه؛ فرواه أبو الأحوص عن منصور عن مجاهد عن أبي هريرة، وغيره يرويه عن منصور، عن مجاهد من قوله وهو الصواب)ا.هـ.

ورواه ابن أبي شيبة مقطوعاً على مجاهد من طريق زائدة، عن منصور، عن مجاهد، قال: «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ **أنزلت بالمدينة**».

ورواه أبو عبيد القاسم بن سلام في "فضائل القرآن" من طريق عبد الرحمن بن مهدي، عن سفيان الثوري، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، قال: «**نزلت فاتحة الكتاب بالمدينة**».

فالأثر ثابت عن مجاهد رحمه الله، لكنْ وصله إلى أبي هريرة خطأ.

قال الحسين بن الفضل البجلي(ت:٢٨٢هـ): (لكل عالم هفوة، وهذه منكرة من مجاهد لأنّه تفرَّد بها، والعلماء على خلافه). ذكره الثعلبي.

وأما نسبة هذا القول إلى **محمّد بن مسلم الزهري** فلأجل ما روي عنه في كتاب "تنزيل القرآن" المنسوب إليه، وأنه عدَّ الفاتحة أول ما نزل بالمدينة، وفي إسناده الوليد بن محمد الموقّري وهو متروك الحديث.

وأما عبد الله بن عبيد بن عمير الليثي فمن أصحاب ابن عباس رضي الله عنهما، وله مرويات كثيرة في كتب التفسير، وكان إمام المسجد الحرام في زمانه، وقد روى عنه ابن جرير من طريقين ما يوافق قول الجمهور في المراد بالسبع المثاني بأنها فاتحة الكتاب؛ فلو استُخرج له من هذا الأثر رواية بمكية سورة الفاتحة لكان أهون من أن يُنسب إليه ضدها.

وقد تحرّف اسمه في بعض كتب التفسير إلى عبيد الله بن عبد الله بن عمر، وهو خطأ.

وكذلك عطاء الخراساني روى عنه عبد الرزاق وابن جرير ما يوافق قول الجمهور في المراد بالسبع المثاني .

وأمَّا عطاء بن يسار وسوادة بن زياد البرجمي فحكى ابن عطيَّة في تفسيره نسبة هذا القول إليهما، ولا أعلم للرواية عنهما في هذه المسألة أصلاً فيما بين أيدينا من الكتب المسندة، وقد تقدّم ذكر استغراب ابن حجر لنسبة هذا القول.

والقول الثالث: نزلت مرتين: مرة بمكَّة ومرة بالمدينة، وهذا القول نسبه الثعلبي والواحدي في "البسيط" والبغوي في "معالم التنزيل" إلى الحسين بن الفضل البجلي (ت:٢٨٢هـ).

قال الواحدي: (وقال الحسين بن الفضل: سميت مثاني؛ لأنها نزلت مرتين اثنتين؛ مرة بمكة في أوائل ما نزل من القرآن، ومرة بالمدينة)ا.هـ.

وقال البغوي: (وقال الحسين بن الفضل: سميت مثاني لأنها نزلت مرتين مرة بمكة ومرة بالمدينة كل مرة معها سبعون ألف ملك).

والحسين بن الفضل البجليّ من كبار المفسّرين، وله تفسير مفقود ينقل عنه الثعلبي كثيراً؛ وقد تقدَّم ذكر انتقاده لرواية مجاهد، وعدّه إيَّاها هفوة، فلعلَّ لحكاية هذا القول عنه علَّة يكشفها النظر في تفسيره أو العثور على نقل تامّ لعبارته.

وفي نقل البغوي ما يُشعر أنَّ النص مأخوذ من أثرٍ حكاه البجلي في تفسيره؛ فنُسب إليه؛ لأنه يبعد أن يُنشئ القول بذكر نزول هذا العدد من الملائكة مع سورة الفاتحة من تلقاء نفسه.

وقال بهذا القول القشيري (ت:٤٦٥هـ) في تفسيره المسمَّى "لطائف الإشارات"، قال في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾: (أكثر المفسرين على أنها سورة الفاتحة، وسميت

مثاني لأنها نزلت مرتين: مرة بمكة، ومرة بالمدينة)ا.هـ.

وذكر هذا القول بعد ذلك الكرماني والزمخشري وابن كثير وغيرهم من غير نسبة إلى أحد.

وقد حمل الشوكانيُّ هذا القول على إرادة الجمع بين القولين المتقدّمين، وهو جمع فيه نظر، والقول بتكرر النزول لا يصحّ إلا بدليل صحيح يُستند إليه.

والخلاصة أن هذا القول ضعيف، وفي النفس من نسبته إلى الحسين بن الفضل شيء.

والقول الرابع: نزل نصفها بمكة، ونصفها الآخر بالمدينة، وهذا القول ذكره أبو الليث السمرقندي (ت:٣٧٥هـ) في تفسيره، قال: (ويقال: نصفها نزل بمكة، ونصفها نزل بالمدينة)ا.هـ.

وهو قول باطل لا أصل له، ولم ينسبه أبو الليث إلى أحد.

وقد ذكر هذا القول القرطبي وابن كثير من باب جمع ما قيل في هذه المسألة لا على سبيل الإقرار.

قال ابن كثير: (وهو غريب جداً).

وتلخيص ما سبق في نزول سورة الفاتحة أنها مكية لقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾، وقد صحّ تفسير النبي صلى الله عليه وسلم للمراد بالسبع المثاني أنها فاتحة الكتاب من حديث أبيّ بن كعب وحديث أبي سعيد بن المعلى وحديث أبي هريرة رضي الله عنهم جميعاً، وهي أحاديث صحيحة لا مطعن فيها، وسورة الحجر سورة مكية باتفاق العلماء.

وقد صح عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ما يوافق تفسير النبي صلى الله عليه وسلم، وروي ما يوافقه عن عمر وابن مسعود وأبي هريرة بأسانيد فيها مقال.

وصحّ هذا التفسير عن جماعة من التابعين.

وصحّ ما يفيد النصّ على أنها مكية عن أبي العالية الرياحي والربيع بن أنس البكري.

ولا يصحّ خلاف ذلك عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم، ولا عن أحد من التابعين إلا ما سبق بيانه عن مجاهد رحمه الله.

وجمهور أهل العلم على أنَّ الفاتحة مكيَّة، وهو الصواب، والله تعالى أعلم.

خبر نزول سورة الفاتحة

كان لنزول سورة الفاتحة شأن خاصٌّ يدلّ على فضلها وعظمتها، وفيه إشارة إلى ما ينبغي أن تُتلقَّى به هذه السورة من حسن التلقّي والقبول والتكريم.

روى عمَّار بن رُزيق عن عبد الله بن عيسى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (بينما جبريل قاعد عند النبي صلى الله عليه وسلم، سمع نقيضا من فوقه، فرفع رأسه، فقال: «هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم»، فنزل منه ملك، فقال: «هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم»؛ فسلَّم وقال: «أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته». رواه مسلم وابن أبي شيبة والنسائي في الكبرى وغيرهم.

النقيض هو الصوت، ونقيض السقف تحرّك أجزائه حتى يُحدث صوتاً.

وفي هذا الحديث بشارة عظيمة للنبيّ صلى الله عليه وسلم ولأمّته بما اختصّهم الله به من إنزال سورة الفاتحة وخواتيم سورة البقرة عليهم دون سائر الأمم.

وأنزلَ ملكاً كريماً إلى السماء لم ينزل من قبل، وما نزل إلا ليبلّغ النبيَّ صلى الله عليه وسلم هذه **البشارات العظيمة، وما تضمّنته كلّ بشارة منها من كرامات جليلة للنبيّ صلى الله عليه وسلّم ولأمّته تستوجب شكر الله تعالى ومحبّته واتّباع رضوانه.**

فالبشارة الأولى: أنها نور عظيم البركة واسع الهدايات جليل البصائر:

- فهي نور يبصّر العبد بما يعرّفه بربّه جلّ وعلا، وبأسمائه الحسنى وصفاته العليا التي تقتضي من العبد اجتماع عبوديّات المحبّة والخوف والرجاء.

- وهي نور يبصّر المؤمن بمقصد خلقه، والحكمة من إيجاده، وأنه إنما خُلق ليقوم بعبادة ربّه وحده لا شريك له.

- وهي نور يبصّر المؤمن بحاجته إلى عون الله تعالى في كلّ شأن من شؤونه، ويرشده إلى استصحاب حال العبودية والاستعانة في جميع شؤونه.

- وهي نور يبصّر المؤمن بسبب الهداية ومصدرها، ووصف سبيلها، وحال أهلها، وعاقبتهم.

- وهي نور يبصّر المؤمن بأنه لا فلاح له إلا بالعلم النافع والعمل الصالح.

- وهي نور يبصّر المؤمن بسوء عاقبة الذين فرّطوا في العلم والذين فرّطوا في العمل من المغضوب عليهم والضالين.

وهذه الأمور تنتظم حياة المؤمن كلّها، لا تخلو حالة من حالاته من حاجة إلى التبصّر بمعاني هذه السورة العظيمة والاهتداء بهداياتها.

فهذا بعض معاني البشارة الأولى فيما يخصّ سورة الفاتحة.

والبشارة الثانية: أنّ هذه السورة كرامة خاصّة لهذه الأمّة؛ لم تُعطها أمّة من الأمم، وفي ذلك من تشريف هذه الأمّة وتكريمها ما لا يخفى، وهذا التكريم يقتضي من المكرَّمين به تقبّله بما يحبّه الله تعالى من الفرح بفضله، والقيام بشكره، واتّباع رضوانه؛ فمن شكر كانت هذه البشارات نعمة عظيمة في حقّه يغتبط بها في دنياه وأخراه، ويجد من فضلها وكرامتها على قدر ما يتّبع من هداياتها.

ومن كفر كانت تلك البشارات حسرة عليه؛ لما يرى من خسرانه بتفريطه، وفوز من تلقّوا هذه البشارة بالقبول والشكر.

والبشارة الثالثة: أنَّ دعاء الداعي بها مستجاب؛ وأكّد هذه البشارة بتأكيد جامع بين أسلوبي الحصر والاستغراق؛ «لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته».

«بحرفٍ» نكرة في سياق النفي؛ ودخلت عليها الباء لإفادة استغراق العموم؛ فلا يُستثنى منه حرف، والحرف هنا كلّ جملة طلبية كانت أو خبرية؛ فالجملة الطلبية عطاؤها الإجابة، والجملة الخبرية الذكرُ والإثابة.

«إلا أعطيته» تأكيد للعطاء بأسلوب الحصر بإلا؛ الدالّ على إعطاء جميع المطلوب.

فحريّ بمن نصح لنفسه أن يعرف قدر هذه البشارات العظيمة، وحقّ هذا الفضل والتكريم، وأن يحرص كلّ الحرص أن يكون ممن ينفعهم الله بما أنزل الله من الهدى والنور في هذه السورة العظيمة، وأن يحرص كلّ الحرص على اجتناب ما تنقلب به هذه البشارات إلى حسرات عليه.

فقوله: «لن تقرأ» القراءة المعتبرة هنا هي القراءة التي يحبّها الله تعالى ويرضاها، وهي القراءة التي اشتملت على شرطي القبول من الإخلاص والمتابعة؛ فإذا قرأ العبد الفاتحة قراءة مخلصاً فيها لله جلّ وعلا، ومتبعاً فيها النبي صلى الله عليه وسلم كانت قراءته متقبَّلة نافعة، وتحت هذه الجملة ما يطول شرحه، واللبيب من وفّقه الله لفقهها.

ترتيب نزول سورة الفاتحة

لا يصحّ في ترتيب نزول سورة الفاتحة حديث ولا أثر مما وقفت عليه، ولا تحديد لتاريخ نزولها، وقد روي في ذلك حديث مرسل عن أبي ميسرة الهمداني، وآثار ضعيفة عن ابن عباس وجابر بن زيد وعطاء الخراساني وابن شهاب الزهري، وهي آثار ضعيفة جداً في ترتيب نزول سور القرآن، لا يصحّ منها شيء؛ فلا نطيل الكلام عليها.

وأما مرسل أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل الهمداني فهو ما أخرجه البيهقي في "دلائل النبوة" من طريق يونس بن بكير عن يونس بن عمرو عن أبيه عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لخديجة: «إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء، وقد والله خشيت أن يكون هذا أمراً».

فقالت: «**معاذ الله ما كان الله ليفعل بك فو الله إنك لتؤدي الأمانة، أو تصل الرحم، وتصدق الحديث**».

فلما دخل أبو بكر وليس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم ذكرت خديجة حديثه له وقالت: يا عتيق اذهب مع محمد إلى ورقة، فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أخذ أبو بكر بيده، فقال: انطلق بنا إلى ورقة، فقال: ومن أخبرك؟

قال: خديجة، فانطلقا إليه، فقصَّا عليه.

فقال: «إذا خلوت وحدي سمعت نداء خلفي: يا محمد، يا محمد، فأنطلق هاربا في الأرض».

فقال: لا تفعل فإذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول ثم ائتني فأخبرني؛ فلما خلا ناداه يا محمد قل: بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين، حتى بلغ: ولا الضالين، قل: لا إله إلا الله، فأتى ورقة فذكر ذلك له فقال له ورقة: أبشر، ثم أبشر، فأنا أشهد أنك الذي بشر به ابن مريم، وأنك على مثل ناموس موسى، وأنك نبي مرسل، وأنك سوف تُؤمر بالجهاد بعد يومك هذا ولئن أدركني ذلك لأجاهدن معك).

وهذا الخبر رجاله ثقات يونس بن عمرو هو ابن أبي إسحاق السبيعي، وأبو ميسرة تابعيٌّ ثقة من كبار التابعين وفضلائهم، لكن هذا الخبر فيه حروف منكرة؛ فلا يحتجّ به لإرساله، ولما فيه من نكارة، ولمخالفته ما صحّ في الأحاديث الصحيحة من أنَّ أوَّل ما نزل من القرآن صدر سورة اقرأ.

وقد رواه أيضاً الثعلبي والواحدي من طريق أبي إسحاق السبيعي عن أبي ميسرة، وقد اختلفا في إسناده ومتنه.

قال ابن حجر في "العجاب": (وهو مرسل ورجاله ثقات؛ فإن ثبت حمل على أنَّ ذلك كان بعد قصة غار حراء، ولعله كان بعد فترة الوحي والعلم عند الله تعالى).

ومما ينبغي التنبيه عليه قول الزمخشري في كشافه: (وأكثر المفسرين إلى أن أول سورة نزلت فاتحة الكتاب).

وقد نقل هذا القولَ عنه بعض المفسّرين، وهو خطأ محض، وقد ردّه ابن حجر في "فتح الباري"؛ فقال في باب تفسير سورة العلق: (قال صاحب الكشاف: «ذهب ابن عباس ومجاهد إلى أنها أول سورة نزلت وأكثر المفسرين إلى أن أول سورة نزلت فاتحة الكتاب» كذا قال والذي ذهب أكثر الأئمة إليه هو الأول وأما الذي نسبه إلى الأكثر فلم يقل به إلا عدد أقل من القليل بالنسبة إلى من قال بالأول)ا.هـ.

وقال ابن عاشور: (وقد حقّق بعض العلماء أنّها نزلت عند فرض الصّلاة فقرأ المسلمون بها في الصّلاة عند فرضها)ا.هـ.

وهذا القول يفتقر إلى دليل، وحديث ابن عباس المتقدّم دالٌّ على أنّ سورة الفاتحة نزلت على النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو في الأرض، والصلاة فرضت عليه في السماء لمّا عُرج به.

نزولها من كنز تحت العرش:

وأما نزولها من كنز تحت العرش فروي فيه حديثان ضعيفان:

أحدهما: حديث صالح بن بشير عن ثابت عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله عز وجل أعطاني فيما منَّ به علي؛ إني أعطيتك فاتحة الكتاب، وهي من كنوز عرشي، ثم قسمتها بيني وبينك نصفين» رواه ابن الضريس في "فضائل القرآن" والعقيلي في "الضعفاء" والبيهقي في "شعب الإيمان" والديلمي في "مسند الفردوس" كلهم من طريق مسلم بن إبراهيم عن صالح بن بشير المري عن ثابت عن أنس، وصالح بن بشير ضعيف الحديث، قال النسائي: متروك الحديث.

والآخر: حديث العلاء بن المسيّب، عن فضيل بن عمرٍو، عن علي بن أبي طالبٍ رضي اللهّ عنه أنّه سئل عن فاتحة الكتاب، فقال: حدّثنا نبيّ اللهّ صلّى اللهّ عليه وسلّم ثمّ تغيّر لونه، وردّدها ساعةً حين ذكر النّبيّ صلّى اللهّ عليه وسلّم ثمّ قال: «أنها نزلت من كنزٍ تحت العرش». رواه إسحاق بن راهويه كما في إتحاف الخيرة والديلمي في "مسند الفردوس" كلاهما من هذا الطريق، وهو ضعيف لانقطاع إسناده؛ فإنّ فضيلاً لم يدرك عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه.

وقد صحّ من حديث حذيفة بن اليمان وحديث أبي ذرٍّ رضي الله عنهما أنّ الذي نزل من تحت العرش خواتيم سورة البقرة:

- **فأما حديث حذيفة بن اليمان** رضي الله عنهما فرواه أبو داوود الطيالسي وابن أبي شيبة وأحمد والنسائي وغيرهم من طريق أبي مالك الأشجعي

عن ربعيّ بن حراشٍ عن حذيفة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فُضّلنا على الناس بثلاث: جعلت لي الأرض كلها لنا مسجدا وجعلت تربتها لنا طهورا، وجعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وأوتيت هؤلاء الآيات آخر سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يعط منه أحد قبلي ولا يعطى منه أحد بعدي».

وأصل الحديث في صحيح مسلم غير أنّه ذكر الخصلتين الأولين ثم قال: (وذكر خصلة أخرى..).

قال الألباني: (وهي هذه قطعا).

- **وأما حديث أبي ذرٍّ** رضي الله عنه فرواه الإمام أحمد من طريق شيبان عن منصور بن المعتمر عن ربعي بن حراش، عن خرشة بن الحر، عن المعرور بن سويد، عن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أعطيت خواتيم سورة البقرة من بيت كنز من تحت العرش، ولم يعطهن نبي قبلي».

وله طرق أخرى، وقد اختلف الرواة فيه على منصور، وقال الدارقطني: (القول قول شيبان).

الباب الرابع: عدد آيات سورة الفاتحة

سورة الفاتحة سبع آيات بإجماع القرَّاء والمفسّرين، وقد دلَّ على ذلك النصّ كما دلَّ الإجماع:

- فأما دلالة النصّ فقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ مع ما صحّ عن النبي صلى الله عليه وسلم من تفسيرها بسورة الفاتحة؛ فيكون العدد منصرفاً إلى آياتها.

قال أبو العالية الرياحي في قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ قال: «**فاتحة الكتاب سبع آياتٍ**». رواه ابن جرير.

- وأمَّا الإجماع فقد حكاه جماعة من أهل العلم منهم: ابن جرير الطبري، وابن المنذر، وأبو جعفر النحاس، وأبو عمرو الداني، والبغوي، وابن عطية، والشاطبي، وابن الجوزي، وعلم الدين السخاوي، وابن تيمية، وابن كثير، وغيرهم كثير.

قال ابن جرير: (لا خلاف بين الجميع من القرَّاء والعلماء في ذلك).

وقد اتّفق علماءُ العدد على أنها سبع آيات.

قال أبو عمرو الداني: (اعلم أيدك الله بتوفيقه أنَّ الأعداد التي يتداولها الناس بالنقل، ويعدُّون بها في الآفاق قديماً وحديثاً ستة: عدد أهل المدينة الأوَّل، والأخير، وعدد أهل مكة، وعدد أهل الكوفة، وعدد أهل البصرة،

وعدد أهل الشام)ا.هـ.

والمقصود بالعدّ الشامي العدّ الدمشقي وهو المرويّ عن عبد الله بن عامر اليحصبي(ت:١١٨هـ) أحد القراء السبعة، وقد أخذ القراءةَ عن أبي الدرداء رضي الله عنه، وعن المغيرة بن أبي شهاب المخزومي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه.

ومن أهل العلم من أضاف العدّ الحمصي وهو المروي عن شريح بن يزيد الحمصي (ت:٢٠٣هـ) مقرئ أهل حمص.

وقد كان في كلّ مصرٍ من هذه الأمصار قُرَّاء من السلف تلقّوا القراءات بالأسانيد المتَّصلة إلى قرَّاء الصحابة رضي الله عنهم، وكانت تؤخذ عنهم أعداد الآيات كما تُؤخذ عنهم القراءات، وقد حُمل علمُهم في عدد الآيات ودوّن في كتب أهل هذا الشأن وتناقله رواته، سوى ما ذُكر عن العدّ الحمصي أنه اندثر قديماً ولم يجد من يتولاه ويأخذ به من المتصدّرين للإقراء.

والمقصود أنّ عدد آيات القرآن سبع آيات في العدّ المدني الأول، والعدّ المدني الأخير، والعدّ المكّي، والعدّ الكوفي، والعدّ البصري، والعدّ الشامي، كلّهم اتّفقوا على أنّ سورة الفاتحة سبع آيات.

ومع تقرّر الإجماع فقد حُكي في عدد آيات سورة الفاتحة أقوال أخرى:

منها: أنها ستّ آيات، فلا تعدّ البسملة آية منها، وهذا القول نُسب إلى حسين بن علي الجعفي (ت:٢٠٣هـ) وكان من القراء الصالحين، قرأ على حمزة الزيات، وهو من شيوخ الإمام أحمد، وهذا القول المنسوب إليه ذكره ابن عطية من غير إسناد، ثم توارد على ذكره جماعة من المفسّرين بعده.

قال ابن عطية: (وهو شاذّ لا يُعوَّل عليه).

ومنها: أنها ثمان آيات؛ فتعدّ البسملة آية، و﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ آية، وهذا القول نُسب إلى الحسن البصري وعمرو بن عبيد المعتزلي.

قال الرازي: (رأيت في بعض الروايات الشاذة أن الحسن البصري كان يقول : هذه السورة ثمان آيات).

ولا يصحّ هذا القول عن الحسن البصري رحمه الله.

وكل هذه الأقوال الشاذة تُحكى في بعض كتب التفسير المتأخرة من غير إسناد، ولا أعلم لها أصولاً في الكتب المسندة، فلا هي ثابتة عمَّن نُسبت إليهم، ولا هي قائمة على حجة معتبرة.

والمقصود أنَّ سورة الفاتحة سبع آيات من غير خلاف بين أهل العلم، وما ذكر من الأقوال الشاذة فغير صحيح من جهة الإسناد، وغير معتبر من جهة المتن.

الخلاف في عدّ البسملة آية من الفاتحة

ومع اتّفاق العلماء على أنّ آيات الفاتحة سبع إلا أنّهم اختلفوا في عدّ البسملة آية منها على قولين:

القول الأول: البسملة آية من الفاتحة، وهو قول الشافعي ورواية عن أحمد، وهي كذلك في العدّ المكي والعدّ الكوفي.

والعدّ المكّي هو المروي عن عبد الله بن كثير المكّي مقرئ أهل مكّة عن مجاهد بن جبر عن ابن عباس عن أبيّ بن كعب رضي الله عنهم.

والعدّ الكوفي هو المروي عن أبي عبد الرحمن السُّلمي مقرئ أهل الكوفة عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه.

وقد صحّ هذا القول عن عليّ بن أبي طالب وابن عباس رضي الله عنهم.

- روى أسباط بن نصر، عن السدي، عن عبد خير قال: سُئل علي رضي الله عنه، عن السبع المثاني، فقال: «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾».

فقيل له: إنما هي ست آيات.

فقال: «﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ **آية**». رواه الدارقطي والبيهقي.

- وقال ابن جريج: أخبرنا أبي، عن سعيد بن جبيرٍ، عن ابن عبّاسٍ، أنّه، قال في قول اللهّ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ قال: «**هي فاتحة الكتاب**»؛ فقرأها عليَّ ستًّا، ثمّ قال: (﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ الآية السّابعة). رواه الشافعي وعبد الرزاق وأبو عبيد وابن جرير وابن المنذر.

واستُدلَّ لهذا القول بأحاديث منها:

١ . **حديث ابن جريج**، عن عبد الله بن أبي مليكة، عن أم سلمة، أنها سُئلت عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، فقالت: (كان يقطع قراءته آية آية: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾. ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ٤﴾). أخرجه الإمام أحمد وأبو داوود والترمذي والدارقطني وغيرهم.

قال الدارقطني: (إسناده صحيح، وكلهم ثقات).

وقد أعلّه بعض أهل الحديث بعلّة الانقطاع؛ والراجح أنه موصول غير منقطع، وإبهام السائل في هذه الرواية لا يضرّ؛ لأنّه قد سُمّي في

رواية أخرى وهو «يَعلى بن مملك»، ومن حذف ذكر السائل فقد اختصر الإسناد؛ فانتفت العلّة.

٢. وحديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً وموقوفاً: «إذا قرأتم ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فاقرءوا: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ إنها أم القرآن، وأم الكتاب، والسبع المثاني، و﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إحداها». رواه الدارقطني والبيهقي من طريق نوح بن أبي بلال، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة، وهو إسناد صحيح، والموقوف أصح، وله حكم الرفع.

والقول الثاني: لا تعدّ البسملة من آيات سورة الفاتحة، وهو قول أبي حنيفة والأوزاعي ومالك، ورواية عن أحمد، وهو قول باقي أصحاب العدد.

وهؤلاء يعدّون ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ رأس آية.

واستُدلّ لهذا القول بأحاديث منها:

١. حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قال الله تعالى: أثنى علي عبدي، وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾، قال: مجدني عبدي - وقال مرة: فوض إلي عبدي - فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا

﴿ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل». رواه مسلم في صحيحه وأحمد والبخاري في "القراءة خلف الإمام" وغيرهما.

٢. وحديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «**صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر، وعمر، وعثمان، فكانوا يستفتحون بـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لا يذكرون ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في أول قراءة ولا في آخرها**». متفق عليه.

وعدم الجهر بالبسملة لا يقتضي عدم قراءتها، وهذه الرواية عن أنس تفسّرها الرواية الأخرى من طريق شعبة، عن قتادة، عن أنسٍ، قال: «**صلّيت خلف النّبيّ صلّى اللهّ عليه وسلّم، وأبي بكرٍ، وعمر فلم يجهروا ببسم الله الرّحمن الرّحيم**».

وقد روي عن عبد الله بن المغفّل المزني نحوه، والآثار المروية في الجهر بالبسملة وترك الجهر بها كثيرة جداً، وكثير منها ضعيف أو معلول، وهي مسألة منفصلة عن مسألة عدّ البسملة آية من الفاتحة، وإنما ذكرت هذا الحديث لاستدلال بعض أهل العلم به، وهو استدلال غير صحيح، وسيأتي لهذه المسألة مزيد تفصيل في باب البسملة إن شاء الله تعالى.

والصواب أنّ الخلاف في عدّ البسملة آية من الفاتحة كالاختلاف في القراءات إذ كلا القولين متلقّيان عن القرّاء المعروفين بالأسانيد المشتهرة إلى قرّاء الصحابة رضي الله عنهم، ومن اختار أحد القولين فهو كمن اختار إحدى القراءتين.

قال الحافظ ابن الجزري رحمه الله في "النشر": (والذي نعتقده أن كليهما صحيح، وأنَّ كل ذلك حق، فيكون الاختلاف فيهما كاختلاف القراءات) ا.هـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (والفاتحة سبع آيات بالاتفاق، وقد ثبت ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ۝٨٧﴾ وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «فاتحة الكتاب هي السبع المثاني» وقد كان كثير من السلف يقول البسملة آية منها ويقرؤها، وكثير من السلف لا يجعلها منها ويجعل الآية السابعة ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ كما دلَّ على ذلك حديث أبي هريرة الصحيح، وكلا القولين حق؛ فهي منها من وجه، وليست منها من وجه، والفاتحة سبع آيات من وجه تكون البسملة منها فتكون آية. ومن وجه لا تكون منها فالآية السابعة ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ لأن البسملة أنزلت تبعاً للسور) ا.هـ.

وغرضنا في هذا الباب تلخيص كلام أهل العلم رحمهم الله تعالى في مسألة عدد آيات سورة الفاتحة، وما يتّصل بذلك من تفصيل أقوالهم وحججهم وتقريراتهم، وأما ما يخصّ البسملة من مسائل وأحكام فَشَرْحُها في باب تفسير البسملة.

الباب الخامس: تفسير الاستعاذة

معنى الاستعاذة

الاستعاذة هي الالتجاء إلى من بيده العصمة من شرِّ ما يُستعاذ منه والاعتصام به.

قال الحصين بن الحمام المري:

فعـوذي بأفنـاء العشـيرة إنـما   يعـوذ الذليـلُ بالعزيـز ليُعصما

قال أبو منصور الأزهري: (يقال: عاذ فلان بربّه يعوذ عَوْذاً إذا لجأ إليه واعتصم به).

والعِصمة هي المنَعَة والحماية، قال الله تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾، وقال: ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾.

أقسام الاستعاذة:

الاستعاذة على قسمين:

القسم الأول: استعاذة العبادة، وهي التي يقوم في قلب صاحبها أعمال تعبّدية للمستعاذ به من الرجاء والخوف والرغب والرهب، وقد يصاحبها دعاء وتضرّع ونذر.

وهي تستلزم افتقار المستعيذ إلى من استعاذ به، وحاجته إليه، واعتقاده فيه النفع والضر.

فهذه الاستعاذة عبادة يجب إفراد الله تعالى بها، ومن صرفها لغير الله تعالى فقد أشرك مع الله.

ومن صرفها لغير الله فإنه لا يزيده من استعاذ به إلا ذلاً وخساراً، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾.

والقسم الثاني: استعاذة التسبب، وهي ما يفعله المستعيذ من استعمال الأسباب التي يُعصم بها من شر ما يخافه من غير أن يقوم في قلبه أعمال تعبدية للمستعاذ به.

وهذا كما يستعيذ الرجل بعصبته أو إخوانه ليمنعوه من شرّ رجل يريد به سوءاً، فهذه الاستعاذة ليست بشرك لخلوّها من المعاني التعبّدية، فهي أسباب تجري عليها أحكام الأسباب من الجواز والمنع بحسب المقاصد والوسائل.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ستكون فِتَن، القاعِدُ فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من السَّاعي، مَنْ تَشَرَّفَ لها تَسْتَشْرِفْهُ، ومَن وَجَدَ مَلْجأ أو مَعاذا فَلْيَعُذْ به».

وفي رواية عند مسلم: «فليستعذ» ومعناهما واحد، فهي استعاذة تسبب لا استعاذة عبادة.

لوازم «الاستعاذة»

الاستعاذة عبادة عظيمة تستلزم عبادات أخرى قلبية وقولية وعملية:

فمنها: افتقار العبد إلى ربّه جلّ وعلا، وإقراره بضعفه وتذلّله وشدّة حاجته إليه.

ومنها: أنها تستلزم إيمان العبد بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا، وتدبيره وتصرّفه التامّ في الكون؛ وذلك أنّ الحامل على الاستعاذة في الأصل إيمان العبد بقدرة ربّه جلّ وعلا على إعاذته، وإيمانه برحمته التي يرجو بها قبول طلب إعاذته، وإيمانه بعزّته وملكه وجبروته وأنه لا يعجزه شيء، وإيمانه بعلم الله عزّ وجلّ بحاله وحال ما يستعيذ منه، وإحاطته بكلّ شيء، وتستلزم أيضاً إيمان العبد بسمع الله وبصره وحياته التامّة وقيّوميّته، إلى غير ذلك من الاعتقادات الجليلة النافعة التي متى قامت في القلب قياماً صحيحاً كان لها أثر عظيم في إجابة طلب الإعاذة.

ومنها: أنها تحمل العبد على الاستقامة على أمر الله جلّ وعلا، وحفظ جوارحه ولسانه؛ لأنه يخشى أن يخذل بسبب ذنوبه وما فرّط فيه، فإذا ما وقع في عصيان أو تفريط أثر ذلك في قلبه خشية تحمله على المبادرة إلى التوبة والاستغفار والإنابة إلى الله جلّ وعلا.

ومنها: أن المستعيذ تقوم بقلبه أعمال جليلة يحبّها الله تعالى، من الصدق والإخلاص والمحبّة والخوف والرجاء والخشية والإنابة والتوكّل والاستعانة وغيرها، وكل هذه العبادات القلبية العظيمة تقوم في قلب المستعيذ حين استعاذته؛ فلذلك كانت عبادة الاستعاذة من العبادات

الجليلة التي يُحبّها الله تعالى ويثيب عليها، ويبغض من أعرض عن التعبّد له بها.

أثر الاستعاذة بالله تعالى على قلب العبد:

من أعظم ثمرات الاستعاذة بالله عمران القلب بخشية الله وصدق الإنابة إليه، وما تثمره من التفكّر والتذكّر والتبصّر والاستقامة.

- فأمّا الخشية فلما يقوم بقلبه من المعرفة بالله تعالى وبأسمائه وصفاته والمعرفة بما كسبت نفسه وفرّطت فيه من أوامر الله؛ فيخشى سخط ربّه وعقابه.

- وأمّا الإنابة فلأجل ما يقوم في قلبه من الإقبال على ربّه، والإعراض عما يصدّ عنه، وهذه الإنابة هي المقصود الأعظم للابتلاء بما يُستعاذ منه.

ومتى صحّت الإنابة في قلب العبد كان من الذين يهديهم الله كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾.

- وأما الصدق فلأجل أن المستعيذ صادق في طلب الإعاذة لشدّة حاجته إلى من يعصمه، واجتهاده في ذلك.

- وأما الإخلاص؛ فلأجل أن المؤمن يفزع إلى ربّه جلّ وعلا لا إلى غيره؛ فيستعيذ به وحده.

- وأما التوكّل فلأجل ما يقوم في قلب العبد من التفويض وعزمه على اتّباع هدى الله.

- **وأمّا الاستعانة** فلأجل معرفته بحاجته إلى عون الله تعالى على اتّباع هداه ليعصمه من شرّ ما استعاذ منه.

ومحركات القلوب إلى الله تعالى ثلاثة: المحبّة والخوف والرجاء.

والاستعاذة تستحثّ هذه المحرّكات وتحفّزها في قلب العبد؛ فإذا دَهمَ القلبَ ما يزعجه ويخاف ضرره؛ فزع إلى الله تعالى ولاذ بجانبه وأيقن أنّه لا عاصم له إلا هو:

١. **فيعظم الرجاء في الله** لطلب السلامة والعصمة مما استعاذ منه؛ ذلك لأنّ المستعيذ إنما يحمله على الاستعاذة رجاؤه أن يستجيب له ربّه فيعيذه من شرّ ما استعاذ منه.

٢. **ويعظم الخوف من الله تعالى** لعلم العبد بأنّه لن يخذل إلا من جهة نفسه وذنبه؛ فيحمله ذلك على الاستقامة والكفّ عن المعاصي؛ لأجل ما يقوم في قلبه من خوف ردّ استعاذته بسبب ذنوبه، ولذلك كان من شأن المحسنين عند الملمّات تقديم الاستغفار والتوبة إلى الله؛ كما أثنى الله تعالى على بعضهم بقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾.

فسمّاهم الله محسنين وبيّن أنّهم يحبّهم ويحبُّ من يعملُ عملهم لمّا أحسنوا الاستعاذة به جلّ وعلا من شرّ عدوّهم؛ واتّبعوا هداه بصبرهم وعزيمتهم على جهاد عدوّهم، وخوفهم من ربّهم؛ فحقّقوا بما عملوا وبما قالوا معنى الاستعاذة كما يحبّ اللهُ ويرضى، حتى جعلهم مثلاً يحثّ عباده المؤمنين من هذه الأمّة على الاتّساء بهم في ذلك.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْ﴾.

ولذلك قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: «**لا يخاف العبدُ إلا ذنبَه، ولا يرجو إلا ربه**» رواه عبد الرزاق والبيهقي في "شعب الإيمان".

٣. **وتعظم محبّة الله** في قلبه لما يرى من أثر إعاذته له ويجد من طمأنينة القلب في الالتجاء إليه والاعتصام به، وإيمانه بأنّ الله وليّه الذي لا وليّ له غيره.

ومن قامت في قلبه هذه العبادات العظيمة كانت استعاذته من أعظم أسباب محبّة الله تعالى له، وهدايته إليه.

والمقصود أنّ الاستعاذة من العبادات العظيمة التي هي من مقاصد خلق الله تعالى للإنس والجنّ كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾، وأنها تثمر في القلب أعمالاً تعبّدية يحبّها الله من الصدق والإخلاص والمحبة والرجاء والخوف والخشية والإنابة والتوكل وغيرها؛ فيحيا القلب بعد موته، ويستيقظ بعد غفلته، ويلين بعد قسوته، وتركو النفس، وتستنير البصيرة، ويصلح العمل، وتحسن العاقبة.

الحكمة من تقدير ما يُستعاذ منه:

وبما تقدّم تتبيّن لك بعض الحِكَم الجليلة من تقدير الله تعالى لما يُستعاذ منه، وخلق الأشياء المؤذية والضارة، مع ضمانه لعباده المؤمنين بإعاذتهم إذا أحسنوا الاستعاذة به؛ كما قال تعالى في حديث الوليّ المشهور: «ولئن استعاذني لأعيذنّه».

ولو قُدّر خلو العالم الدنيوي من الشرور التي يُستعاذ منها لفات على العباد فضيلة التعبد لله تعالى بالاستعاذة به، وفاتهم من المعارف الإيمانية الجليلة، والعبادات العظيمة ما يناسب ذلك.

والنفس البشرية إذا أمِنَت المضارّ ارتاحت إلى اتّباع الهوى وطول الأمل ودخل عليها من العلل والآفات ما يسوء به الحال والمآل؛ فكان من حكمة الله تعالى أن قدّر من أقدار الشرّ ما يحمل عباده على الاستعاذة به جلّ وعلا واتّباع هداه؛ فتتطهّر قلوبهم وتتزكّى نفوسهم وتصلح أحوالهم وتحسن عواقبهم، وقد قال الله تعالى ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦﴾.

فتقدير المشقّة والضرر لا يريد الله به أن يجعل على عباده المؤمنين حرجاً أو يكلّفهم ما لا يطيقون، وإنما يريد به أن يطهّرهم، وأن تتهيّأ نفوسهم لإنعامه الخاصّ الذي يختصّ به من يستجيب له ويتّبع هداه.

والمقصود أنّ الحوادث والابتلاءات مجال رحب يعرّف العباد بربّهم جلّ وعلا وبأسمائه وصفاته، ليجدوا ما أخبر الله به وما وعدهم به على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم صدقاً وحقاً.

تحقيق الاستعاذة:

تحقيق الاستعاذة يكون بأمرين:

أحدهما: التجاء القلب إلى الله تعالى وطلب إعاذته بصدق وإخلاص معتقداً أن النفع والضر بيده وحده جلّ وعلا، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

والآخر: اتّباع هدى الله فيما أمر به ليعيذه، ومن ذلك بذل الأسباب التي أمر الله بها، والانتهاء عما نهى الله عنه.

فمن جمع بين هذين الأمرين كانت مستعيذاً بالله حقاً.

درجات الاستعاذة:

أمرَ الله تعالى بالاستعاذة به؛ وهذا الأمر الرباني يتضمّن وعداً كريماً بإعاذة من يستعيذ به، فمن أحسن الاستعاذة بالله تعالى أعاذه الله،كما قال الله تعالى في الحديث القدسي [ولئن استعاذني لأعيذنه]، والله تعالى لا يخلف وعده، ولكن الشأن كلَّ الشأن في تصحيحِ الاستعاذةِ وإحسانها؛ فإن الاستعاذة الصحيحة هي التي تنفع العبد بإذن الله تعالى، وهي التي يكون فيها صدق التجاء القلب إلى الله تعالى، واتباع هداه، فيما يأمر به العبد وينهاه، فإذا سلك العبد سبيل النجاة نجاه الله.

وأما من يستعيذ بلسانِه وقلبُه معرضٌ عن صدق الالتجاء إلى الله، أو يستعيذ بلسانه ولا يتبع هدى الله فاستعاذته كاذبة.

ولذلك فإنَّ الناس في الاستعاذة على درجات:

الدرجة الأولى: أصحاب الاستعاذة الباطلة، وهي الاستعاذة التي تخلَّف عنها أحد شرطي القبول من الإخلاص والمتابعة؛ وهؤلاء استعاذتهم من جَهْد البلاء، لأنهم يستعيذون بالله وبغيره؛ فيشركون بالله، ويدعونَ ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾، وكذلك أصحاب الاستعاذات البدعية مما يحدثه بعض الناس من التعويذات المبتدعة، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

والدرجة الثانية: الاستعاذة الناقصة، وهي الاستعاذة التي خلت من الشرك والبدعة، لكنها استعاذة ناقصة ضعيفة لما فيها من ضعف الالتجاء إلى الله، وضعف الاستعانة به، والتفريط في اتباع هداه؛ فيستعيذ أحدهم وقلبه فيه غفلة ولهو عن الاستعاذةِ.

والاستعاذةُ نوع من أنواع الدعاء وقد رُوي من حديث أبي هريرة وعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله لا يستجيب لعبد دَعَاه عن ظهر قلب غافل» والحديث حسَّنه الألبانيّ رحمه الله.

قال ابن القيّم رحمه الله في "الجواب الكافي" كلاماً معناه: الدعاء دواء نافع مزيل للداء لكن غفلة القلب عن الله تضعف قوَّته.

وكذلك من يستعيذ بقلبه لكن في اتباعه لهدى الله عز وجلَّ ضعف وتهاون وتفريط فتكون استعاذته ناقصة بذلك، والاستعاذة الناقصة تنفع أصحابها بعضَ النفع بإذن الله تعالى.

الدرجة الثالثة: استعاذة المتقين، وهي **الاستعاذة الصحيحة المتقبَّلة** التي تنفع أصحابها بإذن الله، وهي التي تكون بالقلب والقول والعمل:

- **فأما تصحيح الاستعاذة بالقلب**؛ فذلك بأن يكون في قلب صاحبها التجاء صادق إلى الله جل وعلا، فيؤمن بأنه لا يعيذه إلا الله، ويتوكل على الله وحده، ويحسن الظنَّ به، ويصبر على ما يصيبه حتى يفرج الله عنه، ولا ينقض استعاذته ولا يضعفها بالاستعجال وترك الدعاء ولا بالتسخط والاعتراض.

- **وأما الاستعاذة بالقول**؛ فتكون بذكر ما يشرع من التعويذات المأثورة، وما في معناها مما يصحّ شرعاً.

- **وأما الاستعاذة بالعمل**؛ فتكون باتباع هدى الله جلَّ وعلا، ولا سيما في ما يتعلق بأمر الاستعاذة.

الدرجة الرابعة: استعاذة المحسنين، وهي أعلى درجات الاستعاذة وأحسنها أثراً، وأصحاب هذه الدرجة هم ممن أوجبَ الله تعالى على نفسه أن يعيذهم إذا استعاذوه، وهم الذين حققوا صفات ولاية الله تعالى كما في "صحيح البخاري" وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله قال: [من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ مما افترضتُه عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه؛ فإذا أحببته كنت سمعَه الذي يسمعُ به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه]».

وهؤلاء هم الذين أحسنوا الاستعاذة بقلوبهم وأعمالهم وأحوالهم؛ حتى إنهم يستعيذون بالله كأنهم يرون الله جل وعلا، يكثرون من ذكر الله، ويحسنون اتباع هدى الله تعالى؛ فتراهم يسارعون في الخيرات، ويكفّون عن المحرّمات، ويتورعون عن الشبهات، ويحسنون التقرب إلى الله تعالى بالنوافل بعد الفرائض.

فهؤلاء أولياء الله، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، واستعاذتهم سريعة الأثر في الغالب، كما كانت استجابتهم لله تعالى سريعة لا تردد فيها ولا توانٍ.

وبهذا يتبيَّن أن الناس يتفاضلون في الاستعاذة، بل أصحاب كلّ درجة يتفاضلون فيها، بل إنّ العبد الواحد تتفاضل استعاذاته فيحسن في بعضها ويقصّر في بعضها، ومن تبصّر بحقيقة الاستعاذة بالله، وأيقن بنفعها وعظيم أثرها على قلبه وجوارحه وحاله ومآله حرص على إحسانها.

وكلما كان العبد أحسن استعاذةً كانت إعاذته أرجى وأنفعَ وأحسنَ أثراً بإذن الله تعالى.

والله تعالى يبتلي عبادَه ببعض ما يُستعاذ منه؛ فمن أحسن الاستعاذة به جلّ وعلا أعاذه، واصطفاه، ورفع درجته؛ فكانت حاله بعد استعاذته أحسن وأكمل وأحبّ إلى الله من حاله قبل أن يُقدّر عليه ما استعاذ منه.

وقد كتب الله حسن العاقبة لمن يتّبع هداه، وبذلك يطمئنّ المؤمن أنّه ما دام متبعاً لهدى الله فهو على خير، وإلى خير، وما أصابه مما يكره فسيفضي

به إلى ما يحبّ بإذن الله.[1]

الأمر بالاستعاذة من الشيطان الرجيم

أمر الله تعالى عباده بالاستعاذة من الشيطان الرجيم في آيات من القرآن الكريم:

- فقال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

- وقال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾.

- وقال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾.

- وقال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾.

وهذه الآيات تدلّ دلالة بيّنة على أن للشيطان من الشرور ما يستوجب استعاذة المسلم منه بربّه جلّ وعلا، وأنه لا سلامة من شرّه وكيده إلا بتحقيق الاستعاذة بالله تعالى.

---

[1] **إحالة:**

هذا المبحث كان من جملة مباحث تتعلّق بالاستعاذة بسطت شرحها في كتاب "قرّة العينين بتفسير المعوّذتين"، وذكرت فيه مسائل ذات صلة وثيقة بموضوع هذا الباب، فأحيل إليه من أراد الاستزادة.

وقد بيّن الله تعالى في مواضع كثيرة من القرآن أن الشيطان عدوّ للإنسان، وأنه إنما يريد أن يغوي بني آدم ليكونوا من أصحاب النار، وأن من أعظم حبائله الوسوسة التي يغرّ بها بعض بني آدم ويستزلّهم بها حتى يُنسيهم ما وعدهم الله به من وعد الحقّ إذا آمنوا به وأطاعوه، ولذلك جاء الأمر الصريح باتّخاذه عدوا يجب الحذر منه والانتهاء عن اتّباع خطواته.

وقد جمع الله ما تقدّم من هذه الأصول العظيمة في آيتين من كتابه؛ فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٥ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦ ﴾.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢١﴾.

وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٤﴾.

وقال: ﴿إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ١٥﴾.

أنواع شرور الشيطان:

للشيطان شرور كثيرة متنوّعة لا يخلو منها شأن من شؤون الإنسان؛ كما في صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الشيطان يحضر أحدكم عند كل شيء من شأنه».

وقد ثبت في النصوص أن الشيطان يوسوس وينزغ ويهمز وينفخ وينفث، ويستزلّ ويضلّ، ويخوّف، ويَعِدُ ويمنّي ويزيّن الشهوات المحرمة، ويثير الشبهات المحيرة، بل له تصرفات في بعض أجساد الناس، كما صح أن التثاؤب من الشيطان، والحلم من الشيطان، والاستحاضة من الشيطان، وصراخ الطفل إذا استهل من الشيطان، والغضب من الشيطان، والعجلة من الشيطان، والالتفات في الصلاة اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد، وأن الشيطان يوهم بعض الناس أنه خرج منه ريح وهو لم يخرج، كما في مسند الإمام أحمد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن أحدكم إذا كان في الصلاة جاءه الشيطان فأبسّ به، كما يبس الرجل بدابته، فإذا سكن له أضرط بين إليتيه ليفتنه عن صلاته، فإذا وجد أحدكم شيئا من ذلك فلا ينصرف حتى يسمع صوتا أو يجد ريحا لا يشك فيه». إلى غير ذلك من أنواع الشرور التي تدلّ من تفكّر فيها وفي آثارها أنّه لا بدّ له من الاستعاذة بالله تعالى من شرّه وكيده.

وهذه الأعمال أدلتها معلومة في الكتاب والسنة وشرحها يطول ويخرجنا عن المقصود من تلخيص كلام أهل العلم في تفسير الاستعاذة.

درجات كيد الشيطان:

ومما ينبغي أن يعلم أن كيد الشيطان على درجات:

الدرجة الأولى: الوسوسة، وهي أصل كيده وأوّله، وهو بلاء عامّ قد ابتلي به الأنبياء فمن دونهم، وهو أصل الابتلاء في هذه الحياة الدنيا، لكنَّ هذه الوسوسة لا تضرّ من يتّبع هدى الله شيئاً كما قال الله تعالى في أوّل

وصية أوصى بها آدم وحواء لما أهبطهما إلى الأرض وأهبط معهما إبليس فتنة وابتلاء: ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣﴾.

وقال تعالى: ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٨﴾.

فهذا هو أصل الابتلاء في هذه الحياة الدنيا ليعلم الله من يتبع هداه ممن يتّبع الشيطان.

والدرجة الثانية: التسلط الناقص، وهو على نوعين: استزلال، وابتلاء.

أ: فأمّا الاستزلال فيكون لبعض عصاة المسلمين الذين يتّبعون خطوات الشيطان حتى يستزلّهم، أي: يوقعهم في الزَّلَل؛ فيتسلَّط عليهم تسلّطاً يفتنهم ويغويهم به؛ فيرتكبون بعضَ ما حرّم الله أو يتركون بعضَ ما أوجب الله؛ فيُحرمون بذلك من خير عظيم وثواب كريم، ويتعرّضون لفتنة أشدّ وعذاب أليم؛ كما قال الله تعالى: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٦٣﴾.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٠٩﴾.

والآيات في هذا المعنى كثيرة.

ب: وأما الابتلاء فقد يبتلي الله بعض عباده المؤمنين بإيذاء الشياطين وكيدهم، كالإيذاء بالفزع والتخويف، والإضرار بانواع من الضرر، ومن ذلك كيد بعض مردة الجنّ لبعض الصالحين، وما يكون من همزات الشياطين ونزغهم، وقد يشتدّ هذا الإيذاء والإضرار ببعض المؤمنين وقد يضعف، وقد يطول أمده وقد يقصر؛ بحسب ما يقدّره الله من ذلك لحكمة يعلمها جلّ وعلا، ومن هذا النوع ما قد يُبتلى به بعض الأنبياء فمن دونهم كما قال الله تعالى في شأن أيّوب عليه السلام: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ٤١﴾.

ومن هذا النوع ما يحصل لبعض الصالحين من الابتلاء بالسحر والعين وتسلط الشياطين، وما يحصل لهم من الآفات التي تُضعف أبدانهم ويتسلط عليهم الشيطان بأنواع من الأذى.

فهذا التسلّط شفاؤه الصبر والتقوى؛ فمن صبر واتّقى كانت عاقبته حسنة، ورفع الله عنه بلاءَه وأعظم جزاءه؛ فإنَّ الله تعالى لا يديم البلاء على عبده، ولا يجعل عاقبة من اتّبع هداه سيّئة، وقد قال الله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ٤٩﴾، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٠﴾.

فأهل البلاء يبلغون درجة الإحسان التي هي أعلى مراتب الدين بالصبر والتقوى.

وهؤلاء لا يتمكن الشيطان منهم تمكناً تاماً ما بقي معهم الإيمان بالله جل وعلا والعمل الصالح، ومهما بلغ بهم الأذى فإن الله يجعل لهم مخرجاً وفرجاً، والله تعالى لا يديم البلاء على عبده، وعظم الجزاء مع عظم البلاء.

ومن هذا الإيذاء ما حصل للنبي صلى الله عليه وسلم ليلة الجن كما في "مسند الإمام أحمد" و"مصنف ابن أبي شيبة" وغيرهما من حديث أبي التيَّاح قال: سأل رجل عبد الرحمن بن خنبش رضي الله عنه وكان شيخاً كبيراً قد أدرك النبيَّ صلى الله عليه وسلم: (كيف صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كادته الشياطين؟

قال: جاءت الشياطين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأودية، وتحدَّرت عليه من الجبال، وفيهم شيطان معه شعلة من نار يريد أن يحرق بها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال: فرعب؛ جعل يتأخر.

قال: وجاء جبريل عليه السلام؛ فقال: يا محمد قل.

قال: «ما أقول؟».

قال: «قل: أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق وذرأ وبرأ، ومن شر ما ينزل من السماء، ومن شر ما يعرج فيها، ومن شر ما ذرأ في الأرض، ومن شر ما يخرج منها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن شر كل طارق إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن»؛ فطفئت نار الشياطين وهزمهم الله عزَّ وجل).

فهذه التعويذة نافعة لمن وجد شيئاً من أذى الشياطين وتبدّيهم له وتفلتهم عليه.

والدرجة الثالثة: التسلّط التام، وهو تسلّط الشيطان واستحواذه على أوليائه الذين اتّخذوه ولياً من دون الله حتى خرجوا من النور إلى الظلمات، ومن ولاية الله إلى ولاية الشيطان ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٩﴾.

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٩٨ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ١٠٠﴾.

ومن ضيّع الصلاة وتعامى عن ذكر الله تعالى كان على خطر من استحواذِ الشيطان عليه كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ٣٦ وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ٣٧﴾.

وفي المسند والسنن من حديث معدان بن أبي طلحة اليعمري قال: (قال لي أبو الدرداء: أين مسكنك؟

قلت: في قرية دون حمص.

قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما من ثلاثة في قرية لا يؤذّن ولا تقام فيهم الصلاة إلا استحوذ عليهم الشيطان» فعليك بالجماعة فإن الذئب يأكل القاصية).

أسباب العصمة من كيد الشيطان:

لا سبيل للعصمة من كيد الشيطان إلا بالاستعاذة بالله والإيمان به والتوكّل عليه، كما تقدّم في آية النحل.

وهذا المعنى الكبير أفاض أهل العلم رحمهم الله في الحديث عنه وتفصيله وسلكوا في ذلك طرقاً متنوّعة، **وحاصل ما تلخّص لي من كلام أهل العلم في هذا الباب يمكن إرجاعه إلى ثلاثة أسباب إجمالاً:**

السبب الأول: اليقين بشدة حاجة العبد إلى أن يعيذه الله من كيد الشيطان.

وهذا اليقين متركب من بصيرتين:

البصيرة الأولى: بصيرة العبد بنفسه وضعفها، وشدّة افتقاره إلى الله تعالى، وأنه لا عصمة له إلا أن يعصمه الله؛ كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢١﴾.

وقال تعالى: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٣﴾.

والبصيرة الثانية: البصيرة بشدة عداوة الشيطان، ودوامها ما دامت حياة الإنسان، وحضور الشيطان للعبد عند كلّ شيء من شأنه، والبصيرة بخطر اتّباع خطوات الشيطان.

فينشأ من هاتين البصيرتين يقينٌ بالافتقار الدائم الشديد إلى الله تعالى، ومن حصل له هذا اليقين أثمر له الاعتصام بالله ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

والسبب الثاني، وهو مترتب على الأوّل: العمل بما أرشد الله تعالى إليه وأرشد إليه رسوله صلى الله عليه وسلم **مما يعصم الله به عبده من كيد الشيطان:**

وأصل ذلك ومعناه الجامع: تقوى الله عزّ وجلّ بأداء الفرائض والانتهاء عن المحرمات، والتوبة مما يحصل من العبد من ذنب باقتراف محرّم أو تضييع واجب.

ومن ذلك: قراءة السور والآيات والأدعية والأذكار والتعويذات الشرعية التي جعلها الله سبباً مباركاً للعصمة من كيد الشيطان.

ومنها: المعوذات وآية الكرسي إذا أصبح وإذا أمسى، وقراءة آخر آيتين من سورة البقرة، وقراءة سورة البقرة، وقراءة الأذكار والتعويذات الشرعية، وهي متنوّعة وميسّرة، ولله الحمد، وفضلها عظيم، وأثرها نافع جداً.

ومن ذلك: التسمية في المواضع المندوب إلى التسمية فيها؛ عند الدخول والخروج، وعند الأكل والشرب والجماع والرمي وكلّ أمر ذي بال.

والسبب الثالث: حراسة **مداخل الشيطان على الإنسان،** وأهمها: الغفلة، والهوى، والغضب، والفرح، والشهوة، والشحّ، والفضول.

فهذه المداخل التي يدخل منها الشيطان على كثير من الناس فيستزلّهم؛ فمن أقام دون كلّ مدخل منها حرساً من ذكر الله والاعتصام به والعمل بما أرشد الله إليه في كلّ أمر من هذه الأمور؛ فقد وقي شرّا عظيماً.

والجمع بين هذه الأسباب الثلاثة هو تفصيل لاتّباع هدى الله تعالى فيما أرشد إليه في آية النحل بقوله: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٩٨ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩﴾.

فإن تحقيق التوكّل إنما يكون بالجمع بين تفويض القلب واتّباع الهدى، والتوكّل من واجبات الإيمان ودلائله كما قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾.

الاستعاذة من الشيطان عند قراءة القرآن

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٩٨ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩﴾.

فالشيطان يريد أن يحول بين المرء وبين الانتفاع بالقرآن بما يستطيع من الكيد، فإن استطاع أن يردّه عن تلاوته أصلاً ردّه حتى يقع في هجران القرآن؛ فإن عصاه المسلم فقرأ القرآن اجتهد في صدّه عن الانتفاع بتلاوته بإفساد قصده، أو إشغال ذهنه، أو التلبيس عليه في قراءته أو غير ذلك من أنواع الكيد، إذ لا شيء أنكى على الشيطان ولا أغيظ عليه من أن يتّبع المسلم هدى ربّه جلّ وعلا ويفوز بفضله ورحمته.

وَمَن عصمه الله من كيد الشيطان عند تلاوته للقرآن كان أقرب إلى إحسان تلاوته، وتدبّر آياته، والتفكّر في معانيه، وعَقْلِ أمثاله، والاهتداء

بهداه، وكان أحرى بالخشية والخشوع، والسكينة والطمأنينة، والتلذّذ بحلاوة القرآن، ووجدان طعم الإيمان، والفوز بنصيب عظيم من فضل الله ورحمته وبركاته.

هل الاستعاذة قبل القراءة أو بعدها؟

قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾.

وقد نُقل في معنى هذه الآية أربعة أقوال للعلماء:

القول الأول: إذا أردت قراءة القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم، وهذا قول جمهور أهل العلم، فإنّ العرب تطلق الفعل على مقاربته، كما في الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا دخل الخلاء قال: «اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث».

أي إذا أراد الدخول إلى الخلاء أو قارب الدخول إلى الخلاء.

ومنه ما في الصحيحين أيضاً من حديث عائشة رضي الله عنها أن ابن أم مكتوم كان لا يؤذن حتى يقال له: أصبحت أصبحت، وقد فسَّره جماعة من الشرَّاح كابن عبد البر وغيره بأن المراد قاربت الصباح.

وهو قول جمهور العلماء، وممن قال به: ابن جرير، وابن خزيمة، والطحاوي، والبيهقي، وابن عطية، وابن الجوزي، وابن تيمية، وغيرهم.

وقال به من علماء اللغة: يحيى بن سلام، والزجاج، وابن الأنباري، والنحاس، وابن سيده، وغيرهم.

والقول الثاني: في الآية تقديم وتأخير، والتقدير إذا استعذت بالله فاقرأ القرآن، وهذا قول أبي عبيدة معمر بن المثنى في مجاز القرآن.

وقد ردّه ابن جرير رحمه الله بقوله: (كان بعض أهل العربيّة يزعم أنّه من المؤخّر الّذي معناه التّقديم، وكأنّ معنى الكلام عنده: وإذا استعذت باللهّ من الشّيطان الرّجيم فاقرأ القرآن، ولا وجه لما قال من ذلك، لأنّ ذلك لو كان كذلك لكان متى استعاذ مستعيذٌ من الشّيطان الرّجيم لزمه أن يقرأ القرآن)ا.هـ.

والقول الثالث: إذا قرأت فاجعل مع قراءتك الاستعاذة، وهذا قول ثعلب.

قال كما في مجالسه: (في قوله عز وجل: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ قال: هذا مثل الجزاء، مثل قولهم إذا قمت قمت، وإذا فعلت فعلت، وقيامى مع قيامك، أي الاستعاذة والقرآن معاً، أي اجعل مع قراءتك الاستعاذة، كقولهم: اجعل قيامك مع قيام زيد).

والأقوال الثلاثة المتقدّمة متفقة على أنَّ الاستعاذة قبل القراءة.

والقول الرابع: إذا فرغت من قراءتك فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم، وهذا القول روي عن أبي هريرة رضي الله عنه، ونُسب القول به إلى الإمام مالك، وحمزة الزيات القارئ، وأبي حاتم السجستاني، وداود بن عليّ الظاهري.

وكلّ هؤلاء لا تصحّ نسبة هذا القول إليهم، وقد شاعت نسبته إليهم في كتب التفسير وبعض شروح الحديث، وقد أحسن ابن الجزري - رحمه الله- بيانَ علل هذه الروايات في كتابه "النشر في القراءات العشر" وخطَّأ

من نسبها إليهم، وقال في وقت الاستعاذة: (هو قبل القراءة إجماعاً ولا يصح قولٌ بخلافه، عن أحد ممن يعتبر قوله، وإنما آفة العلم التقليد).

ثم قال بعد توجيه معنى الآية على القول الأول: (ثم إن المعنى الذي شرعت الاستعاذة له يقتضي أن تكون قبل القراءة؛ لأنها طهارة الفم مما كان يتعاطاه من اللغو والرفث وتطييب له، وتهيؤ لتلاوة كلام الله تعالى، فهي التجاء إلى الله تعالى، واعتصام بجنابه من خلل يطرأ عليه، أو خطأ يحصل منه في القراءة وغيرها وإقرار له بالقدرة، واعتراف للعبد بالضعف والعجز عن هذا العدو الباطن الذي لا يقدر على دفعه ومنعه إلا الذي خلقه) ا.هـ.

الإجماع على أنّ (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) ليست قرآنا

قال ابن عطية: (وأجمع العلماء على أن قول القارئ: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» ليس بآية من كتاب الله).

صِيَغ الاستعاذة

روي في صيغ الاستعاذة عدد من الأحاديث النبوية والآثار عن الصحابة والتابعين؛ فمن الأحاديث المرفوعة:

١. حديث سليمان بن صرد رضي الله عنه قال: استبّ رجلان عند النبي صلى الله عليه وسلم ونحن عنده جلوس، وأحدهما يسب صاحبه، مغضبا قد احمر وجهه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إني لأعلم كلمة، لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

فقالوا للرجل: (ألا تسمع ما يقول النبي صلى الله عليه وسلم؟).

قال: (إني لست بمجنون). رواه البخاري ومسلم وغيرهما من طرق عن الأعمش، عن عدي بن ثابت، عن سليمان بن صرد رضي الله عنه.

وهذا الحديث روي من طريق أبيّ بن كعب ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما.

وهذه الصيغة الواردة في الحديث لم تكن في الصلاة ولا عند القراءة، لكنّها أصحّ ما روي من صيغ الاستعاذة، وبها يقول الشافعي وكثير من الفقهاء والقراء.

٢. وروى محمد بن فضيل عن عطاء بن السائب، عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الشيطان، من همزه ونفخه ونفثه». رواه أحمد وابن أبي شيبة وأبو داوود وابن المنذر في "الأوسط"، وغيرهم.

محمد بن فضيل سمع من عطاء بن السائب بعد الاختلاط.

٣. جعفر بن سليمان الضبعي عن علي بن علي الرفاعي، عن أبي المتوكل الناجي، عن أبي سعيد الخدري، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل كبر، ثم يقول: «سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك»، ثم يقول: «لا إله إلا الله» ثلاثا، ثم يقول: «الله أكبر كبيرا» ثلاثا، «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه، ونفخه، ونفثه» رواه أحمد والدارمي وأبو داوود والترمذي وابن خزيمة وغيرهم.

٤. عمرو بن مرّة، عن عاصم بن عمير العنزيّ، عن نافع بن جبير بن مطعم، عن أبيه قال: رأيت رسول اللهّ صلّى اللهّ عليه وسلّم حين دخل في الصّلاة، قال: «اللهّ أكبر كبيرًا، ثلاثًا، الحمد للهّ كثيرًا، ثلاثًا، سبحان اللهّ بكرةً وأصيلًا ثلاثًا، اللّهمّ إنّي أعوذ بك من الشّيطان من همزه ونفخه ونفثه».

قال عمرٌو: «وهمزه: المُوتة، ونفخه: الكبر، ونفثه: الشّعر». رواه أحمد وأبو داوود وابن ماجه وغيرهم.

رجال ثقات معروفون غير عاصم العنزي وقد اختلف في اسمه، وهو مجهول الحال، وقد ذكره ابن حبان في "الثقات".

وله شاهد مرسل رواه الإمام أحمد من طريق عكرمة بن عمار عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم، من همزه ونفثه ونفخه»).

٥. وروى يعلى بن عطاء، أنه سمع شيخا من أهل دمشق، أنه سمع أبا أمامة الباهلي يقول: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل في الصلاة من الليل كبر ثلاثا، وسبح ثلاثا، وهلل ثلاثا، ثم يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه». رواه أحمد، والشيخ الدمشقي مجهول الحال.

وأما الآثار المروية عن الصحابة رضي الله عنهم في صيغ الاستعاذة فمنها:

١. ما رواه الأعمش، عن إبراهيم النخعي، عن الأسود بن يزيد النخعي قال: افتتح عمر الصلاة، ثم كبر، ثم قال: «**سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، الحمد لله رب العالمين**» رواه ابن أبي شيبة.

٢. وما رواه ابن جريج عن نافع، عن ابن عمر، كان يتعوذ يقول: «**أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**»، أو «**أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم**» رواه ابن أبي شيبة.

وفي رواية عند عبد الرزاق وابن المنذر كان يقول: «**اللهمّ إنّي أعوذ بك من الشّيطان الرّجيم**».

وقد روي عن بعض التابعين في ذلك آثار صحيحة منها:

١. ما رواه عبد الله بن طاووس بن كيسان عن أبيه وكان من أصحاب ابن عباس أنه كان يقول: «**رب أعوذ بك من همزات الشياطين، وأعوذ بك رب أن يحضرون أعوذ بالله من الشيطان الرجيم إن الله هو السميع العليم**» رواه عبد الرزاق.

٢. وما رواه أيوب السختياني عن محمد بن سيرين أنه كان يتعوذ قبل قراءة فاتحة الكتاب وبعدها، ويقول في تعوذه: «**أعوذ بالله السميع العليم من همزات الشياطين، وأعوذ بالله أن يحضرون**» رواه ابن أبي شيبة.

٣. وما رواه كهمس بن الحسن عن عبد الله بن مسلم بن يسار، قال: سمعني أبي، وأنا أستعيذ بالسميع العليم، فقال: «**ما هذا؟**» قال: «**قل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، إن الله هو السميع العليم**». رواه ابن أبي شيبة.

وهذه الأحاديث والآثار تدلّ على أنّ **الاختيار في صيغة الاستعاذة واسع، وقد اختلفت اختيارات أئمة الفتوى والقراءات في ذلك:**

- فمن الأئمة من اختار التعوذ بقول: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) وهو قول أبي حنيفة والشافعي ورواية عن أحمد، وهو المختار عند القراء.

قال ابن الجزري: (المختار لجميع القراء من حيث الرواية «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»).

- ومنهم من اختار: (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم) وهو رواية عن أحمد.

- ورواية ثالثة عنه: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم إن الله هو السميع العليم).

قال النووي: (قال الشّافعيّ في «الأمّ» وأصحابنا يحصل التّعوّذ بكلّ ما اشتمل على الاستعاذة باللّه من الشّيطان لكنّ أفضله أعوذ باللّه من الشّيطان الرّجيم).

وقال ابن قدامة: (وهذا كلّه واسع، وكيفما استعاذ فهو حسن).

لكن ينبغي أن يختار من الصيغ المأثورة، وأن لا يتّخذ صيغة غير مأثورة شعاراً له يكثر منها عند القراءة؛ لأنّ الأصل في القراءة الاتّباع.

قال ابن عطية: (وأما المقرئون فأكثروا في هذا من تبديل الصفة في اسم الله تعالى وفي الجهة الأخرى كقول بعضهم: «أعوذ بالله المجيد من الشيطان المريد» ونحو هذا مما لا أقول فيه: نعمت البدعة، ولا أقول: إنه لا يجوز)ا.هـ.

حكم الاستعاذة لقراءة القرآن

اختلف العلماء في حكم الاستعاذة لقراءة القرآن على ثلاثة أقوال:

القول الأول: هي سنّة في الصلاة وخارجها، وهو قول الحسن البصري وإبراهيم النخعي وعطاء بن أبي رباح وابن سيرين والأوزاعي وسفيان الثوري والشافعي وأحمد وإسحاق بن راهويه وغيرهم كثير.

ثم من هؤلاء من يقول: تكفي الاستعاذة في أوّل ركعة، وهو قول الحسن وعطاء بن أبي رباح، ورواية عن أحمد.

ومنهم من قال: يستعيذ في كلّ ركعة وهو قول ابن سيرين، والشافعي، ورواية عن أحمد.

قال الشافعي: (إن قاله في كل ركعة قبل القراءة فحسن، ولا آمر به في شيء من الصلاة أمري به في أوّل ركعة).

ثم منهم من يرى الاستعاذة للإمام والمنفرد دون المأموم، وهذا قول سفيان الثوري.

قال ابن المنذر: (وذلك لأنه كان لا يرى خلف الإمام قراءة؛ فأمّا على مذهب من يرى القراءة خلف الإمام فإنّه يستعيذ).

والقول الثاني: لا يستعيذ في صلاة الفريضة، ويستعيذ في النافلة إن شاء، وفي غير الصلاة.

وهذا قول الإمام مالك في المشهور عنه.

والقول الثالث: وجوب الاستعاذة لقراءة القرآن، وهذا القول يُنسب إلى عطاء بن أبي رباح وسفيان الثوري، ولم أره مُسنداً عنهما.

والراجح هو القول الأول وهو قول جمهور أهل العلم رحمهم الله تعالى.

حكم الجهر بالاستعاذة

أما في الصلاة فيسرّ بها على قول الجمهور في استحباب الاستعاذة.

قال ابن قدامة: (يسرّ الاستعاذة ولا يجهر بها، لا أعلم فيه خلافا).

لكن مما ينبغي أن يُعلم حكمه أثرٌ رواه الشافعي عن إبراهيم بن محمد عن سعد بن عثمان عن صالح بن أبي صالح أنه سمع أبا هريرة وهو يؤم الناس رافعا صوته: «**ربنا إنا نعوذ بك من الشيطان الرجيم**» في المكتوبة وإذا فرغ من أم القرآن. وأخرجه البيهقي من طريق الشافعي، وفي إسناده إبراهيم بن محمد الأسلمي متروك الحديث، قال عنه الإمام أحمد: (كان قدريا معتزليا جهميا، كل بلاء فيه) واتّهمه جماعة من أهل الحديث بالكذب، وكان الشافعي حسن الظنّ فيه لا يتّهمه بالكذب، ولذلك روى عنه، وجمهور النقّاد على ترك حديثه، واستقّر عملهم على ذلك.

وقال الشافعي كما في "الأم": (كان ابن عمر يتعوّذ في نفسه، وأيهما فعل الرجل أجزأه إن جهر، أو أخفى).

وأما في القراءة خارج الصلاة؛ فيجهر بها على نحو ما يجهر بقراءته.

قال ابن الجزري: (المختار عند الأئمة القراء هو الجهر بها عن جميع القراء، لا نعلم في ذلك خلافا عن أحد منهم إلا ما جاء عن حمزة وغيره).

ثم ذكر عن بعض قراء المدينة أنهم كانوا يخفون التعوذ ويجهرون بالقراءة، وذكر عن بعضهم أنهم كانوا يقرؤون من غير استعاذة.

والراجح ما عليه جماهير أهل العلم من القراء والفقهاء.

خبر نزول الاستعاذة

روي في نزول الاستعاذة حديث ضعيف الإسناد منكر المتن، وهو ما أخرجه ابن جرير الطبري من طريق بشر بن عمارة، قال: حدثنا أبو روق، عن الضحاك، عن عبد الله بن عباس، قال: «**أوّل ما نزل جبريل على محمد، قال: يا محمد، قل: أستعيذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم. ثم قال: قل** ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾. **ثم قال:** ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾».

قال عبد الله: «**وهي أول سورة أنزلها الله على محمد، بلسان جبريل، فأمره أن يتعوَّذ بالله دون خلقه**».

بشر بن عمارة الخثعمي ضعيف الحديث لا يقبل تفرّده، ضعّفه جماعة من أهل الحديث، وقال البخاري: (تعرف وتنكر)، وهذا الخبر من منكراته، والضحاك لم يسمع من ابن عباس، وهذا الخبر رواه ابن أبي حاتم من هذا الطريق ولم يذكر فيه الاستعاذة.

معنى «الشيطان»

الشيطان مُشتقّ من «شطن» على الراجح من قولي أهل اللغة، وهو لفظ جامع للبعد والمشقّة والالتواء والعُسر.

يقال: نوىً شطون: أي بعيدة شاقّة.

وبئر شطون: ملتوية عوجاء بعيدة القعر.

وحرب شطون: عسرة شديدة.

قال الخليل بن أحمد: (الشيطان فَيْعَالٌ من شَطَنَ أي: بَعُدَ).

وقال: (شَيْطَنَ الرَّجُل وتشيطن إذا صار كالشيطان وفَعَل فِعْلَه).

وحكى أبو منصور الأزهري عن بعض اللغويين أن الشيطان مشتقّ من شاط يشيط إذا احترق وهلك وقيل: إذا ذهب وبطل.

ورجّح أبو منصور القولَ الأول واستشهد له بقول أمية ابن أبي الصلت يذكر سليمان النبي عليه السلام:

أيما شاطن عصاه عكاهُ ... ...

قال: (أراد أيما شيطان).

وقال ابن جرير: (فكأنّ الشّيطان على هذا التّأويل فيعالٌ من شطن؛ وممّا يدلّ على أنّ ذلك كذلك، قول أميّة بن أبي الصّلت:

أيما شاطن عصاه عكاه ثمّ يلقى في السّجن والأكبال

ولو كان فعلان، من شاط يشيط، لقال أيّما شائطٍ، ولكنّه قال: أيّما شاطنٍ، لأنّه من شطن يشطن، فهو شاطنٌ).

وقد حكى القولين جماعة من المفسرين واللغويين.

والعرب تسمّي الرجل السريع إلى الشرّ وإلى ما يُعاب ويُنكر والبعيد عن الخير شيطاناً.

قال جرير بن عطية:

أزْمانَ يَدعُونَني الشّيطانَ من غزَلي ... وكـنَّ يهوينني إذْ كنتُ شـيطانا

قال ابن جرير: (وإنّما سمّي المتمرّد من كلّ شيءٍ شيطانًا، لمفارقة أخلاقه وأفعاله أخلاق سائر جنسه وأفعاله، وبعده عن الخير)ا.هـ.

معنى الرجم:

الرجم في اللغة الرمي بالشرّ وبما يؤذي ويضرّ، **ويكون في الأمور الحسية والمعنوية.**

فمن الأول الرجم بالحجارة، ورجم الشاطين بالشهب.

ومن الثاني: الرجم بالقول السيء من السبّ والشتم والقذف والتخرّص.

معنى «الرجيم»

الرجيم فيه قولان:

أحدهما: أنه بمعنى مرجوم، كما يقال: لَعِين بمعنى ملعون، وقتيل بمعنى مقتول، وهكذا فيما كان على فَعِيلٍ وهو بمعنى مفعول.

والقول الآخر: أنه بمعنى راجم، أي يرجم الناس بالوساوس والربائث.

قال ابن كثير: (وقيل: رجيم بمعنى راجم؛ لأنه يرجم الناس بالوساوس والربائث والأول أشهر).

والربائث جمع ربيثة هي هنا ما يحبس المرء عن حاجته من العلل ويثبّطه عن القيام بما يصلحه.

وفي سنن أبي داوود من حديث عطاء الخراساني عن مولى امرأته أم عثمان قال: سمعت علياً رضي الله عنه على منبر الكوفة يقول: «**إذا كان يوم الجمعة غدت الشياطين براياتها إلى الأسواق فيرمون الناس بالترابيث أو الربائث ويثبطونهم عن الجمعة**».

عطاء الخراساني ليّن الحديث، وشيخه مجهول الحال.

معنى وصف الشيطان بأنّه رجيم:

الشيطان حيثما كان فهو رجيم مذموم مقذوف بما يسوءه ويشينه، فهي صفة ملازمة له غاية الملازمة، وهذا أقصى ما يكون في التحقير، وأبلغ ما يُتصوّر من الذلّ والمهانة.

وحيثما كان فهو راجم لأتباعه بسهام الفتن وتزيين الباطل والتثبيط عن الحقّ، مجتهد في إغوائهم، وهذا غاية ما يكون من النهمة في الإفساد، واللهث في الغواية.

الباب السادس: تفسير البسملة

المراد بالبسملة

المراد بالبسملة هنا قول ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، فالبسملة اسم لهذه الكلمة دالٌّ عليها بطريقة النحت اختصاراً.

قال ابن فارس: (العرب تَنْحَتُ من كلمتين كلمةً واحدة، وهو جنس من الاختصار)ا.هـ.

واستعمال العرب للنحت قديم، ومن شواهده من شعر الجاهليين قول عبد يغوث بن وقاص الحارثي:

وتضحك مني شيخة عبشمية ... كأن لم ترى قبلي أسيراً يمانيا

قال الخليل: (نَسَبها إلى عَبْدِ شَمْسٍ، فأَخَذَ العين والباء من (عَبْد) وأخذَ الشينَ والميمَ من (شَمْس)، وأسقَطَ الدال والسِّين، فبَنى من الكلمتين كلمة؛ فهذا من النَّحت)ا.هـ.

وذكر الخليل من الشواهد على ذلك قول الشاعر:

أقولُ لها ودمعُ العَينِ جارٍ ... أَلَمْ يَحْزُنْكِ حَيْعلةُ المنادي

ثم قال: (فهذه كلمة جُمِعَتْ من حَيَّ، ومن على، وتقول منه: حَيْعَلَ يُحَيْعِلُ حَيْعَلَةً)ا.هـ.

والأصل في البسملة أنها اختصار قولك: (بسم الله)، وقد ورد لفظ البسملة في شواهد لغوية احتجّ بها بعض أهل اللغة، ومن ذلك ما أنشده الخليل بن أحمد وأبو منصور الأزهري وأبو علي القالي وغيرهم من قول الشاعر:

لقد بَسـمَلَتْ هندٌ غـداةَ لَقِيتها … فيـا حبّذا ذاك الحبيب المبسـمِلُ

(بَسْمَلَتْ) أي: قالت: (بسم الله) استغراباً أو فزعاً.

ونُسب هذا البيت مغيَّراً إلى عمر بن أبي ربيعة.

واشتهر إطلاق اسم البسملة على كلمة (بسم الله الرحمن الرحيم).

قال ابن السكِّيت (ت:٢٤٤هـ): (يقال: قد أكثرت من البسملة، إذا أكثر من قوله «بسم الله الرحمن الرحيم»، وقد أكثرت من الهيللة، إذا أكثرت من قول «لا إله إلا الله»، وقد أكثرت من الحوقلة، إذا أكثرت من قول «لا حول ولا قوة إلا بالله»)ا.هـ.

وأكثر ما يستعمل لفظ «البسملة» في كلام أهل العلم لقول (بسم الله الرحمن الرحيم).

وأكثر ما تستعمل التسمية لقول (بسم الله).

ويقع في كلام بعضهم استعمال اللفظين للمعنيين، والسياق يخصص المراد.

هل تُعدُّ البسملة آية؟

لا خلاف في أن البسملة بعض آية في سورة النمل في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣٠﴾، وإنما **اختلفوا فيما عدا ذلك، وهو عدّ البسملة في أول كل سورة عدا سورة براءة على أقوال:**

القول الأول: لا تعدّ آيةً من سورة الفاتحة، ولا من أوّل كلّ سورة، وهذا قول أبي حنيفة والأوزاعي ومالك، وحُكي عن سفيان الثوري.

والقول الثاني: أنها آية في سورة الفاتحة دون سائر سور القرآن الكريم، وعليه العدّ الكوفي والمكي كما تقدّم، وهو رواية عن الشافعي.

والقول الثالث: أنها آية في أول كل سورة عدا سورة براءة، وهو قول سفيان الثوري وعبد الله بن المبارك وأصحّ الروايات عن الشافعي، ورواية عن أحمد، ورجَّحه النووي.

- قال علي بن الحسن بن شقيق: أخبرنا ابن المبارك، عن سفيان الثوري، قال: «**بسم الله الرحمن الرحيم في فواتح السور من السور**». رواه البيهقي في "شعب الإيمان".

القول الرابع: أنها آية من الفاتحة، وجزء من الآية الأولى من كل سورة عدا سورة براءة، وهو رواية عن الشافعي، وقول لبعض الشافعية حكاه الرازي في تفسيره، وذكره شيخ الإسلام وابن كثير وابن الجزري، وهو قول ضعيف.

القول الخامس: أنها آية مستقلة في أول كل سورة وليست من السور، فلا تعد مع آيات السور، وهو رواية عن أحمد، وقول لبعض الحنفية.

وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية وقال: (هو أوسط الأقوال وبه تجتمع الأدلة فإن كتابة الصحابة لها في المصاحف دليل على أنها من كتاب الله، وكونهم فصلوها عن السورة التي بعدها دليل على أنها ليست منها) ا.هـ.

وأصل الخلاف في هذه المسألة راجع إلى اختيار كلّ إمام للقراءة التي يقرأ بها، ولا ريب أنَّ البسملة آية من الفاتحة في بعض القراءات دون بعض.

ولا ريب أيضاً أنها كانت يفصل بها بين السور، وأنّها من كلام الله تعالى، **وقد صحّ أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ** ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ **في غير ما سورة:**

- **فمن ذلك:** ما في صحيح مسلم من حديث علي بن مسهر، عن المختار بن فلفل، عن أنس بن مالك رضي الله، قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه متبسما، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله قال: «أنزلت علي آنفا سورة؛ فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ٣﴾».

- **ومن ذلك:** حديث أمّ سلمة رضي الله عنها في سورة الفاتحة، وقد تقدّم.

وقد تواتر النقل عن جماعة من القراء بقراءة البسملة في أوّل كلّ سورة عدا سورة براءة، والبسملة فيها رواية عن عاصم.

وأجمع الصحابة رضي الله عنهم على تجريد المصحف مما سوى القرآن، وكتبوا ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ للفصل بين السور.

ولم يكتبوا (آمين) لأنها ليست قرآناً، مع أنَّ قول آمين بعد الفاتحة من السنن الثابتة.

فكلّ ذلك من الدلائل الدالة على أنّ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قرآن منزّل، ولا ينبغي الاختلاف في ذلك، وإنما الخلاف السائغ: الخلاف في العدد.

قالَ أبو بكرٍ البيهقيُّ (ت:٤٥٨هـ): (لم يختلف أهل العلم في نزول ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قرآنا، وإنما اختلفوا في عدد النزول).

قال: (وفي إثبات الصحابة رسمها حيثُ كتبوها في مصاحفهم دلالةٌ على صحةِ قولِ من ادَّعى نزولَها حيث كُتِبَت، والله أعلم)ا.هـ.

ولذلك كان الخلاف في العدد، وفي القراءة بالبسملة في الصلاة على ما سيأتي بيانه.

وقد استقرّت مذاهب العدّ على ستة مذاهب كما سبق بيانه في باب عدد آيات سورة الفاتحة، وهي المذاهب المعتبرة عند القرَّاء، وإن كان بعض الأقوال المأثورة عن بعض القراء الأوائل في الأعداد قد اضمحلّ القائلون بها كما اندثرت بعض المذاهب الفقهية فلم يكن لها أصحاب يحملونها قرناً بعد قرن كما للمذاهب الأربعة، وكذلك الأمر في مذاهب عدّ آي القرآن.

وبناء على ما استقرّت عليه المذاهب في العدّ؛ فإنّ هذه المسألة لها فرعان:

الفرع الأول: عدّ البسملة آية من سورة الفاتحة، وقد سبق البيان بأنها آية من الفاتحة في العدّ الكوفي والمكي، وليست آية منها عند باقي أهل العدد.

والفرع الثاني: عدّ البسملة الآية الأولى في كلّ سورة عدا براءة.

وقد اتّفقت مذاهب العدّ على عدم عدّ البسملة آية، وإن كانوا يقرؤون بها في أوّل كلّ سورة غير براءة، لكنَّهم لا يعدّونها من آيات السورة.

قال علم الدين السخاوي(ت:٦٤٣هـ): (وأما إثباتها آية في أول كل سورة فلم يذهب إليه أحدٌ من أهل العدد)ا.هـ.

وفي اتفاق أهل العدد على عدم عدّها آية في أوّل كلّ سورة غير الفاتحة دليل على أنّ الآخذ بهذا القول آخذٌ بقولٍ صحيحٍ لا شكَّ فيه، مع قيام الاحتمال القويّ على أنّ الأقوال المأثورة عن بعض أهل العلم في عدّها آية من كلّ سورة قد تكون صحيحة عن بعض القراء الأوائل، وأنّها مما تختلف فيه الأحرف السبعة.

ومما يستدلّ به على صحة قول من لا يعدّها آية في أوّل كلّ سورة:

١. حديث شعبة عن قتادة عن عباس الجُشَميِّ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن سورة من القرآن، ثلاثون آية، شفعت لرجل حتى غفر له، وهي: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾». رواه أحمد وأبو داوود والترمذي وابن ماجه والنسائي، وغيرهم.

وهو حديث رجاله أئمة معروفون غير عباس الجشمي ذكره ابن حبان في الثقات، وقال ابن حجر في التقريب: مقبول، ولهذا الحديث شاهد عن أنس رضي الله عنه، وقد حسّنه جماعة من أهل الحديث.

وسورة الملك ثلاثون آية من غير البسملة عند جمهور أهل العدد.

ومن قال بأنها إحدى ثلاثون آية فلم يعدّ البسملة وإنما عدّ ﴿قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾ آية، كما هو في العدّ المكي، والعد المدني الأخير.

٢. وحديث حماد بن زيد عن عاصم بن أبي النجود عن زرّ بن حبيش قال: قال لي أبي بن كعب: «**كأين تقرأ سورة الأحزاب؟ أو كأين تعدها؟**»

قال: قلت له: (ثلاثا وسبعين آية).

فقال: «**قط، لقد رأيتها وإنها لتعادل سورة البقرة**» الحديث، رواه أحمد في مسنده، وتابع حماداً على هذه الرواية منصور بن المعتمر كما عند النسائي في الكبرى؛ فقولهما أرجح من قول من قال: (بضعاً وسبعين).

وسورة الأحزاب قد أجمع أهل العدد على أنها ثلاث وسبعون آية من غير البسملة، لا خلاف بينهم في ذلك.

تفسير البسملة

في تفسير البسملة مسائل:

المسألة الأولى: معنى الباء في ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾:

اختلف اللغويون في معنى الباء في (بسم الله) على أقوال أقربها للصواب أربعة أقوال، وهي أشهر ما قيل في هذه المسألة:

القول الأول: الباء للاستعانة، وهو قول أبي حيان الأندلسي والسمين الحلبي، وقال به جماعة من المفسّرين.

والقول الثاني: الباء للابتداء، وهو قول الفراء، وابن قتيبة، وثعلب، وأبي بكر الصولي، وأبي منصور الأزهري، وابن سيده، وابن يعيش، وجماعة.

والقول الثالث: الباء للمصاحبة والملابسة، واختاره ابن عاشور.

والقول الرابع: الباء للتبرك، أي أبدأ متبركاً، وهذا القول مستخرج من قول بعض السلف في سبب كتابة البسملة في المصاحف، وأنها كتبت للتبرّك، وهذا المعنى يذكره بعض المفسرين مع بعض ما يذكرونه من المعاني.

والأظهر عندي أن هذه المعاني الأربعة كلها صحيحة لا تعارض بينها، وما ذكر من اعتراضات على بعض هذه الأقوال فله توجيه يصحّ به القول.

ومن ذلك اعتراض بعضهم على معنى الاستعانة بأنّ الاستعانة تكون بالله وليست باسم الله؛ قالوا: الأشهر أن يقول المستعين إذا أراد الاستعانة: أستعين بالله، ولا يقول: أستعين باسم الله.

وهذا الاعتراض يدفعه أنّ الذي يذكر اسم ربّه لا ريب أنّه يستعين بذكر اسمه على ما عزم عليه؛ فمعنى الاستعانة متحقق.

فهو يستعين بالله تعالى حقيقة، ويذكر اسمه متوسّلاً به إلى الله تعالى ليعينه؛ وهذا هو مراد من قال بمعنى الاستعانة.

وقد أرجع سيبويه معاني الباء إلى أصل واحد وهو الإلزاق؛ فقال في "الكتاب": (وباء الجر إنما هي للإلزاق).

وهذا مقبول من حيث الأصل لكن يُعبَّر عن المعنى في كلّ موضع بما يناسبه، ولذلك استبدل ابن عاشور عبارة الإلزاق في هذا الموضع بالمصاحبة والملابسة وذكر أنها مترادفة، ومن أهل اللغة من يذكر بينها فروقاً دقيقة.

والإلزاق ينقسم إلى حسيّ ومعنوي؛ فالحسيّ للمحسوسات نحو: أمسكت بالقلم، والمعنويّ نحو: قرأتُ بِنَهَمٍ.

ثمّ يتفرَّع على الإلزاق الحسي والمعنوي أنواع أخرى؛ فقد يكون للاستعانة وقد يكون للتبرك، وقد يكون للاستفتاح، وقد يكون لغير ذلك، وقد تجتمع بعض هذه المعاني.

فما اجتمع منها من غير تنافر فيصحّ القول به، ولذلك يصحّ أن يستحضرَ المبسملَ عندَ بسملته هذه المعاني جميعاً، ولا يجد في نفسه تعارضاً بينها.

والغرض من التفصيل في هذه المسألة أن يتبيّن طالب علم التفسير أنّ من الأقوال في معاني الحروف ما يجتمع ولا يتنافر، وهذه قاعدة مهمة في التفسير ولها تطبيقات كثيرة في مسائل التفسير.

ومن أمثلة ذلك الجمع بين أقوال العلماء في معنى الباء في قوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾.

فقيل: الباء للاستعانة، وقيل: للمصاحبة، وقيل: للملابسة، وقيل: للسببية، وقيل: للتبرّك.

وهذه كلها معانٍ صحيحة لا تعارض بينها.

لكن مما يُنبَّه عليه ضعف بعض الأقوال التي قيلت في معنى الباء في قوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

فقيل: زائدة، وقيل: هي للقسم؛ وقيل: للاستعلاء.

فأمّا القول بالزيادة فضعيف جداً، وكذلك القول بأنّها للقسم، والقسم يفتقر إلى جواب، ولا ينعقد إلا معلوماً.

وأما القول بالاستعلاء فيكون صحيحاً إذا كان معنى الاستعلاء عند التسمية مطلوباً؛ كالتسمية عند الرمي، وفي أعمال الجهاد، وسائر ما يطلب

فيه الاستعلاء كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾.

وهذا المعنى لا يُراد إذا كانت التسمية لما يراد به التذلل لله تعالى والتقرّب إليه كما في التسمية لقراءة القرآن.

وبهذا تعلم أن معاني الحروف تتنوّع بحسب السياق والمقاصد وما يحتمله الكلام، وليست جامدة على معانٍ معيَّنة يكرر المفسّر القول بها في كلّ موضع.

المسألة الثانية: حذف الألف في ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾:

اتفقت المصاحف على حذف الألف في كتابة ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ في فواتح السور في قول الله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾، وإثباتها في نحو ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، و﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، ولم يختلف علماء رسم المصاحف في التزام هذا التفريق اتّباعاً للرَّسم العثماني.

وقد التمس علماء اللغة وعلماء الرسم سبب التفريق فقالوا في ذلك أقوالاً أشهرها: أَمْنُ اللبس في ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ وهو قول الفرَّاء، وإرادة التخفيف لكثرة الاستعمال، وهو قول جماعة من العلماء، وذكر بعضهم عللاً أخرى.

فقال الزجاج: (وسقطت الألف في الكتاب من ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ولم تسقط في: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ١﴾؛ لأنه اجتمع فيها مع أنها تسقط في اللفظ كثرة الاستعمال)ا.هـ.

وبنحو ما قال الزجاج قال جماعة من أهل اللغة.

وقال أبو عمرو الداني في كتابه "المقنع في رسم مصاحف الأمصار": (اعلم أنه لا خلاف في رسم ألف الوصل الساقطة من اللفظ في الدرج إلا

في خمسة مواضع فإنها حذفت منها في كل المصاحف.

فأولها: التسمية في فواتح السور وفي قوله في هود [بسم الله مجرها ومرسها] لا غير ذلك لكثرة الاستعمال فأما قوله: «باسم ربك الذي» و«باسم ربك العظيم» وشبهه فالألف فيه مثبتة في الرسم بلا خلاف)ا.هـ.

المسألة الثالثة: تقدير متعلق الجار والمجرور المحذوف في قوله تعالى: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾:

الجار والمجرور متعلق بمحذوف مؤخَّر، يقدّر في كلّ موضع بما يناسبه، فإذا قرأت قدّرته باسم الله أقرأ، وإذا كتبت قدّرته باسم الله أكتب.

ومن أهل العلم من يقدّر المحذوف بحسب اختياره في معنى الباء؛ فيقول من رأى الباء للابتداء: التقدير: باسم الله أبدأ، أو باسم الله ابتدائي.

قال أبو البقاء العكبري: (عند البصريين المحذوف مبتدأ، والجار والمجرور خبره، والتقدير: ابتدائي بسم الله، أي كائن باسم الله؛ فالباء متعلقة بالكون والاستقرار.

وقال الكوفيون: المحذوف فعلٌ تقديره ابتدأت، أو أبدأ، فالجار والمجرور في موضع نصب بالمحذوف)ا.هـ.

وقد ورد في القرآن تعلّق الجارّ والمجرور في مثل هذا الموضع بالاسم وبالفعل:

فمثال تعلّقه بالاسم قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآ﴾.

ومثال تعلّقه بالفعل قول الله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾.

المسألة الرابعة: سبب حذف متعلّق الجار والمجرور:

خلاصة ما ذكره النحاة من أسباب حذف متعلّق الجار والمجرور ثلاثة:

الأول: تقديم اسم الله تعالى فلا يُقدّم عليه شيء.

والثاني: التخفيف لكثرة الاستعمال.

والثالث: ليصلح تقدير المتعلّق المحذوف في كلّ موضع بحسبه.

فالقارئ يقدّره بما يدلّ على القراءة من اسم أو فعل، والكاتب كذلك، وكلّ من سمّى لغرض من الأغراض كالأكل والشرب والنوم وغيرها يصحّ أن يقدّر اسماً أو فعلا من ذلك الغرض يكون متعلّقاً بالجار والمجرور.

وقد أحسن أبو القاسم السهيلي في نتائج الفكر البيان عن أسباب حذف المتعلّق في مثل هذا الموضع.

المسألة الخامسة: معنى الاسم:

الاسم اختلف في اشتقاقه على قولين:

القول الأول: مشتقّ من السمو، والسموّ الرفعة، وهو القول المشهور عن البصريين.

والقول الثاني: مشتقّ من السِّمَة، وهي العلامة، فكأنّ الاسم علامة على المسمّى، وهذا القول مشهور عن الكوفيين.

وقد أسهب أبو إسحاق الزجاج في معاني القرآن في نصرة القول الأول، وتخطئة القول الثاني بعلل صرفية تُبحث في مظانّها.

والمقصود هنا التعريف بالقولين المشهورين في اشتقاق لفظ «الاسم»، وقد كثر تداول هذه المسألة في كتب التفسير.

المسألة السادسة: بيان مسألة الاسم والمسمَّى:

هذه المسألة من المسائل التي طال بحثها في كتب التفسير والعقيدة واللغة، ومن أشهر من أفاض في بحثها بإسهاب: ابن جرير الطبري، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، وعبد الرحمن المعلّمي.

وكان مما حمل بعضهم على الإطالة في بحثها ما أثاره المتكلّمون من سؤال الفرق بين الاسم والمسمّى: هل الاسم هو عين المسمَّى، أو غيره، أو لا هو عينه ولا غيره.

وبحث هذه المسألة على طريقة المتكلّمين توقع في أخطاء ولا سيّما إذا بني عليها القول في مسائل اعتقادية في أسماء الله تعالى وصفاته وأسماء الأحكام الواردة في النصوص من الكفر والإيمان، والفسق والعصيان، وغيرها.

وبحث هذه المسألة ومناقشة حجج المختلفين فيها يطول جداً، وأصحاب كلّ قول فهموا المسألة من وجه فقالوا بمقتضى ما فهموه، وقصرت عبارتهم عن أن تكون جامعة مانعة؛ فرأى فيها من عارضهم بعض ما يخالف ما فهموه.

وسأعرض الخلاصة المُفهمة إن شاء الله تعالى بما يستغنى به كثير من طلاب العلم عن التطويل في مناقشة الأقوال وحجج أصحابها واعتراضات بعضهم على بعض.

فالصواب في هذه المسألة أنّ الاسم دالٌّ على المسمّى، فألفاظ اسم «زيد» ليست هي نفسها شخص «زيد»، وإنّما يدلّ اسم «زيد» على من سُمِّيَ به.

والكلام العربي يقع فيه التوسّع وتعدد الاعتبارات، فيُذكر الاسم أحياناً ويراد به المسمَّى به، باعتبار أنّه دالّ عليه، كما في قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ فكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «سبحان ربي الأعلى» ولم يقل: (سبحان اسم ربي..).

ويذكر أحياناً ويراد به الاسم نفسه كما يقال: الرحمن اسم عربي.

فالقول بأنّ الاسم هو المسمّى مطلقاً خطأ.

وكذلك القول بأنَّ الاسم غير المسمَّى مطلقاً خطأ.

وقد تنازعوا في قول لبيد بن ربيعة العامري:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ... ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر

وهذا البيت من قصيدة للبيد مطلعها:

تمنى ابنتاي أن يعيش أبوهما ... وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر
ونادبتين تندبان بعاقلٍ ... أخا ثقةٍ لا عين منه ولا أثر

فقوما فقولا بالذي قد علمتما ... ولا تخمشا وجها ولا تحلقا شعر
وقولا هو المرءُ الذي لا خليلَه ... أضاع، ولا خان الصديق ولا غدر
إلى الحولِ ثم اسمُ السلام عليكما ... ومن يبكِ حولا كاملا فقد اعتذر

فمن قال الاسم هو المسمَّى؛ قال: المعنى ثمّ السلام عليكما، وهذا قول معمر بن المثنى.

وردّه ابن جرير بأنه لو كان الاسم هو المسمّى لصحّ أن يقال: رأيت اسم زيد، وأكلت اسم الطعام.

وذكر ابن جرير في معنى بيت لبيد قولين:

أحدهما: أن السلام اسم الله، فكأن المعنى ثمّ الزما اسم الله.

والثاني: أن المعنى ثمّ تسميتي الله عليكما، كما يقال: ذكرت اسم الله عليك.

وذكر السهيلي وجها ثالثاً: وهو أنّ لبيداً لم يرد أن يسلم عليهما من وقته، ولو قال: ثم السلام عليكما، لكان كمن أوصى وصية ثم سلّم، وإن لم تُنفذ، وهو إنما أراد أن يسلّم عليهما بعد الحول.

وذكر بعض العلماء أوجهاً أخرى.

وأقرب من هذه الأقوال كلّها؛ وأوفق ليُسْرِ كلام العرب وبعده عن التعقيد أن يكون لبيدٌ قد أراد البيان بأنهما إنْ فعلتا ما أوصى به؛ فلا ملامَ عليهما؛ إذ استحقّتا اسم السلام من اللوم، ويدلّ على إرادة هذا المعنى قوله بعد ذلك: (ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر) أي بَلغ العذر الذي لا يلام بعده.

والاسم هنا يراد به ما تضمّنه من الوصف، كما تقول لمن سرق شيئاً من حرزه: يقع عليك اسم السارق، أي تستحقّ هذا الوصف، وبه فُسِّر قول الله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ أي أنه موصوف بأحمد الأوصاف في جميع شؤونه؛ ففي كلّ شأن هديه أحسنُ الهدي، واسمه في ذلك الشأن أحمدُ الأسماء وأحسنها.

المسألة السابعة: معنى اسم (اللّه) جلَّ جلاله

اسم (الله) هو الاسم الجامع للأسماء الحسنى، وهو أخصّ أسماء الله تعالى؛ وأعرف المعارف على الإطلاق.

قال ابن القيّم رحمه الله: (هذا الاسم هو الجامع، ولهذا تضاف الأَسماءُ الحسنى كلها إليه فيقال: الرحمن الرحيم العزيز الغفار القهار من أَسماء الله، ولا يقال: الله من أَسماءِ الرحمن، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾).

وقال أبو سليمان الخطابي: (وهو اسم ممنوع، لم يتسم به أحد، قد قبض الله عنه الألسن؛ فلم يُدْعَ به شيء سواه)ا.هـ.

ومعنى اسم (الله) يشتمل على معنيين عظيمين متلازمين:

المعنى الأول: هو الإله الجامع لجميع صفات الكمال والجلال والجمال؛ فهذا الاسم يدلّ باللزوم على سائر الأسماء الحسنى؛ فهو الخالق البارئ المصوّر، وهو الملك الغنيّ الرازق، وهو القويّ القدير القاهر، وهو العليم الحكيم، والسميع البصير، واللطيف الخبير، والرحمن الرحيم، وهو المجيد الجامع لصفات المجد والعظمة والكبرياء، وهو الواحد القهار والعزيز الجبار، والعظيم الذي له جميع معاني العظمة؛ عظيم في ذاته، عظيم في مجده، عظيم في قوته وبطشه، عظيم في كرمه وإحسانه ورحمته، عظيم في حلمه ومغفرته.

وهكذا سائر الأسماء الحسنى والصفات العلى.

قال ابن القيّم رحمه لله: (اسم الله تعالى هو الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى والصفات العلى)ا.هـ.

ودلالة هذا الاسم على سائر الأسماء الحسنى بالتضمّن واللزوم دلالة ظاهرة؛ فإنّ هذا الاسم يتضمّن كمال الألوهية لله تعالى وهو معنى جامع لكلّ ما يُؤلَّه الله تعالى لأجله، وما يدلّ على ذلك من أسمائه وصفاته.

ويستلزم كمال ربوبيّة الله تعالى، وما يدلّ على ذلك من أسمائه وصفاته.

ويستلزم كمال ملكه وتدبيره، وما يدلّ على ذلك من الأسماء والصفات.

والمعنى الثاني: هو المألوه أي المعبود الذي لا يستحق العبادة أحد سواه، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: المعبود في السماوات والمعبود في الأرض.

والعبادة لا تسمى عبادة حتى تجتمع فيها ثلاثة أمور:

الأمر الأول: المحبة العظيمة، فالعبادة هي أعظم درجات المحبة، ولذلك لا يجوز صرفها لغير الله عز وجل، ومن صرفها لغير الله فقد أشرك كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾.

قال الشاعر يصف شدة حبه لمحبوبته:

لا تدعني إلا بـــ(يا عبدها) ... فإنه من أشرف أسمائي

وقال إبراهيم الصولي:

وهان علي اللوم في جنب حبها ... وقول الأعادي إنه لخليع
أصمُّ إذا نوديت باسمي وإنني ... إذا قيل لي يا عبدها لسميع

نعوذ بالله من الخذلان.

وهذه المرتبة من المحبة لا يستحقها أحد غير الله عز وجل.

وإذا عظمت محبة الله في قلب العبد قادته إلى الاستقامة على طاعة الله عز وجل، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، فهو يطيعه محبة له ورغبة ورهبة.

الأمر الثاني: التعظيم والإجلال، فإن العابد معظِّمٌ لمعبوده أشد التعظيم، ومُجِلٌّ له غايةَ الإجلالِ.

الأمر الثالث: الذل والخضوع والانقياد، يقال طريق معبَّد أي مذلَّل، فالعابد منقاد لمعبوده خاضع له.

وهذا الذل والخضوع والانقياد لا يجوز صرفه لغير الله عز وجل، وذل العبد لله عز وجل وانقياده لطاعته هو عين سعادته، وسبيل عزته ورفعته.

ومن ذل لله رفعه الله وأعزه، ومن استكبر واستنكف أذله الله وأخزاه، وسلط عليه من يسومه سوء العذاب، ويذله ويهينه، ولذلك فإن أعظم الخلق خشية لله وانقياداً لأوامره الأنبياء والملائكة والعلماء والصالحون، وهم أعظم الخلق عزة رفعة وعلواً وسعادة، وأعظم الخلق استكباراً واستنكافاً مردة الشياطين، والطغاة والظلمة، وهم أعظم الخلق ذلاً ومهانة.

وهذه الأمور الثلاثة (المحبة والتعظيم والانقياد) هي معاني العبادة ولوازمها التي يجب إخلاصها لله عز وجل، فمن جمع هذه المعاني وأخلصها لله فهو من أهل التوحيد والإخلاص.

المسألة الثامنة: معنى (الرحمن)

(الرحمن) ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء، وبناء هذا الاسم على وَزن «فَعْلان» يدلّ على معنى السعة وبلوغ الغاية، وهو اسم مختصّ بالله تعالى، لا يُسمَّى به غيره.

قال أبو إسحاق الزجاج: (ولا يجوز أن يقال «الرحمن» إلّا للّهّ، وإنما كان ذلك لأن بناء (فعلان) من أبنية ما يبالغ في وصفه، ألا ترى أنك إذا قلت (غضبان)، فمعناه: الممتلئ غضباً، فـ«رحمن» الّذي وسعت رحمته كل شيء، فلا يجوز أن يقال لغير الله: «رحمن»)ا.هـ.

المسألة التاسعة: معنى (الرحيم)

(الرحيم) فعيل بمعنى فاعل، أي: راحم، ووزن فعيل من أوزان المبالغة؛ والمبالغة تكون لمعنى العظمة ومعنى الكثرة.

والله تعالى هو الرحيم بالمعنيين؛ فهو عظيم الرحمة، وكثير الرحمة.

والرحمة نوعان: رحمة عامة ورحمة خاصة:

- فجميع ما في الكون من خير فهو من آثار رحمة الله العامة حتى إن البهيمة لترفع رجلها لصغيرها يرضعها من رحمة الله عز وجل كما جاء ذلك في الحديث.

- وأما الرحمة الخاصة فهي ما يرحم الله به عباده المؤمنين مما يختصهم به من الهداية للحق واستجابة دعائهم وكشف كروبهم وإعانتهم وإعاذتهم وإغاثتهم ونصرهم على أعدائهم ونحو ذلك كلها من آثار الرحمة الخاصة.

المسألة العاشرة: الحكمة من اقتران اسمي «الرحمن» و«الرحيم»

اختلف العلماء في سبب اقتران هذين الاسمين، وكثرة تكررهما مقترنين، على أقوال أحسنها وأجمعها:

قول ابن القيم رحمه الله تعالى: ((الرحمن) دالٌّ على الصفة القائمة به سبحانه، و(الرحيم) دال على تعلقها بالمرحوم؛ فكان الأول للوصف والثاني للفعل.

فالأول دال على أن الرحمة صفته.

والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته.

وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾، ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ ولم يجئ قط رحمن بهم، فعلم أن «رحمن» هو الموصوف بالرحمة، و«رحيم» هو الراحم برحمته)ا.هـ.

وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى: (﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ مجازه: ذو الرحمة، و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ مجازه: الراحم)ا.هـ.

ومما يدلّ لذلك أن صيغة «فعلان» في اللغة تدل على قيام الصفة بالموصوف وسَعَتها كما تقول: شبعان وريّان وغضبان للممتلئ شبعاً وريًّا وغضباً؛ فهو وصف لما قام بذات الموصوف من بلوغ الغاية في هذه الصفة.

وصيغة فعيل: تدلّ على الفعل كالحكيم بمعنى الحاكم، والسميع بمعنى السامع، والبصير بمعنى المبصر، فالرحمن وصف ذات، والرحيم وصف فعل.

وقيل في هذه المسألة أقوال أخرى فيها نظر.

منها: أن الرحمن ذو الرحمة العامّة للخلق كلّهم، والرحيم ذو الرحمة الخاصة بالمؤمنين، واستدلّوا بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾، وهذا الاستدلال فيه نظر، وبناء الاسمين لا يساعد على هذا التأويل، ويردّ هذا التأويل قول الله تعالى ممتنّا على جميع خلقه مؤمنهم وكافرهم: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾﴾.

ومنها: أن المراد الإنباء عن رحمة عاجلة ورحمة آجله.

ومنها: أن المراد المشاكلة لأجل التأكيد، وهذا القول وإن كان فيه صواب من جهة أن جَمْع الاسمين فيه دلالة على تأكيد صفة الرحمة؛ إلا أنّ قصر التأويل عليه لا يصحّ.

التنبيه على ضعف بعض المرويات في فضل البسملة

ورد في فضل البسملة خاصة أحاديث وآثار عامّتها لا تصحّ، ومن ذلك:

١. ما رواه ابن أبي حاتم في تفسيره والحاكم في المستدرك من طريق زيد بن المبارك الصنعاني قال: حدثنا سلام بن وهب الجندي، حدثنا أبي عن طاووس، عن ابن عباس أن عثمان بن عفان سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن «بسم الله الرحمن الرحيم» فقال: «هو اسم من أسماء الله، وما بينه وبين اسم الله إلا كما بين سواد العينين وبياضهما من القرب».

ورواه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد من طريق سلام بن وهب عن ابن طاووس عن أبيه.

وسلام بن وهب منكر الحديث.

قال العقيلي: (خبر موضوع لا يُعرف).

وقال الذهبي: (خبر منكر بل كذب).

٢. وما رواه ابن جرير من طريق زبريق عن إسماعيل بن عياش، عن إسماعيل بن يحيى، عن ابن أبي مُليكة، عمن حدثه، عن ابن مسعود، ومِسْعَرِ بن كِدَام، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن عيسى ابن مريم أسلمته أمُّه إلى الكتَّاب ليعلِّمه، فقال له المعلم: اكتب «بسم» فقال له عيسى: وما «بسم»؟

فقال له المعلم: ما أدري!

فقال عيسى: الباء بهاءُ الله، والسين: سناؤه، والميم: مملكته».

ورواه ابن مردوية بسياق مقارب كما في "تفسير ابن كثير".

قال ابن كثير: (وهذا غريب جدا، وقد يكون صحيحا إلى من دون رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويكون من الإسرائيليات لا من المرفوعات).

قلت: صدق رحمه الله فيما ذهب إليه؛ فهذا الأثر رواه ابن أبي حاتم من طريق جويبر عن الضحاك، وروى نحوه ابن المنذر عن سعيد بن جبير، وسعيد بن جبير كان ممن يروي الإسرائيليات، وقد أخذ بعض الإسرائيليات عن نوف بن فضالة البكالي، وقد لا يقع في الرواية عنه في بعض كتب التفسير تصريح بذلك، وإنما تعرف هذه العلّة بجمع الطرق والشواهد، فربما حُمل عنه هذا الأثر على غير وجهه مع ما فيه من النكارة.

وأما رواية عطية عن أبي سعيد؛ فالأظهر أنّ المراد بأبي سعيد محمد بن السائب الكلبي، وهو متروك الحديث، وكان مما أُخذ على عطية العوفي تدليسه في الرواية عن الكلبي بتكنيته بأبي سعيد؛ فربّما ظُنّ أنّ المراد به أبو سعيد الخدري.

والمقصود أنّ رفع هذا الخبر إلى النبي صلى الله عليه وسلم باطل لا يصحّ، وهو من الإسرائيليات المنكرة.

٣. وما رواه ابن مردويه من حديث يزيد بن خالد، عن سليمان بن بريدة، وفي رواية عن عبد الكريم أبي أمية، عن ابن بريدة، عن أبيه؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أنزلت علي آية لم تنزل على نبي غير سليمان بن داود وغيري، وهي بسم الله الرحمن الرحيم».

ذكره ابن كثير في تفسيره.

٤. وما رواه ابن مردويه والثعلبي من طريق عمر بن ذر، عن عطاء بن أبي رباح، عن جابر بن عبد الله، قال: «**لما نزل** ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ **هرب الغيم إلى المشرق، وسكنت الرياح، وهاج البحر، وأصغت البهائم بآذانها، ورجمت الشياطين من السماء، وحلف الله تعالى بعزته وجلاله ألا يسمى اسمه على شيء إلا بارك فيه**».

٥. وما رواه الثعلبي من طريق وكيع عن الأعمش عن أبي وائل عن ابن مسعود قال: «**من أراد أن ينجيه الله من الزبانية التسعة عشر فليقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم، ليجعل الله له من كل حرف منها جنة من كل واحد**».

الأعمش مدلس وقد عنعن، والمتن فيه نكارة.

قال ابن عطية: (وهي نظير قولهم في ليلة القدر: «إنها ليلة سبع وعشرين» مراعاة للفظة «هي» في كلمات سورة ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ ونظير قولهم في عدد الملائكة الذين ابتدروا قول القائل: «ربنا ولك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه» فإنها بضعة وثلاثون حرفا، قالوا: فلذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لقد رأيت بضعة وثلاثين ملكا يبتدرونها أيهم يكتبها أول»)ا.هـ.

الجهر والإسرار بالبسملة في الصلاة

مسألة الجهر بالبسملة في الصلاة من المسائل التي اشتهر فيها الخلاف بين الفقهاء واتّسع، وكثرت فيها الآثار والأقوال، وصًنّفت فيها مصنفات، وأطال كثير من الفقهاء والمفسّرين وشرّاح الأحاديث بحثها.

وسأذكر فيها خلاصة موجزة تكفي اللبيب عما وراءها إن شاء الله تعالى.

- قال الأوزاعي: (كتب إليَّ قتادة حدثني أنس بن مالك قال: «**صليت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم فكانوا يستفتحون القراءة بـ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ لا يذكرون ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في أول القراءة ولا في آخرها**»). رواه الإمام أحمد ومسلم، وروى البخاري في صحيحه عن شعبة عن قتادة عن أنس نحوه.

- وقال قيس بن عباية: (حدثني ابن عبد الله بن مغفل، عن أبيه، قال: ولم أر رجلا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كان أشدّ عليه حدثٌ

في الإسلام منه، قال: سمعني أبي وأنا أقرأ: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال: «**يا بني، إياك والحدث، فإني قد صليت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبي بكر، وعمر، وعثمان فلم أسمع أحدا منهم يقول ذلك، إذا قرأت فقل:** ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾»). رواه ابن أبي شيبة وأحمد.

- وروى بديل بن ميسرة عن أبي الجوزاء عن عائشة أنها قالت: «**كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الصلاة بالتكبير والقراءة بـ** ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾». رواه مسلم، وروى ابن أبي شيبة نحوه عن ابن مسعود.

- وروى ابن أبي شيبة من طريق سعيد بن المرزبان، عن أبي وائل، عن عبد الله بن مسعود؛ أنه كان يخفي ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ والاستعاذة، وربنا لك الحمد.

- وروي عدم الجهر بالبسملة عن عمر بن الخطاب وعليّ بن أبي طالب وعمار بن ياسر وغيرهم.

ورُوي الجهر بالبسملة عن أبي هريرة وابن عباس وابن الزبير وجماعة من التابعين، وهو محمول على التعليم أو التنصيص على أن البسملة من الفاتحة.

- قال ابن عباس: «**الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم قراءة الأعراب**». رواه عبد الرزاق وابن أبي شيبة من طريق عبد الملك بن أبي بشير عن عكرمة عن ابن عباس.

- وقال نعيم المجمر: (صليت وراء أبي هريرة فقرأ: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ثم قرأ بأم القرآن حتى إذا بلغ: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال: «**آمين**» ويقول كلما سجد، وإذا قام من الجلوس: «**الله أكبر**». ثم يقول إذا سلم: «**والذي نفسي بيده إني لأشبهكم صلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم**»)

رواه النسائي وابن خزيمة وابن حبان وغيرهم من طريق سعيد بن أبي هلال عن نعيم به، وسعيد قال فيه الإمام أحمد: (يخلط في الأحاديث).

ولذلك ضعف هذا الحديثَ بعضُ أهل العلم.

وقد روى الإمام مسلم في صحيحه من طريق عمارة بن القعقاع قال: حدثنا أبو زرعة قال: سمعت أبا هريرة يقول: «**كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نهض من الركعة الثانية استفتح القراءة بـ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ولم يسكت**».

وعلى القول بتصحيح حديث نعيم المجمر عن أبي هريرة؛ فهو محمول على أنّ أبا هريرة صلى بهم صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبالغ في البيان حتى جهر بالبسملة ليعلمهم أنّها مما يقرأ في الفاتحة لا أنّها مما يُجهر به.

ويحتمل أنّ أبا هريرة رضي الله عنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يجهر بالبسملة في صلوات لم يشهدها أنس، ويكون هذا الاختلاف من باب اختلاف التنوّع كما صحّ تنوّع صفات صلاة الخوف وأدعية التشهّد والاستفتاح وصيغ الأذان والإقامة وكما صحّت القراءات المرويّة عن النبي صلى الله عليه وسلم وكلها جائز كاف شافٍ.

وليس بين هذه الأحاديث تعارض بحمد الله، وأحاديث عدم الجهر بالبسملة ليس فيها نفي قراءتها، وقد ثبت من حديث أمّ سلمة أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قرأ البسملة في أوّل الفاتحة، وصحّ عن علي بن أبي طالب وابن عباس عدّ البسملة آية من الفاتحة.

وسواء أقلنا إنها آية من الفاتحة أم لا؛ فإنّ الإجماع قد انعقد على كتابتها في المصحف في أوّل الفاتحة وفي أوّل كلّ سورة من القرآن عدا سورة براءة، فلو قرأها القارئ تبرّكاً كما يقرؤها في أوّل كلّ سورة لكان متّبعاً للسنّة، ولو لم يقرأها على أنّها آية من الفاتحة.

ومن ترك قراءتها اتباعاً لقراءة من لا يعدّها آية من الفاتحة فصلاته صحيحة.

ومما ينبغي التنبّه له أن مسألة الإسرار بالبسملة والجهر بها منفكّة عن مسألة عدّها آية من الفاتحة، ومسائل القراءات وعدّ الآي مبناها على النقل الصحيح، ولا يرجّح بينها كما يرجّح بين الأقوال الفقهية، فما صحّت القراءة به وصحّ عدّه يُحكم بصحّته، وإن صحّت قراءتان وصحّ عددان يعتقد صحتهما جميعاً.

ولذلك فإنّ من الخطأ ما يسلكه بعض فقهاء المذاهب وبعض المفسّرين من الطعن في بعض القراءات ومذاهب العدّ مما صحّ عن القرّاء المعتبرين بالأسانيد المتواترة.

والأئمة الكبار لا يقع منهم الطعن في القراءات الصحيحة الثابتة؛ كما تقدّم النقل في ذلك عن شيخ الإسلام ابن تيمية والحافظ ابن الجزري، ومن رُوي عنه شيء من إنكار بعض القراءات من الأئمة المتقدّمين فإنما هو محمول على أنّ تلك القراءة لم تبلغه، كما أخذ الإمام مالك عن قرّاء

المدينة وهم لا يعدّون البسملة آية من الفاتحة، ولذلك روي عنه إنكار أن تكون البسملة آية من الفاتحة.

قال النووي في "المجموع": (واعلم أن مسألة الجهر ليست مبنية على مسألة إثبات البسملة لأن جماعة ممن يرى الإسرار بها لا يعتقدونه قرآناً، بل يرونها من سننه كالتعوذ والتأمين، وجماعة ممن يرى الإسرار بها يعتقدونها قرآنا، وإنما أسروا بها وجهر أولئك لما ترجح عند كل فريق من الأخبار والآثار)ا.هـ.

وقد اختلف الفقهاء في الجهر بالبسملة في الصلاة الجهرية على أربعة أقوال:

القول الأول: يقرأ بها سراً ولا يجهر بها، وهو قول سفيان الثوري والحكم بن عتيبة وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل ورواية عن الأوزاعي.

وعن أحمد يستحب الجهر بالبسملة أحياناً، وهو مروي عن عمر وابن عباس.

والقول الثاني: لا يقرأ بها سراً ولا جهراً، وهو قول مالك وإحدى الروايتين عن الأوزاعي.

وعن مالك أنه إن شاء قرأ بها في قيام الليل أما في الفرض فلا.

والقول الثالث: يستحب له أن يجهر بها، وهو قول الشافعي.

والقول الرابع: إن شاء جهر وإن شاء أسرّ، وهو قول إسحاق بن راهويه ورواية عن الحكم بن عتيبة.

وأمّا الجهر بالبسملة في غير الصلاة فهي تابعة للقراءة إن جهر بالقراءة جهر بالبسملة، وإن أسرّ بالقراءة أسرّ بالبسملة.

الباب السابع: تفسير قول الله تعالى:

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣﴾

قال الله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾.

هذه الآيات الثلاث حمدٌ لله تعالى وثناء عليه وتمجيد له، كما في صحيح مسلم وغيره من حديث العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣﴾، قال الله تعالى: أثنى علي عبدي، وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾، قال: مجدني عبدي...». الحديث.

فهذه الآيات الثلاث من القسم الذي جعله الله تعالى له من صلاة العبد لربّه بفاتحة الكتاب.

فهو حمدٌ لله تعالى بما حمد به نفسه، وثناء عليه بتكرير ذكر أسمائه وصفاته، وتمجيد له بتكرير الثناء عليه بما صف به نفسه من الصفات الجامعة لمعاني المجد والعظمة.

تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾

معنى ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾:

الحمد هو ذكر محاسن المحمود عن رضا ومحبة.

والتعريف في الحمد له معنيان:

المعنى الأول: استغراق الجنس، أي كلّ حمد فالله هو المستحقّ له، فكلّ ما في الكون مما يستحقّ الحمد؛ فإنما الحمد فيه لله تعالى حقيقة لأنه إنما كان منه وبه.

والمعنى الثاني: التمام والكمال، أي الحمد التامّ الكامل من كلّ وجه وبكلّ اعتبار لله تعالى وحده؛ فهو المختصّ به؛ فالله تعالى لا يكون إلا محموداً على كلّ حال، وفي كلّ وقت، ومن كلّ وجه، وبكلّ اعتبار.

- فهو تعالى محمود على كلّ ما اتّصف به من صفات الكمال والجلال والجمال.

- وهو محمود في جميع أمره.

- وهو محمود على كلّ ما خلق وقضى وقدّر.

فملأ حمدُه تعالى كلَّ شيء؛ ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾.

والله تعالى له الحمد بالمعنيين كليهما.

والفرق بين معنيَيِ التعريف في الحمد: أن المعنى الأول يشتمل على أنواع كثيرة؛ فمنها ما يختص بالله تعالى، ومنها ما يقع اسم الحمد فيه على بعض ما يُحمد به بعض خلقه، ومن ذلك ما يُحمد به بعضهم على ما جبَلَهم الله عليه

من صفات حسنة، وعلى ما وفَّقهم إليه من أعمال خير وإحسان، فحَمْدُهم إنما هو بسبب حمده تعالى، وهو أثر من آثاره، وهذا نظير ما يتّصف به بعض المخلوقين من العلم والرحمة والحكمة وغير ذلك؛ فكلّ ما اتصفوا به من هذه الصفات فهو من آثار علم الله ورحمته وحكمته، ويقال في سائر المعاني التي تطلق ألفاظها على الربّ تعالى وعلى بعض خلقه مثل ذلك.

وقد سمَّى الله تعالى نبيّه محمَّداً صلى الله عليه وسلم بهذا الاسم، لكثرة الصفات التي يُحمد عليها، فاتّصاف بعض المخلوقين بكونهم محمودين على بعض صفاتهم وأفعالهم هو كمثل اتّصافهم بالرحمة والعلم ونحوهما؛ يكون للمخلوقين من ذلك ما يُناسبهم، لكن نسبة حمدهم إلى حمده جلَّ وعلا كنسبة علمهم إلى علمه، ورحمتهم إلى رحمته.

فعلى المعنى الأول كلّ حمدٍ حقيقته أنه لله تعالى لأنه هو المانّ به، وهو من آثار حمده، فما أَعْطَى أحدٌ من خلقهِ شيئاً يُحمدُ عليه إلا مما أعطاه الله، ولا اتّصف أحدٌ من خلق الله بصفة يُحمد عليها إلا لأنَّ الله تعالى هو الذي جبله عليها وخلقه على تلك الصفة، ووفّقه لما اتصف به من السجايا والأخلاق الحميدة.

وأمّا الحمد على المعنى الثاني فهو مختصٌّ بالله تعالى لا يُطلق على غيره؛ لأنَّ معناه الحمد التامّ المطلق الذي لا يشوبه نقص ولا انقطاع، ولا تخلو منه ذرَّة من ذرَّات الكون؛ وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾، واقتران التسبيح بالحمد؛ لإفادة معنى التعظيم والتنزيه مع الحمد المشتمل على الحبّ والرضا.

فائدة: في أنواع التعريف بـ(ال):

ومما ينبغي لطالب علم التفسير معرفته أن التعريف بـ(ال) يرد لمعانٍ متعددة:

١. منها استغراق الجنس كما في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ أي: كلّ إنسان.

٢. ومنها: الكمال والتمام كما في قول الله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ وقوله: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.

٣. ومنها: الأولوية، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: «الحمو الموت»، وقوله: «ليس المسكين الذي يطوف على الناس ترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن به، فيتصدق عليه ولا يقوم فيسأل الناس».

٤. ومنها: **العهد**، والمراد به ما يعهده المخاطَب ويعرفه، **وهو على ثلاثة أنواع:**

أ: **عهد حضوري**، نحو: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ فهي شجرة يعهدها آدم ويعرفها بمقتضى الإشارة إليها.

ب: **وعهد ذِكْري**: نحو: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝١٥ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ أي الرسول الذي ذُكر في الآية التي قبلها.

ج: **وعهد ذهني**: وهو ما يعهده المخاطب في ذهنه لظهور العلم به نحو: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ المراد به القصة التي عرفوها فهي معهودة لهم في أذهانهم.

ومعرفة هذه الأنواع من مهمّات ما يحتاجه طالب علم التفسير، وكثيرا ما يكون مرجع الاختلاف بين أقوال المفسرين لاختلافهم في معنى التعريف.

ويقع بين هذه المعاني شيء من التداخل في بعض الأمثلة، ولها تفاصيل وأحكام تُبحث في علم أصول التفسير، وعلم معاني الحروف.

معنى اللام في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ﴾

اللام هنا للاختصاص على الراجح من أقوال أهل العلم؛ لأنَّ الحمدَ معنىً أُسند إلى ذاتٍ؛ لكن مما تحسن معرفته أن **الاختصاص يقع على معنيين:**

أحدهما: ما يقتضي الحصر، كما تقول: «الجنة للمؤمنين» أي لا يدخلها غيرهم.

والآخر: ما يقع على معنى الأولوية والأحقية، كما يقال: الفضل للمتقدّم، أي هو أولى به وأحقّ.

إذا تبيّن لك الفرق بين هذين المعنيين؛ فاعلم أنهما يتواردان على المعنيين المذكورين للحمد آنفاً؛ فإذا أريد المعنى الأول للحمد؛ فالاختصاص يفيد معنى الأولوية والأحقية.

وإذا أريد المعنى الثاني للحمد فالاختصاص يفيد معنى الحصر.

الفرق بين الحمد والشكر

مبحث الفرق بين الحمد والشكر من المباحث الاستطرادية، فالحمد هنا المراد به الذكر؛ أي: ما يحمد به العبد ربَّه، وهو أخص من المراد بالحمد في تفسير الآية.

لكن لمّا بحث المفسّرون هذه المسائل أحببت ذكر خلاصتها للفائدة.

فالفرق بين الحمد والشكر أنّ الحمد أعمّ من وجه، والشكر أعمّ من وجه آخر.

- فالحمد أعمّ؛ باعتبار أنه يكون على ما أحسن به المحمود، وعلى ما اتّصف به من صفات حسنة يُحمد عليها، والشكر أخصّ لأنه في مجازاة مقابل النعمة والإحسان.

- والشكر أعمّ من الحمد باعتبار أنّ الحمد يكون بالقلب واللسان، والشكر يكون بالقلب واللسان والعمل؛ كما قال الله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾.

وقد قال بهذا التفريق شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم في مواضع من كتبهما، ومن أجمع العبارات في ذلك قول ابن القيّم رحمه الله في "مدارج السالكين": (والفرق بينهما: أن الشكر أعم من جهة أنواعه وأسبابه، وأخص من جهة متعلقاته. والحمد أعم من جهة المتعلقات، وأخص من جهة الأسباب.

ومعنى هذا: أن الشكر يكون بالقلب خضوعا واستكانة، وباللسان ثناء واعترافا، وبالجوارح طاعة وانقيادا. ومتعلقه: النعم، دون الأوصاف

الذاتية، فلا يقال: شكرنا الله على حياته وسمعه وبصره وعلمه. وهو المحمود عليها. كما هو محمود على إحسانه وعدله، والشكر يكون على الإحسان والنعم.

فكل ما يتعلق به الشكر يتعلق به الحمد من غير عكس وكل ما يقع به الحمد يقع به الشكر من غير عكس. فإن الشكر يقع بالجوارح. والحمد يقع بالقلب واللسان)ا.هـ.

وقد ذهب ابن جرير الطبري والمبرّد وجماعة من أهل العلم إلى أن الحمد يطلق في موضع الشكر، والشكر يطلق في موضع الحمد، وأنه لا فرق بينهما في ذلك.

وهذا القول إنما يصحّ فيما يشترك فيه الحمد والشكر؛ وهو ما يكون بالقلب واللسان في مقابل الإحسان؛ فليُتنبَّه إلى ذلك.

الفرق بين الحمد والمدح

وبين الحمد والمدح عموم وخصوص أيضاً:

- فالمدح أعمّ من الحمد؛ باعتبار أن الحمد إنما يكون عن رضا ومحبة، والمدح لا يقتضي أن يكون كذلك؛ بل قد يمدح المرء من لا يحبّه طمعاً في نوال خيره أو كفّ شرّه.

وباعتبار آخر: وهو أن الحمد لا يكون إلا على اعتقاد حسن صفات المحمود أو إحسانه، والمدح قد يكون مدحاً على ما ليس بحسن؛ كما يمدح أهل الباطل بعض المفسدين بإفسادهم مع أن أمرهم غير محمود.

- **والحمد أعمّ من المدح** باعتبار أن المدح إنما يكون باللسان، والحمد يكون بالقلب واللسان.

فهذه خلاصة ما قيل في التفريق بين المدح والحمد، وقد قيل في هذه المسألة أقوال أخرى فيها نظر، بل بعضها خطأ محض فأعرضت عنها.

الفرق بين الحمد والثناء

والفرق بين الحمد والثناء من وجهين:

الأول: أن الثناء هو تكرير الحمد وتثنيته، ولذلك جاء في الحديث المتقدّم: «فإذا قال العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ③﴾، قال الله تعالى: أثنى علي عبدي..».

والتمجيد هو كثرة ذكر صفات المحمود على جهة التعظيم.

ولذلك قال في الحديث: «وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ④﴾، قال: مجدني عبدي».

والوجه الثاني: أن الحمد لا يكون إلا على الحُسْن والإحسان، والثناء يكون على الخير وعلى الشر، كما في الصحيحين من حديث عبد العزيز بن صهيب، قال: سمعت أنس بن مالك رضي الله عنه، يقول: مروا بجنازة، فأثنوا عليها خيرا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «وجبت» ثم مروا بأخرى فأثنوا عليها شرا، فقال: «وجبت».

فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما وجبت؟

قال: «هذا أثنيتم عليه خيرا، فوجبت له الجنة، وهذا أثنيتم عليه شرا، فوجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض».

معنى (الرَّبّ)

(الرَّبُّ) هو الجامع لجميع معاني الربوبية من الخلق والرزق والملك والتدبير والإصلاح والرعاية، فلفظ الربّ يطلق على هذه المعاني في لسان العرب إطلاقاً صحيحاً، وشواهد هذه المعاني مبثوثة في معاجم اللغة، ودلائل النصوص عليها ظاهرة بيّنة.

أنواع الربوبية:

وربوبية الله تعالى لخلقه على نوعين:

النوع الأول: ربوبية عامة بالخلق والملك والإنعام والتدبير، وهذه عامة لكل المخلوقات.

والنوع الثاني: ربوبية خاصة لأوليائه جل وعلا بالتربية الخاصة والهداية والإصلاح والنصرة والتوفيق والتسديد والحفظ.

والله تعالى هو الرب بهذه الاعتبارات كلها.

معنى (العالمين):

العالمون جمع عالَم، وهو اسم جمعٍ لا واحد له من لفظه، يشمل أفراداً كثيرة يجمعها صِنْفٌ واحد.

فالإنس عالَم، والجنّ عالَم، وكلّ صنف من الحيوانات عالَم، وكلّ صنف من النباتات عالم، إلى غير ذلك مما لا يحصيه إلا الله تعالى من عوالم الأفلاك والملائكة والجبال والرياح والسحاب والمياه، وغيرها من العوالم الكثيرة والعجيبة.

وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ٣٨﴾.

فكلُّ أمّة من هذه الأمم عالَم.

قال ابن جرير: (والعالمون جمع عالِمٍ، والعالم جمعٌ لا واحد له من لفظه، كالأنام والرّهط والجيش ونحو ذلك من الأسماء الّتي هي موضوعاتٌ على جماعٍ لا واحد له من لفظه) ا.هـ.

ثمَّ كلُّ صنفٍ من هذه العوالم ينقسم إلى عوالَم في كلّ قرن؛ فأهل كلّ قرن من ذلك الصنف عالَم كما قال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧﴾.

قال ابن كثير: (والعالم جمعٌ لا واحد له من لفظه، والعوالم أصناف المخلوقات في السّماوات والأرض في البرّ والبحر، وكلّ قرنٍ منها وجيلٍ يسمّى عالمًا أيضًا) ا.هـ.

معنى ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾:

وربوبيّة الله تعالى للعالمين ربوبيّة عامّة على ما تقدّم بيانه من معاني الربوبية.

- فهو تعالى ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ الذي خلق العوالم كلّها كبيرها وصغيرها على كثرتها وتنوعها وتعاقب أجيالها.

وفي هذه العوالم أممٌ لا يحصيها إلا من خلقها، وفي كل مخلوق من هذه المخلوقات دقائق وعجائب في تفاصيل خلقه تبهر العقول، أنشأها ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ من العدم على غير مثال سابق؛ فيستدل المتفكّر في شأنها بما تبيَّن له من تلك العجائب على حكمة خالقها جل وعلا وسعة علمه، وعظيم قدرته، فتبارك الله رب العالمين.

- وهو ربُّ العالمين المالك لكلِّ تلك العوالم فلا يخرج شيء منها عن ملكه، وهو الذي يملك بقاءها وفناءها، وحركاتها وسكناتها، فيبقيها متى شاء، ويفنيها إذا شاء، ويعيدها إذا شاء.

- وهو ربّ العالمين الذي دبَّر أمرها، وسيّر نظامها، وقدّر أقدارها، وساق أرزاقها، وأعطى كلّ شيء خلقه ثمّ هدى.

- وهو ربّ العالمين الذي له الملك المطلق والتصرّف التامّ، فما يقضيه فيها نافذ لا مردّ له، وما يريد به أحدا من خلقه من نفع أو ضرّ فلا حائل بينه وبينه، بل لا تملك جميع المخلوقات لنفسها نفعاً ولا ضراً إلا بإذنه جل وعلا.

- وهو ربّ العالمين الذي لا غنى للعالمين عنه، ولا صلاح لشؤونهم إلا به، كلّ نعمة ينعمون بها فإنما هي من فضله وعطائه، وكلّ سلامة من شرّ

وضرٍّ فإنما هي بحفظه ورعايته وإذنه، فهم الفقراء إليه فقراً دائماً متّصلاً، وهو الغنّي الحميد.

- وهو ربّ العالمين الذي دلّت ربوبيّته للعالمين على كثير من أسمائه الحسنى وصفاته العليا، فلا يرتاب الموفَّق في بديع خلقه، وعجائب حكمته، وسَعَة مُلْكه، وشدّة قوّته، وتمام غناه، وعظمة مجده، وإحاطته بكل شيء، وقدرته على كلّ شيء، إلى غير ذلك من الصفات التي يدلّ عليها التفكّر في خلق الله تعالى وربوبيّته للعالمين.

- وهو تعالى ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢﴾ المستحقّ لأن يعبدوه وحده لا شريك له، وأن لا يجعلوا معه إلهاً آخر، كما أنهم لم يكن لهم ربٌّ سواه، ولهذا قال تعالى: ﴿ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾؛ فاحتجّ على توحيد العبادة باسم الربوبية.

والمقصود أنّ تأمُّلَ معاني الربوبية والتفكر في آثارها في الخلق والأمر يورث اليقين بوجوب التوحيد، وأنَّ العالم لا صلاح له إلا بأن يكون ربه واحدا، كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٢٢﴾ وقال: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٩١﴾.

أقوال العلماء في المراد بالعالمين:

كان ما تقدّم من التفسير مبناه على اعتماد القول الراجح، إلا أنه ينبغي لطالب علم التفسير أن يكون على معرفة بأقوال العلماء في هذه المسألة، وأن يعرف سبب الاختلاف، ومآخذ الأقوال وحججها وأحكامها.

ومن ذلك أن المفسّرين اختلفوا في المراد بالعالمين في هذه الآية على أقوال كثيرة أشهرها قولان صحيحان:

القول الأول: المراد جميع العالَمِين، على ما تقدّم شرحه، وهو قول أبي العالية الرياحي، وقتادة، وتبيع الحميري، وقال به جمهور المفسّرين.

والقول الثاني: المراد بالعالمين في هذه الآية: الإنس والجنّ، وهذا القول مشتهر عن ابن عباس رضي الله عنهما وأصحابه سعيد بن جبير، ومجاهد بن جبر، وعكرمة، وروي أيضاً عن ابن جريج.

وقد رواه ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما من طرق عن قيس بن الربيع، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قول الله عزّ وجلّ: ﴿رَبِّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ ۝٢﴾ قال: (ربّ الجنّ والإنس).

وقيس بن الربيع الأسدي مختلف فيه، كان شعبة يُثني عليه، وقال عفّان: ثقة، وليَّنه الإمام أحمد، وقال ابن معين: ليس بشيء، وقال النسائي: متروك.

وقد كان محمودَ الأمر لكنّه تولّى منصباً فساء حفظه ووقع في حديثه ما يُنكر.

قال محمد بن عبيد: (لم يكن قيس عندنا بدون سفيان، ولكنه استُعمل، فأقام على رجل الحدّ فمات، فطفى أمره).

والأقرب فيمن كان في مثل حاله أنه لا يقبل تفرّده، لكن هذا القول تعددت رواياته عن أصحاب ابن عباس؛ فروي عن سعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة بأسانيد لا تخلو من مقال، لكن تعدد الروايات وتظافرها على هذا القول مع اختلاف مخارجها دليل على أنَّ هذا القول محفوظ عن أصحاب ابن عباس.

وقد استُدلّ له بقول الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾، والمراد بهم هنا المكلّفون من الإنس والجن.

وهذا القول صحيح المعنى والدلالة، وبيان ذلك بالجمع بين أمرين:

أحدهما: أن يكون التعريف في (العالمين) للعهد الذهني، وليس للجنس؛ فيكون هذا اللفظ من العامّ الذي أريد به الخصوص.

والآخر: أن يكون لفظ (ربّ) بمعنى (إله)؛ كما في حديث سؤال العبد في قبره: من ربّك؟ أي: من إلهك الذي تعبده؟

فلفظ (الربّ) من معانيه (الإله المعبود)، والله تعالى هو (الربّ) وهو (الإله)، وما عبد من دون الله فليس بإلهٍ على الحقيقة، وليس برب على الحقيقة، وإنما اتُّخِذَ رباً، واتُّخِذَ إلها، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا﴾ وقوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

قال عدي بن حاتم: «**يا رسول الله إنا لسنا نعبدهم**» ... الحديث، ففهم عَديٌّ رضي الله عنه من هذا اللفظ معنى العبادة، لأن اتخاذ الشيء رباً معناه عبادته، إذ الربوبية تستلزم العبادة.

وقال شاعر جاهليّ كان يعبد صنماً فرأى ثعلباً يبول على رأس صنمه؛ فقال:

أرَبٌّ يبول الثُّعلبانُ برأسه ... لقد ذلّ من بالت عليه الثّعالبُ

والثعلبان: ذكر الثعالب.

فتبيَّن أن هذا القول المروي عن ابن عباس وأصحابه صحيح في نفسه، ولعلّ الصارف لهم إلى هذا المعنى اعتبار الخطاب للمكلّفين الذين هم الإنس والجنّ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾؛ فهم أولى من يراد بلفظ العالمين؛ لأنهم المكلفون بالعبادة.

فهذا توجيه هذا القول، لكن القول الأوّل أعمّ منه، وله دلالة صحيحة ظاهرة، وهو قول جمهور المفسّرين.

والخلاف في بعض أوجه التفسير الصحيحة كالخلاف في القراءات الصحيحة؛ فيجوز أن يستحضر القارئ أحد المعاني عند قراءته إذا لم يمكن الجمع بينها.

وفي هذه المسألة قول ثالث: وهو أن المراد بالعالمين «أصناف الخلق الرّوحانيّين، وهم الإنس والجن والملائكة، كلّ صنف منهم عالم»، وهذا قول ابن قتيبة الدينوري ونصّ عبارته في كتابه «تفسير غريب القرآن».

وهذا القول نسبه الثعلبي إلى أبي عمرو بن العلاء من غير إسناد، وعلى معنى آخر.

قال الثعلبي: (وقال أبو عمرو بن العلاء: هم الروحانيون، وهو معنى قول ابن عباس: كل ذي روح دبّ على وجه الأرض)ا.هـ.

ولا يصحّ هذا القول عن أبي عمرو بن العلاء، ولا ما ذكره الثعلبي عن ابن عباس.

وابن قتيبة قد اضطرب قوله في هذه المسألة في كتبه، ودعوى تخصيص المراد من غير حُجَّة معتبرة يُستند إليها دعوى باطلة.

وقد ذكر الثعلبي في هذه المسألة أقوالاً أخرى ضعيفة، وتبعه على ذكرها بعض المفسّرين، وقد أعرضت عنها لضعفها.

قال شيخ مشايخنا محمد الأمين الشنقيطي(ت:١٣٩٣هـ) رحمه الله في تفسير سورة الفاتحة: (قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢﴾ لم يبين هنا ما العالمون، وبين ذلك في موضع آخر بقوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾).

وهذا من أحسن ما يُستدلّ به على ترجيح القول الأول.

تفسير قول الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾:

تقدّم بيان معنى الاسمين الجليلين، وتضمّنهما صفة الرحمة، وبيان التناسب بين الاسمين، والحكمة من اقترانهما، وبيان أنواع الرحمة.

الحكمة من تكرار ذكر ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ بعد ذكرهما في البسملة:

تكلّم في هذه المسألة بعض المفسّرين، وقد اختلفوا في ذلك على أقوال:

القول الأول: أنه لا تكرارَ هنا لأن البسملة ليست آية من الفاتحة، وهذا قول ابن جرير.

وهذا القول يعترض عليه من وجهين:

أحدهما: أنّ اختيار المفسّر لأحد المذاهب في العدّ لا يقتضي بطلان المذاهب الأخرى، كما أنّ اختياره لإحدى القراءتين لا يقتضي بطلان الأخرى.

والوجه الآخر: أنَّ المسألة باقية على حالها حتى على اختياره؛ إذ لا إنكار على من قرأ البسملة قبل الفاتحة ولو لم يعدَّها آية من الفاتحة.

والقول الثاني: التكرار لأجل التأكيد، وهذا القول ذكره الرازي في تفسيره، قال: (التكرار لأجل التأكيد كثير في القرآن، وتأكيد كون الله تعالى رحمانا رحيما من أعظم المهمات).

والقول الثالث: التكرار لأجل التنبيه على علّة استحقاق الحمد، وهذا القول ذكره البيضاوي.

وهذان القولان مستندهما الاجتهاد بالنظر في التماس الحكمة من التكرار، ولا أعلم عن السلف قولاً في هذه المسألة، وهذا مشعرٌ بأن المسألة لم تكن مشكلة عند السلف؛ لكن لمَّا أثير السؤال كان لا بدَّ من الجواب عليه.

وهذا النوع من الأسئلة يرتّب الجواب فيه على مراتب:

المرتبة الأولى: النظر في الأقوال المأثورة إن وجدت؛ فإن لم يجد المفسّر قولاً مأثوراً صحيحاً في هذه المسألة انتقل إلى **المرتبة الثانية**: وهي النظر في سياق الكلام، وهو أصلٌ مهمّ في الجواب عن مثل هذه الأسئلة؛ فإن أعياه ذلك انتقل إلى **المرتبة الثالثة**: وهي النظر في مقاصد الآيات.

فإن لم يتبيّن له الجواب توقَّف، ووكل الأمر إلى عالمه.

وفي هذه المسألة يكشف السياق عن مقصد تكرار ذكر الاسمين في هذين الموضعين.

فالموضع الأول: البسملة، وغرضها الاستعانة بالله تعالى والتبرّك بذكر اسمه واستصحابه على تلاوة القرآن وتدبّره وتفهّمه والاهتداء به؛ فيكون لذكر هذين الاسمين في هذا الموضع ما لا يخفى من المناسبة، وأن التوفيق لتحقيق هذه المقاصد إنما يكون برحمة الله تعالى، والتعبّد لله تعالى بذكر هذين الاسمين مما يفيض على قلب القارئ من الإيمان والتوكّل ما يعظم به رجاؤه لرحمة ربّه، وإعانته على تحقيق مقاصده من التلاوة.

والموضع الثاني: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ جاء فيه ذكر هذين الاسمين بعد ذكر حمد الله تعالى وربوبيّته العامّة للعالمين؛ فيكون لذكر الاسمين في هذا الموضع ما يناسب من معاني رحمة الله تعالى وسعتها لجميع العالمين، وأنَّ رحمته وسعت كلّ شيء، وأنه تعالى عظيم الرحمة كثير الرحمة فيكون ذكر هذين الاسمين من باب الثناء على الله تعالى تقدمة بين يدي مسألته التي سيسألها في هذه السورة.

وإذا ظهر الفرق بين مقصد ذكر هذين الاسمين في البسملة، وبين ذكرهما بعد الحمد؛ ظهر للمتأمّل معنى جليل من حكمة ترتيب الآيات على هذا الترتيب البديع المحكَم.

وقد أساء من حَمَل على من يعدّ البسملة آية من الفاتحة؛ بأنه لو كانت الآية من الفاتحة لكان تكرار هذين الاسمين لغوا لا معنى له، وهذه زلّة لا ينبغي أن تصدر من مؤمن، واختيار المرء قراءة من القراءات أو مذهباً من مذاهب العدّ لا يسوّغ له الطعن في غيره مما صحّ عند أهل ذلك العلم، بل تُعتقد صحّة الجميع، والاختيار فيه سعة ورحمة، ويدخله الاجتهاد.

الباب الثامن: تفسير قول الله تعالى:

﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾

بيان مقصد الآية

مقصد هذه الآية تمجيد الله تعالى والتفويض إليه؛ كما صحَّ في الحديث القدسي المتقدّم ذكره؛ فقد وردت فيه الروايتان في صحيح مسلم:

فأمَّا تمجيد العبد لربّه بذكر ملكه ليوم الدين فتدلّ عليه لوازم هذا الوصف العظيم ودلائله الباهرة؛ التي تدلّ على عظمة ملكه تعالى، وكثرة جُنده، وكمال قوّته، وقهره لعباده، وقدرته على بعثهم بعد موتهم، وسعة علمه فلا يعزب عنه شيء، وإحاطته بكلّ شيء، وإحصائه أعمال عباده، وسرعة حسابه ومجازاته إياهم، وعدله في جزائه، ورحمته وإحسانه لأوليائه، وعزَّته وشدّة انتقامه من أعدائه، وحكمته الباهرة في موافقة الجزاء للعمل، وقدرته على توفية كلّ عاملٍ جزاءه، إلى غير ذلك من المعاني العظيمة، والصفات الجليلة الباهرة؛ التي هي من أظهر معاني تمجيد الله تعالى.

وأمَّا التفويض إلى الله تعالى فيدّل عليه تلاشي كلّ ملك دون ملك الله تعالى، واضمحلال قدرة كلّ أحد على أن يملك لنفسه أو لأحد غيره شيئاً، فلم يبق إلا التفويض لله تعالى، وهذا المعنى كما دلَّ عليه لازم معنى الآية، ونصّ الحديث القدسي، دلَّ عليه أيضاً قول الله تعالى في سورة الانفطار: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩﴾.

فيوم الدين هو يوم التفويض التامّ إلى الله تعالى من الخلق كلّهم برّهم وفاجرهم ﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾.

والمؤمن إذا تلا هذه الآية معتقداً معانيها عالماً بمقاصدها هداه ذلك إلى تمجيد الله تعالى والتفويض إليه؛ فينفعه هذا التمجيد والتفويض يوم يلقى ربَّه في ذلك اليوم العظيم.

القراءات في الآية

في هذه الآية قراءتان سبعيتان متواترتان:

الأولى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ بإثبات الألف بعد الميم، وهي قراءة عاصم والكسائي.

والثانية: ﴿مَلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ بحذف الألف، وهي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو بن العلاء وحمزة وابن عامر.

بيان معنى القراءتين

أمَّا المَلِك فهو ذو المُلك، وهو كمال التصرّف والتدبير ونفوذ أمره على من تحت ملكه وسلطانه.

وإضافة المَلِك إلى يوم الدين [ملك يوم الدين] تفيد الاختصاص؛ لأنه اليوم الذي لا مَلِكَ فيه إلا الله؛ فكلّ موك الدنيا يذهب ملكهم وسلطانهم، ويأتونه كما خلقهم أوَّل مرة مع سائر عباده عراة حفاة غرلاً؛ كما قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝١٦﴾.

وأمّا المالك فهو الذي يملِكُ كلَّ شيء يوم الدين، فيظهر في ذلك اليوم عظمة ما يَـمْلِكه جلّ وعلا، ويتفرّد بالمِلك التامّ فلا يملِك أحدٌ دونه شيئاً إذ يأتيه الخلق كلّهم فرداً فرداً لا يملكون شيئاً، ولا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، ولا يملك بعضهم لبعضٍ شيئاً ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾.

فالمعنى الأولّ صفة كمال فيه ما يقتضي تمجيد الله تعالى وتعظيمه والتفويض إليه، والمعنى الثاني صفة كمال أيضاً وفيه تمجيد لله تعالى وتعظيم له وتفويض إليه من أوجه أخرى، والجمع بين المعنيين فيه كمال آخر وهو اجتماع المُلك والمِلك في حقّ الله تعالى على أتمّ الوجوه وأحسنها وأكملها؛ فإذا كان من الناس من هو مَلِكٌ لا يملِك، ومنهم من هو مالكٌ لا يملُك، فالله تعالى هو المالك الملِك، ويوم القيامة يضمحلّ كلّ مُلك دون ملكه، ولا يبقى مِلكٌ غير مِلكه.

المراد بـ«يوم الدين»

هذه الآية يفسّرها قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾.

فالمراد بيوم الدين هنا هو يوم القيامة، من غير خلاف بين المفسّرين، وسمّي يوم الدين لأنه يومٌ يُدان الناس فيه بأعمالهم، أي يجازون ويحاسبون، كما قال الله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ أي جزاءهم الذي يستحقونه.

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾﴾ أي الجزاء كائن لا بدّ منه.

قال قتادة في قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾ قال: «يوم يدين الله العباد بأعمالهم» رواه عبد الرزاق وابن جرير.

معنى الإضافة في ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾

الإضافة في مالك يوم الدين لها معنيان:

المعنى الأول: إضافة على معنى (في) أي هو المالك في يوم الدين؛ ففي يوم الدين لا يملك أحد دونه شيئاً.

والمعنى الثاني: إضافة على معنى اللام، أي هو المالك ليوم الدين.

قال ابن السراج: (إن معنى مالك يوم الدين: أنه يملك مجيئه ووقوعه). ذكره أبو حيان.

وكلا الإضافتين تقتضيان الحصر، وكلاهما حقّ، والكمال الجمع بينهما.

والله تعالى أعلم، وصلى الله على نبيّنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم

الباب التاسع: تفسير قول الله تعالى:
﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾

تفسير قول الله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾

• مقصد الآية

فيما تقدم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلّم: «فإذا قال [أي: العبد]: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ قال [الله]: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل».

فهذه الآية قسمها الله تعالى بينه وبين عبده:

فقسمها الأوَّل: حقّه جلّ وعلا، وهو إفراده بالعبادة.

وقسمها الآخر: سؤال العبد الإعانةَ من الله وحده دون ما سواه.

فمن قام بحقّ الله تعالى في القسم الأول أعطاه الله ما سأله في القسم الآخر.

وقد اشتملت هذه الآية على:

١. التبرؤ من كلّ معبود يُعبد من دون الله تعالى؛ ففيها معنى «لا إله إلا الله».

٢. والتبرؤ من الاستعانة بغيره جلّ وعلا؛ وذلك مستلزم للإيمان بقدرته تعالى على الإعانة؛ ففيها معنى «لا حول ولا قوّة إلا بالله».

فإخلاص العبادة يستلزم الكفر بكلّ ما يُعبد من دون الله تعالى، وأن يكون القلب سليماً لله تعالى ليس فيه تعلّق بغيره.

وإخلاص الاستعانة يستلزم التوكّل على الله تعالى، وتفويض الأمور إليه، ورجاء عونه وتوفيقه.

قال ابن كثير رحمه الله: (الدّين يرجع كلّه إلى هذين المعنيين، وهذا كما قال بعض السّلف: الفاتحة سرّ القرآن، وسرّها هذه الكلمة: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾ فالأوّل تبرّؤٌ من الشّرك، والثّاني تبرّؤٌ من الحول والقوة، والتفويض إلى الله عزّ وجلّ. وهذا المعنى في غير آيةٍ من القرآن، كما قال تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٢٣﴾، ﴿قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَا﴾ ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ٩﴾، وكذلك هذه الآية الكريمة: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾)ا.هـ.

وقال ابن القيّم رحمه الله: (كثيراً ما سمعت شيخ الإسلام -قدس الله روحه- يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ تدفع الرياء، ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾ تدفع الكبرياء)ا.هـ.

• معنى قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾:

أي نُخلِص لك العبادة؛ فنطيع أوامرك محبّة وخوفاً ورجاء خاضعين مستكينين لك وحدك لا شريك لك.

والعِبادةُ هي: التَّذلُّل والخُضوعُ والانقيادُ مع شدَّةِ المحبَّةِ والتعظيمِ.

• بيان معنى العبادة في اللغة

قال ابن جرير رحمه الله: (العبودية عندَ جميع العرب أصلُها الذلّة، وأنها تسمي الطريقَ المذلَّلَ الذي قد وَطِئته الأقدام، وذلّلته السابلة (معبَّدًا)).

قال: (ومن ذلك قول طَرَفَة بن العَبْد:

تُبَارِي عِتَاقًا نَاجياتٍ وأَتْبَعت ... وَظِيفًا وظيفًا فوق مَوْرٍ مُعَبَّدِ

يعني بالمَوْر: الطريق، وبالمعبَّد: المذلَّل الموطوء، ومن ذلك قيل للبعير المذلّل بالركوب في الحوائج: معبَّد، ومنه سمي العبْدُ عبدًا لذلّته لمولاه) ا.هـ.

وقال أبو منصور الأزهري: (ومعنى العبادة في اللغة: الطاعة مع الخضوع، ويقال طريقٌ مُعَبَّدٌ إذا كان مذلَّلا بكثرة الوطء)ا.هـ.

ويشهد لما ذكره أبو منصور ما أنشده الخليل في العين لمن لم يسمّه:

تَعبَّدَني نِمْرُ بن سعدٍ وقد أُرى ... ونمر بن سعدٍ لي مطيع ومُهْطِعُ

فهذا تعريف لها باعتبار أصل معناها الملازم لها، واعتبار هذا المعنى مهم.

• بيان معنى العبادة شرعاً

والعبادة في الشرع لها تعريفات متعددة ذكرها أهل العلم، وقد سلكوا مسالك في تعريفها، ومن أحسنها تعريف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في رسالة (العبودية)؛ إذ قال رحمه الله تعالى: (العبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة)ا.هـ.

قوله: (من الأعمال والأقوال) هذا قيد يخرج الأشخاص والأمكنة والأزمنة التي يحبها الله فلا توصف بأنها عبادة، لأن العبادة تتعلق بما يُتعبَّد به.

وتعريف شيخ الإسلام للعبادة حسن بديع، وهو وصف جامع مانع للعبادات الشرعية، وأما العبادات الشركية والبدعية فلا يشملها هذا التعريف لأن الله تعالى لا يحبها ولا يرضاها ولا يقبلها، وإن كانت داخلةً في اسم العبادة لغة؛ لأن كلَّ ما يُتقرَّب به إلى المعبود فهو عبادة؛ كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾؛ فسمَّى ما يفعلونه عبادة، وقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» رواه مسلم.

فالعبادات الشركية والبدعية وإن كان يشملها اسم العبادة لغة وحقيقة من جهة كونها صادرة عن تذلل وخضوع للمعبود، لكنها عبادات باطلة عند الله؛ فمن عبد اللهَ عبادةً غير خالصة له فهي مردودة عليه، وكذلك من عبد الله بعبادة لم يأذن الله بها فهي مردودة عليه.

فتعريف شيخ الإسلام للعبادة تعريف بالحدّ الرسميّ لغرض بيان ما يشمله اسم العبادة الشرعية، وتعريف ابن جرير وأبي منصور للعبادة تعريف بالحد الحقيقي لغرض بيان ماهية العبادة وحقيقتها؛ فهي لا تكون إلا بتذلل وخضوع.

ويصحب هذه الذلة في العبادات الشرعية التي أمر الله بها ثلاثة أمور: المحبة، والانقياد، والتعظيم.

والعبادةُ تكونُ بالقلبِ واللسانِ والجوارحِ، وقد أمَرَ اللهُ تعالى بإخلاصِ العبادةِ له وَحْدَه لا شَريكَ له؛ قال اللهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٥﴾.

وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ١١﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥﴾.

• **فوائد تقديم المفعول ﴿إِيَّاكَ﴾:**

تقديم المفعول ﴿إِيَّاكَ﴾ على الفعل ﴿نَعۡبُدُ﴾ فيه ثلاث فوائد جليلة:

إحداها: إفادة الحصر؛ وهوَ إثباتُ الحكم للمذكورِ ونفيهُ عما عداهُ؛ فكأَنَّهُ يقولُ: نعبدكَ، ولا نعبدُ غيركَ، أوقولَ: (لا نعبد إلا إيَّاك)؛ مع اختصار اللفظ وعذوبته.

ومما يوضّح هذا المعنى قول الله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٤٠ بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ ٤١﴾.

﴿بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ﴾ ظاهر في أنّ هذا التركيب يفيد الحصر، أي: تدعونه وحده ولا تدعون غيره مما كنتم تشركون بهم.

والثانية: تقديم ذكر المعبود جلَّ جلاله.

والثالثة: إفادة الحرص على التقرّب؛ فهو أبلغ من (لا نعبد إلا إياك).

وكنت قد لخّصت هذه الأوجه من كلام المفسّرين في كتب التفسير ثمّ وجدتُ ابن القيّم قد أحسن جمعها والبيان عنها في كتابه "مدارج السالكين" فقال: (وأما تقديم المعبود والمستعان على الفعلين، ففيه: أدبهم مع الله بتقديم اسمه على فعلهم، وفيه الاهتمام وشدة العناية به، وفيه الإيذان بالاختصاص، المسمى بالحصر، فهو في قوة: لا نعبد إلا إياك، ولا نستعين إلا بك، والحاكم في ذلك ذوق العربية والفقه فيها، واستقراء موارد استعمال ذلك مقدما، وسيبويه نص على الاهتمام، ولم ينف غيره) ا.هـ.

• معنى قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾:

أي نستعينك وحدك لا شريك لك على إخلاص العبادة لك؛ فإنا لا نقدر على ذلك إلا بأن تعيننا عليه، ونستعينك وحدَك على جميع أمورنا؛ فإنّك إن لم تعنّا لم نقدر على جلبِ النفعِ لأنفسنا ولا دفع الضرّ عنها.

• فائدة حذف متعلَّق الاستعانة

المراد بمتعلَّق الاستعانة ما يُستعان الله تعالى عليه، فهھنا استعانة ومستعان به ومستعان عليه؛ فالاستعانة فعل العبد، والمستعان به هو الله، والمستعان عليه لم يُذكر في هذه الآية ولذلك تكلم العلماء في بيان متعلَّق الاستعانة هنا، **وحاصل ما قالوه يرجع إلى معنيين:**

أحدهما: نستعينك على عبادتك؛ لتقدّم ذكرها.

والمعنى الآخر: نستعينك على قضاء حوائجنا، وجميع شؤوننا؛ فلا غنى لنا عن عونك وإمدادك.

والصواب الجمع بين المعنيين؛ إذ كلاهما حقّ، فالأوَّل طلب الإعانة على أداء حقّ الخالق جلّ وعلا، والآخر طلب الإعانة على ما يحتاجه المخلوق.

وقد روى الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما ما يفيد الجمع بين المعنيين؛ فقال في قوله تعالى: «﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ **على طاعتك وعلى أمورنا كلّها**». أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم.

وحذف متعلّق الاستعانة هنا يفيد عمومَ ما يُستعان بالله عليه؛ ليشملَ كلَّ ما يحتاج العبد فيه إلى عون ربّه لجلب نفع أو دفع ضرّ في دينه ودنياه أو دوام نعمة قائمة، أو دوام حفظ من شرّ، فكلّ ذلك مما لا يناله العبد إلا بعون ربّه جلّ وعلا.

• بيان معنى الاستعانة

الاستعانة هي طلب العون؛ والاعتماد على المستعان به في جلب المنافع ودفع المضارّ.

والاستعانة أوسع معاني الطلب، وإذا أطلقت دلَّت على معنى الاستعاذة والاستغاثة؛ لأنَّ حقيقة الاستعاذة: طلب الإعانة على دفع مكروه، وحقيقة: الاستغاثة: طلب الإعانة على تفريج كربة.

فالاستعانة بمعناها العام تشمل الدعاء والتوكل والاستعاذة والاستغاثة والاستهداء والاستنصار والاستكفاء وغيرها؛ لأن كل ما يقوم به العبد من قول أو عمل يرجو به تحصيلَ منفعة أو دفع مفسدة فهو استعانة.

وحاجة العبد إلى الاستعانة بالله تعالى لا تعدلها حاجة، بل هو مفتقر إليه في جميع حالاته؛ فهو محتاج في كل أحواله إلى الهداية والإعانة عليها،

ومحتاج إلى تثبيت قلبه على الحق، ومغفرة ذنبه وستر عيبه وحفظه من الشرور والآفات وقيام مصالحه.

والعبدُ حارثٌ همَّامٌ يجد في قلبه كلَّ وقت مطلوباً من المطلوبات يحتاج إلى الإعانة على تحقيقه، والله تعالى هو المستعان الذي بيده تحقيق النفع ودفع الضر، فلا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يدفع السيئات إلا هو سبحانه.

فلا يحصل لعبدٍ من عباد الله نفعٌ في أمر من أمور دينه ودنياه إلا بالله جل وعلا، فهو المستعان وحده على كل ذلك.

وكل سبب من الأسباب التي يبذلها العبد لتحقيق النفع أو دفع الضر لا يستقل بالمطلوب، فلا يوجد سبب مستقل بالمطلوب، بل لا بد أن يكون معه سبب مساعد ولا بد معه أيضاً من انتفاء المانع، ولا يكون كلُّ ذلك إلا بإذن الله جل وعلا.

فمن أبصر هذا حقيقةً أسلمَ قلبَه لله جل وعلا، وعَلِمَ أنه لا يكون إلا ما يشاء الله، وأن ما يطلبه من خير الدنيا والآخرة لا يناله إلا بإذن الله وهدايته ومشيئته، وأن لنيل ذلك أسباباً هدى الله إليها وبيَّنها.

ومن كان على يقين بهذه الحقيقة قامَت في قلبه أنواعٌ من العبودية لله جل وعلا من المحبة والرجاء والخوف والرغب والرهب والتوكل وإسلام القلب له جل وعلا والثقة به وإحسان الظن به.

ويجعل الله في قلب المؤمن بسبب هذه العبادات العظيمة من السكينة والطمأنينة والبصيرة ما تطيب به حياته وتندفع به عنه شرور كثيرة وآفات مستطيرة.

• تحقيق الاستعانة

تحقيق الاستعانة يكون بأمرين:

- **أحدهما**: التجاء القلب إلى الله تعالى بصدق طلب العون منه، وتفويض الأمر إليه، والإيمان بأن النفع والضر بيده جل وعلا، لا يخفى عليه شيء، ولا يعجزه شيء.

- **والآخر**: اتّباع هدى الله تعالى ببذل الأسباب التي أرشد إليها وبينها، فيبذل في كل مطلوب ما أذن الله تعالى به من الأسباب.

وقد جمع النبي صلى الله عليه وسلم هذين الأمرين بقوله: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز». رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

«احرص على ما ينفعك» في أمور دينك ودنياك.

«واستعن بالله» أي: اطلب عونه لتحقيق ما ينفعك.

«ولا تعجز» لأنَّ العجز هو: ترك بذل السبب مع إمكانه.

فتبيَّن بذلك أنَّ من يترك بذل السبب الممكن غير محقّقٍ للاستعانة.

ومن حقّق الاستعانة أعانه الله، والله لا يخلف وعده.

• أقسام الاستعانة

الاستعانة على قسمين:

القسم الأول: استعانة العبادة، وهي الاستعانة التي يصاحبها معانٍ تعبدية تقوم في قلب المستعين من المحبة والخوف والرجاء والرغب والرهب فهذه عبادة لا يجوز صرفها لغير الله عز وجل، ومن صرفها لغيره فهو مشرك كافر، وهي الاستعانة التي أوجب الله تعالى إخلاصها له جلَّ وعلا، كما قال الله تعالى فيما علّمه عباده المؤمنين: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾؛ وتقديم المعمول يفيد الحصر، فيستعان بالله جل وعلا وحده، ولا يستعان بغيره، وقال النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس: «وإذا استعنت فاستعن بالله» رواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

والاستعانة ملازمة للعبادة فكل عابد مستعين؛ فإنه لم يعبد إلهه إلا ليستعين به على تحقيق النفع ودفع الضر.

القسم الثاني: استعانة التسبب، وهو بذل السبب رجاء نفعه في تحصيل المطلوب مع اعتقاد أن النفع والضر بيد الله جل وعلا، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

فهذه الاستعانة ليست بعبادة لخلوّها من المعاني التعبّدية، وهي كما يستعين الكاتب بالقلم على الكتابة؛ وكما يستعين على معرفة الحق بسؤال أهل العلم.

استعانة التسبب حكمها بحسب حكم السبب وحكم الغرض فإذا كان الغرض مشروعاً والسبب مشروعاً كانت الاستعانة مشروعة، وإذا

كان الغرض محرماً أو كان السبب محرماً لم تجز تلك الاستعانة، فإن تعلق القلب بالسبب كان ذلك شركاً أصغر من شرك الأسباب.

إذا تبيَّن ذلك فاعلم أنَّ قول الله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ وقول النبي صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب لمّا أعطاه عطيَّة: «استعن بها على دنياك ودينك» رواه ابن خزيمة.

وحديث قابوس بن المخارق عن أبيه، قال: أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم رجلٌ فقال: يا رسول الله، الرجل يأتيني يريد مالي، قال: «ذكّره بالله».

قال: فإن لم يذكر الله؟

قال: «استعن بمن حولك من المسلمين».

قال: فإن لم يكن حولي أحد؟

قال: «فاستعن عليه بالسلطان».

قال: فإن نأى عني السلطان؟

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فقاتل دون مالك حتى تكون من شهداء الآخرة أو تمنع مالك» رواه ابن أبي شيبة والنسائي.

فهذه النصوص وما في معناها المراد بالاستعانة فيها استعانة التسبّب، وأمّا استعانة العبادة فلا يجوز أن تصرف لغير الله تعالى.

• أقسام الناس في العبادة والاستعانة

الناس في العبادة والاستعانة على أقسام:

- فأفضلهم الذين أخلصوا العبادة والاستعانة لله تعالى؛ فكانوا من أهل ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾، وهم على درجات لا يحصيهم إلا من خلقهم؛ لأن المسلمين يتفاضلون في إخلاص العبادة وفي الاستعانة تفاضلاً كبيراً؛ ومن أحسن في هذين العملين فهو سابق بالخيرات بإذن ربه.

- وقد يقع لدى بعض المسلمين تفريط وتقصير في إخلاص العبادة والاستعانة؛ فيحصل لهم بسبب ذلك آفات وعقوبات.

فالتقصير في إخلاص العبادة تحصل بسببه آفات عظيمة تحبط العمل أو تنقص ثوابه كالرياء والتسميع وابتغاء الدنيا بعمل الآخرة، وأخف من هؤلاء من يؤدي هذه العبادات لله لكن لا يؤديها كما يجب؛ فيسيء فيها ويخلّ بواجباتها لضعف إخلاصه وضعف إيمانه.

والتقصير في الاستعانة تحصل بسببه آفات عظيمة من الضعف والعجز والوهن فإن أصابه ما يحِبُّ فقد يحصل منه عجب واغترار بما يملك من الأسباب، وإن أصابه ما يكره فقد يصاب بالجزع وضعف الصبر.

وكلا التفريطين لا يحصل لصاحبهما طمأنينة قلب ولا سكينة نفس ولا تطيب حياته حتى يحقق هذين العملين الجليلين.

وبهذا يعلم المؤمن أنَّ كماله وسعادته ورفعة درجاته بحسب إحسانه في عبادة ربّه واستعانته به.

ولابن القيّم رحمه الله تعالى كلام حسن في «مدارج السالكين» في بيان أقسام الناس في العبادة والاستعانة باعتبار آخر، وفي كلامه طول على حسنه؛ فتركته خشية التطويل، وذكرت هذه المسألة لبيان التفاضل في هذه الأعمال وما ينبني عليه من أحكام، حتى يتبيّن المتأمّل تناسب الأعمال والأحكام، وانقسام الناس فيها إلى أقسام، وفقه هذه المسائل مهمّ جداً، ويفيد طالب العلم في جواب كثير من الأسئلة التي يثيرها السائلون.

• أنواع الاستعانة باللّه

الاستعانة باللّه تعالى على أنواع:

- فأفضلها وأحبها إلى الله تعالى: الاستعانة بالله على طاعة الله، وكلما كان المؤمن أشد حباً لله ورجاء في فضله وخوفاً من سخطه وعقابه كان على هذا الأمر أحرص، وعرف أن حاجته إليه أشد.

والمؤمن مأمور بأن يستعين الله تعالى في جميع شؤونه حتى في شسع نعله فإنه إذا لم ييسره الله لم يتسير، وقد روي في ذلك حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم مختلف في صحته، ومعناه صحيح، وقد أمر الله تعالى بالسؤال من فضله فقال: ﴿وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ وهو يشمل فضله في الدنيا والآخرة.

لكن من الناس من يغلب عليه الاستعانة بالله لتحقيق المطالب الدنيوية حتى تشغله عن المطالب الأخروية؛ فإن تحقق له ما يطلب من أمور الدنيا فرح به وضعفت رغبته في الاستعانة بالله تعالى على طاعة الله، وإن حُرمه ابتلاء واختباراً جزع وسخط؛ فهذا النوع في قلوبهم عبودية للدنيا، وقد

تُعجَّل لهم مطالبهم فتنة لهم ثم تكون عاقبتهم سيئة.

وسبب ذلك أنهم شابهوا الكفار فيما ذمهم الله به؛ فقال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾.

وهم وإن لم تبلغ بهم إرادتهم للدنيا مبلغاً يرتكبون به ما يخرجهم من دائرة الإسلام من ترك الصلاة أو ارتكاب أي ناقض آخر من نواقض الإسلام إلا أنَّهم لمّا بلغ حبّهم للدنيا ما جعلهم يتركون بعض الواجبات ويرتكبون بعض المحرمات عمداً كان ذلك دليلاً على ضعف إخلاصهم العبادة لله تعالى؛ وكان في قلوبهم عبودية صغرى للدنيا يستحقّون بها من العذاب وضنك المعيشة ما يناسب جرمهم وتفريطهم.

وقد علموا أنَّ أصل بلاء الكفار إيثارهم الحياة الدنيا على الآخرة كما قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾.

وقال: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾.

وقال: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾.

فمن شابههم في بعض أعمالهم التي ذمّهم الله عليها استحقّ من العذاب بقدر مشابهته لهم.

• الحكمة من تقديم ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾

هذه المسألة من مسائل التفسير البياني، وهي مسألة ظهرت عناية المفسّرين بها واشتهرت، وتعددت أقوالهم فيه وكثرت، وتنوّعت مسالكهم في الجواب عنها، والبيان عن حِكَم هذا التقديم العجيب، في سورة قد أُحكمت غاية الإحكام.

وأشهر الأقوال في هذه المسألة ستة أقوال:

القول الأول: الحكمة مراعاة فواصل الآيات في السورة، وهذا القول ذكره البيضاوي وجهاً وكذلك النسفي وابن عاشور وغيرهم.

والقول الثاني: أنه لا فرق في المعنى بين تقديم العبادة على الاستعانة والعكس، وهذا القول قاله ابن جرير قال: (لَمَّا كان معلومًا أن العبادة لا سبيلَ للعبد إليها إلا بمعونة من الله جلّ ثناؤه، وكان محالا أن يكون العبْد عابدًا إلا وهو على العبادة مُعان، وأن يكون مُعانًا عليها إلا وهو لها فاعل- كان سواءً تقديمُ ما قُدمّ منهما على صاحبه . كما سواءٌ قولك للرجل إذا قضى حاجَتَك فأحسن إليك في قضائها: «قضيتَ حاجتي فأحسنتَ إليّ»، فقدّمت ذكر قضائه حاجتَك، أو قلتَ: أحسنتَ إليّ فقضيتَ حاجتي»، فقدَّمتَ ذكر الإحسان على ذكر قضاء الحاجة. لأنه لا يكون قاضيًا حاجتَك إلا وهو إليك محسن، ولا محسنًا إليك إلا وهو لحاجتك قاضٍ. فكذلك سواءٌ قول القائل: اللهم إنّا إياك نعبُدُ فأعِنَّا على عبادتك، وقوله: اللهم أعنَّا على عبادتك فإنّا إياك نعبُدُ)ا.هـ.

وهذا القول فيه نظر.

القول الثالث: أن العبادة أعم من الاستعانة، لأن الاستعانة نوع من أنواع العبادة فقدم الأعم على الأخص، وهذا القول ذكره البغوي في تفسيره.

القول الرابع: أن العبادة هي المقصودة والاستعانة وسيلة إليها، وهذا قول شيخ الإسلام ابن تيمية في مواضع من كتبه، وقال به ابن كثير في تفسيره.

قال ابن تيمية: (قال في الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ فقدَّم قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ لأنه المقصود لنفسه [تعالى] على قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ لأنه وسيلة إلى ذلك، والمقاصد مقدمة في القصد والقول على الوسائل)ا.هـ.

وقال ابن كثير رحمه الله: (وإنما قدم: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ لأن العبادة له هي المقصودة، والاستعانة وسيلة إليها، والاهتمام والحزم هو أن يقدم ما هو الأهم فالأهم، والله أعلم)ا.هـ.

القول الخامس: أنه لبيان أن عبادة العبد لربه لا تكون إلا بإعانة الله تعالى وتوفيقه وهذا مما يستوجب الشكر ويذهب العجب فلذلك ناسب أن يتبع قوله: (إياك نعبد) بـ(إياك نستعين) للاعتراف بفضل الله تعالى في توفيقه للعبادة والإعانة عليها، وهذا القول ذكره البيضاوي وجها، وألمح إليه أبو السعود.

القول السادس: قول ابن عاشور إذ قال في التحرير والتنوير: (ووجه تقديم قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ على قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ أن العبادة تَقَرُّبٌ للخالق تعالى فهي أجدر بالتقديم في المناجاة، وأما الاستعانة

فهي لنفع المخلوق للتيسير عليه فناسب أن يقدِّم المناجي ما هو من عزمه وصنعه على ما يسأله مما يعين على ذلك، ولأن الاستعانة بالله تتركب على كونه معبوداً للمستعين به ولأن من جملة ما تطلب الإعانة عليه العبادة فكانت متقدمة على الاستعانة في التعقل . وقد حصل من ذلك التقديم أيضاً إيفاء حق فواصل السورة المبنية على الحرف الساكن المتماثل أو القريب في مخرج اللسان)ا.هـ.

وفي المسألة أقوال أخرى حتى أوصلها الألوسي في روح المعاني إلى أحد عشر وجهاً، وفي بعضها نظر.

وهذه الأقوال كما ترى مبناها على تلمّس الحكمة من تقديم ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾، وقد تقرر أنَّ الله تعالى حكيم عليم، وأن الله قد أحكم كتابه غاية الإحكام، وأن القرآن قد بلغ الذروة العليا في الفصاحة وحسن البيان، فلذلك قد يجتمع في المسألة الواحدة من المسائل البيانية حِكَمٌ متعدّدة ويتفاوت العلماء في إدراكها وحسن البيان عنها.

والقاعدة في مثل هذه المسائل أن يُقبل ما يحتمله السياق وترتيب الكلام ومقاصد الآيات وغيرها من الدلالات بشرطين:

أحدهما: أن يكون القول في نفسه صحيحاً.

والثاني: أن يكون لنظم الآية دلالة معتبرة عليه.

ومن أمعن النظر في هذه الأمور وكانت له معرفة حسنة بعلم البيان تبيّنت له حكم متعدّدة في غالب الأمر، بل ربّما ظهر له من الدلائل ما غفل عن ذكره كثيرون، كما فعل ابن القيّم رحمه الله تعالى في كتابه "مدارج

السالكين» في جوابه على هذا السؤال؛ فقد أحسن بيان جملة من الحكم والأسرار البديعة التي لا تكاد تجدها في كتب التفسير بمثل تنبيهه وبيانه، وقد استفاد أصلها من شيخه ابن تيمية لكنَّه بنى على هذا الأصل من التفصيل والتفريع ما أجاد فيه وأفاد.

فقال رحمه الله: (تقديم العبادة على الاستعانة في الفاتحة من باب تقديم الغايات على الوسائل إذ العبادة غاية العباد التي خُلقوا لها، والاستعانة وسيلة إليها.

- ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ متعلق بألوهيته واسمه «الله»، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٥﴾ متعلق بربوبيته واسمه «الرب» فقدم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٥﴾ كما قدم اسم «الله» على «الرب» في أول السورة.

- ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ قِسْم «الرب»؛ فكان من الشطر الأول، الذي هو ثناء على الله تعالى، لكونه أولى به، و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٥﴾ قِسْم العبد؛ فكان من الشطر الذي له، وهو «﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ٦﴾» إلى آخر السورة.

- ولأن «العبادة» المطلقة تتضمن «الاستعانة» من غير عكس، فكل عابد لله عبودية تامة مستعين به ولا ينعكس، لأن صاحب الأغراض والشهوات قد يستعين به على شهواته، فكانت العبادة أكمل وأتم، ولهذا كانت قسم الرب.

- ولأن «الاستعانة» جزء من «العبادة» من غير عكس.

- ولأن «الاستعانة» طلب منه، و»العبادة» طلب له.

- ولأن «العبادة» لا تكون إلا من مخلص، و«الاستعانة» تكون من مخلص ومن غير مخلص.

- ولأن «العبادة» حقّه الذي أوجبه عليك، و«الاستعانة» طلب العون على «العبادة»، وهو بيان صدقته التي تصدق بها عليك، وأداء حقه أهم من التعرض لصدقته.

- ولأن «العبادة» شكر نعمته عليك، والله يحب أن يُشكر، والإعانة فعله بك وتوفيقه لك، فإذا التزمت عبوديته، ودخلت تحت رقها أعانك عليها، فكان التزامها والدخول تحت رقها سببا لنيل الإعانة، وكلما كان العبد أتم عبودية كانت الإعانة من الله له أعظم، والعبودية محفوفة بإعانتين: إعانة قبلها على التزامها والقيام بها، وإعانة بعدها على عبودية أخرى، وهكذا أبدا، حتى يقضي العبد نحبه.

- ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ له، و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ به، وما له مقدم على ما به، لأن ما له متعلق بمحبته ورضاه، وما به متعلق بمشيئته، وما تعلق بمحبته أكمل مما تعلق بمجرد مشيئته، فإن الكون كله متعلق بمشيئته، والملائكة والشياطين والمؤمنون والكفار، والطاعات والمعاصي، والمتعلق بمحبته: طاعتهم وإيمانهم، فالكفار أهل مشيئته، والمؤمنون أهل محبته، ولهذا لا يستقر في النار شيء لله أبدا، وكل ما فيها فإنه به تعالى وبمشيئته.

فهذه الأسرار يتبين بها حكمة تقديم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾) ا.هـ.

وذكر الشيخ محمد الأمين الشنقيطي وجهاً حسناً فقال: (وإتيانه بقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ بعد قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فيه إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يتوكل إلا على من يستحق العبادة؛ لأن غيره ليس بيده الأمر، وهذا المعنى المشار إليه هنا جاء مبيناً واضحاً في آيات أخر كقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾).

• معنى النون في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾:

في هذه المسألة أقوال لأهل العلم:

القول الأول: المراد الإخبار عن جنس العباد والمصلّي فرد منهم، ذكره ابن كثير.

والقول الثاني: إن ذلك ألطف في التواضع من (إياك أعبد) لما في الثاني من تعظيمه نفسه.

والقول الثالث: إنّ ذلك أبلغ في التعظيم والتمجيد، وهو قول ابن القيم رحمه الله؛ قال في "بدائع الفوائد": (الإتيان بضمير الجمع في الموضعين أحسن وأفخم فإن المقام مقام عبودية وافتقار إلى الرب تعالى وإقرار بالفاقة إلى عبوديته واستعانته وهدايته فأتى به بصيغة ضمير الجمع أي نحن معاشر عبيدك مقرون لك بالعبودية، وهذا كما يقول العبد للملك المعظم شأنه: نحن عبيدك ومماليكك وتحت طاعتك ولا نخالف أمرك؛ فيكون هذا أحسن وأعظم موقعاً عند الملك من أن يقول: أنا عبدك ومملوكك.

ولهذا لو قال: أنا وحدي مملوكك استدعى مقته؛ فإذا قال: أنا وكلّ من في البلد مماليكك وعبيدك وجند لك كان أعظم وأفخم؛ لأن ذلك يتضمن

أن عبيدك كثير جداً وأنا واحد منهم، وكلنا مشتركون في عبوديتك والاستعانة بك، وطلب الهداية منك؛ فقد تضمَّن ذلك من الثناء على الربّ بسعة مجده وكثرة عبيده وكثرة سائليه الهداية ما لا يتضمنه لفظ الإفراد؛ فتأمله)ا.هـ.

والقول الرابع: الإتيان بضمير الجمع أغيظ للمشركين، وأبلغ في الثناء على الله، وهو قول ابن عاشور إذا قال في تحريره: (وفي العدول عن ضمير الواحد إلى الإتيان بضمير المتكلم المشارَك الدلالة على أن هذه المحامد صادرة من جماعات، ففيه إغاظة للمشركين إذ يعلمون أن المسلمين صاروا في عِزة ومَنَعة، ولأنه أبلغ في الثناء من أعبد وأستعين لئلا تخلو المناجاة عن ثناء أيضاً بأن المحمود المعبود المستعان قد شهد له الجماعات وعرفوا فضله).

والقول الخامس: النون للتعظيم الذي يُشعِر به شرفُ العبادة، وهذا القول ذكره الرازي في تفسيره، وفيه نظر.

والأقوال الأربعة الأولى حسنة، ويجمعها أنّ الإتيان بضمير الجمع يتضمن إقرار القارئ بأنه إنما هو عبد من جملة العباد الذين يعبدون الله وحده ويستعينون به ولا يشركون به، ويضاف إليها بيانُ أن الجملة في ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ خبرية، وفي ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ خبرية متضمّنة معنى الطلب.

فالإتيان بضمير الجمع في مقام الإخبار أبلغ في التعظيم والتمجيد، من (إيَّاك أعبد).

والإتيان بضمير الجمع في مقام الطلب أبلغ في التوسّل، فأضاف إلى التوسّل بالتوحيد التوسّل بكرمه تعالى في إعانة إخوانه المؤمنين؛ كأنّ المعنى (أعنّي كما أعنتهم) فهي في معنى (اهدني فيمن هديت).

• **فائدة الإتيان بالفعل المضارع في ﴿نَعۡبُدُ﴾ و﴿نَسۡتَعِينُ ٥﴾:**

الإتيان بالفعل المضارع هنا لإفادة التجدّد والتكرار.

• **فائدة تحول الكلام من الغيبة إلى الخطاب:**

وهذا ما يُسمّى بالالتفات في علم البلاغة، وله فوائد في تنويع الخطاب، والبيان عن التنقّل بين مقامات الكلام، والتنبيه على نوع جديد من الخطاب يستدعي التفكّر في مناسبته، واسترعاء الانتباه لمقصده.

قال ابن كثير رحمه الله: (وتحوّل الكلام من الغيبة إلى المواجهة بكاف الخطاب له مناسبةٌ، لأنّه لمّا أثنى على اللهّ فكأنّه اقترب وحضر بين يدي اللهّ تعالى؛ فلهذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾ وفي هذا دليلٌ على أنّ أوّل السّورة خبرٌ من اللهّ تعالى بالثّناء على نفسه الكريمة بجميل صفاته الحسنى، وإرشادٌ لعباده بأن يثنوا عليه بذلك)ا.هـ.

• **فائدة تكرر ﴿إِيَّاكَ﴾ في الآية مرتين:**

تكرّر ﴿إِيَّاكَ﴾ في الآية مرتين له فائدة، وقد اجتهد العلماء في التماس هذه الفائدة؛ فقال ابن عطية: (وتكررت ﴿إِيَّاكَ﴾ بحسب اختلاف الفعلين، فاحتاج كل واحد منهما إلى تأكيد واهتمام)ا.هـ.

قال ابن القيم: (وفي إعادة ﴿إِيَّاكَ﴾ مرة أخرى دلالة على تعلق هذه الأمور بكل واحد من الفعلين، ففي إعادة الضمير من قوة الاقتضاء

لذلك ما ليس في حذفه، فإذا قلت لملك مثلا: إياك أحب، وإياك أخاف، كان فيه من اختصاص الحب والخوف بذاته والاهتمام بذكره، ما ليس في قولك: إياك أحب وأخاف)ا.هـ.

وقال ابن كثير: (وكرّر للاهتمام والحصر).

وقد تطرّق بعض المفسّرين إلى مسائل في هذه الآية لم أذكرها اختصاراً، وهي على أنواع:

- **فمنها مسائل تتعلّق بالقراءات** التي لا يختلف بها المعنى، وعامتها قراءات شاذّة؛ فتركت ذكرها وتفصيل كلامهم فيها اختصاراً.

- **ومنها مسائل نحوية وإعرابية وعلل صرفية** ليس من مقصدي في هذا التفسير التوسّع فيها، وإنما أذكر من المسائل اللغويّة ومسائل القراءات ما له أثر على المعنى، أو كان لذكره فائدة تتصل ببيان بعض المسائل التي نحتاج إلى ذكرها.

- **ومنها مسائل استطرادية في العقيدة والفقه والسلوك**، وقد اكتفيت بذكر ما أرى لزوم معرفته لفقه معاني الآيات والاهتداء بهداياتها، وما زاد عن ذلك من التفصيل فيبحث في موضعه.

الباب العاشر: تفسير قول الله تعالى:
﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾

مقصد الآية:

هذه الآية دعاء ومسألة لله تعالى، وهي مقصود العبد بعدما تقدّم من الحمد والثناء والتمجيد لله تعالى، والتوسّل إليه بإخلاص العبادة والاستعانة له، وما يتضمّن هذا الإخلاص من البراءة من الشرك وما يقدح في إخلاص العبادة لله تعالى، والبراءة من الحول والقوّة إلا به تعالى.

كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربّه تبارك وتعالى: «فإذا قال: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾ قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل».

وهذا الدعاء الذي اصطفاه الله تعالى لهذه الأمّة ورضيه لها، وفرضه عليها؛ أعظم الدعاء وأنفعه، وأحبّه إلى الله، وقد وعدها الإجابة عليه؛ فمن أحسن الإتيان بما دلّ عليه أوّل هذه السورة كان أسعد بإعطاء مسألته، وإجابة دعوته في آخرها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (أنفع الدعاء، وأعظمه وأحكمه دعاء الفاتحة: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾؛ فإنه إذا هداه هذا الصراط

أعانه على طاعته وترك معصيته، فلم يصبه شر، لا في الدنيا ولا في الآخرة، لكن الذنوب هي من لوازم نفس الإنسان، وهو محتاج إلى الهدى في كل لحظة، وهو إلى الهدى أحوج منه إلى الأكل والشرب)ا.هـ.

وقال أيضا: (والذين هداهم الله من هذه الأمة حتى صاروا من أولياء الله المتقين كان من أعظم أسباب ذلك دعاؤهم الله بهذا الدعاء في كل صلاة، مع علمهم بحاجتهم وفاقتهم إلى الله دائما في أن يهديهم الصراط المستقيم؛ فبدوام هذا الدعاء والافتقار صاروا من أولياء الله المتقين)ا.هـ.

وإذا حصلت الهداية حصل ما يترتب عليها من النصر والرزق والتوفيق وأنواع الفضائل والبركات، وما تطلبه النفس من أحوال السعادة، ومن العاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة.

بيان مراتب الهداية:

الهداية على مرتبتين:

المرتبة الأولى: هداية الدلالة والإرشاد، وهي هداية علمية، **ثمرتها:** العلم بالحقّ، والبصيرة في الدين.

والمرتبة الثانية: هداية التوفيق والإلهام، وهي هداية عملية، **ثمرتها:** إرادة الحقّ والعمل به.

ولا تتحقّق الهداية إلا بالجمع بين المعنيين؛ وهو مقتضى الجمع بين العلم والعمل.

ولذلك فإن من لم يعرف الحقّ لا يهتدي إليه، ومن عرفه لكن لم تكن في قلبه إرادة صحيحة له فهو غير مهتدٍ.

ويطلق لفظ «الهدى» وما تصرّف منه في النصوص مراداً به المعنى الأول تارة كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٥٢﴾. وقوله: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ١٩﴾.

ويأتي تارة مراداً به المعنى الثاني كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ أي بعملهم الصالح وسيرتهم الحسنة.

ويأتي تارة بما يحتملهما كما في هذا الموضع، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾.

ويطلق لفظ الهدى على معانٍ أخر كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ٥٠﴾ المراد به الإلهام الفطري لكلّ الكائنات بما تقوم به مصالحها، وهذا من دلائل ربوبيّته تعالى.

درجات المهتدين:

والمهتدون على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: الذين تحقق لهم أصل الهداية، وهم الذين هداهم الله لأصل الإسلام اعتقاداً وقولاً وعملاً، فأدّوا ما صحّ به إسلامهم، واجتنبوا نواقض الإسلام، مع اقترافهم لبعض الكبائر وتفريطهم في بعض الواجبات؛ فأصحاب هذه الدرجة مسلمون، لهم نصيب من الهداية

بحسب ما معهم من الإيمان علماً وعملاً، لكنَّهم ظالمون لأنفسهم بسبب ما ارتكبوا من المعاصي.

وهؤلاء وإن كانوا موعودين بدخول الجنّة إلا أنّهم مستحقون للعقاب والعذاب الأليم على بعض ما اقترفوا من المحرّمات وما فرّطوا فيه من الواجبات؛ فمنهم من يُعذّب في الدنيا بأنواع من العذاب، ومنهم من يعذّب في قبره، ومنهم من يعذّب في عرصات يوم القيامة، حتى يكون منهم من يعذّب في النار حتى يُطهّر من ذنوبه فلا يدخل الجنّة إلا هو طيّب قد ذهب عنه خَبَثُه، ويعفو الله عمن يشاء.

والدرجة الثانية: المتقّون، وهم الذين هداهم الله لفعل الواجبات وترك المحرمات؛ فنجوا بذلك من العذاب، وفازوا بكريم الثواب.

والدرجة الثالثة: المحسنون، وهم أكمل الناس هداية، وأحسنهم عملاً، وهم الذين هداهم الله لأن يعبدوه كأنّهم يرونه، فاجتهدوا في إحسان أداء الواجبات، والكفّ عن المحرّمات، وأحسنوا التقرّب إلى الله تعالى بالنوافل حتى أحبّهم.

وأصحاب كلّ درجة يتفاضلون فيها تفاضلاً كبيراً لا يحصيه إلا من خلقهم.

وقد جمع الله هذه الأصناف الثلاثة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾.

فالظالمون لأنفسهم من الذين اصطفاهم الله هم أصحاب الكبائر من المسلمين؛ اصطفاهم الله على غيرهم من الكفار والمنافقين، وهم على ظلمهم لأنفسهم موعودون بدخول الجنّة لصحّة إسلامهم لكنّهم على خطر من العقوبة على بعض ذنوبهم.

والمقتصدون هم المتقون.

والسابقون بالخيرات هم المحسنون، نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم بمنّه وكرمه، وأن يهدينا لما هداهم إليه.

معنى ﴿ٱهۡدِنَا﴾:

﴿ٱهۡدِنَا﴾: أي أرشدنا ووفقنا لاتّباع هداك؛ **فسؤال الهداية هنا يتضمَّن سؤال هداية الدلالة والإرشاد، وسؤال هداية التوفيق والإلهام.**

١. فبهداية الدلالة والإرشاد يُبصر المرءُ الحقّ ويتبيّن حقيقته وعلاماته، ويبصر الباطل ويتبيّن حقيقتَه وعلاماته؛ فيميّز الحقَّ من الباطل، والهدى من الضلال، والطيّب من الخبيث، وما يقرّب إلى الله مما يباعد منه.

وهذه الهداية يتفاضل فيها المهتدون تفاضلاً كبيراً:

أ: فمنهم من يزيده الله هدى وبصيرة حتى يكون من الموقنين أولى البصائر والألباب، ويجعل الله له نوراً يمشي به، وفرقانا يفرق له بين الحقّ والباطل؛ كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾.

وهذه البصيرة التي أنزلها الله تعالى في هذه الآية هي من الهداية التي يهدي بها من يشاء من عباده؛ وهي دالة على أن المؤمن كلما كان أقوى إيماناً وأتقى لله تعالى كان نصيبه من هذا الفرقان أعظم، وكلما ضعف إيمانه ونقص تقواه ضعفت بصيرته.

ب: ومنهم من يكون له أصل الهداية التي يميّز بها الكفر من الإسلام، ويعرف بها كثيراً من حدود الله تعالى كفرائض الدين وكبائر الذنوب، لكن يكون في بصيرته ضعفٌ عن معرفة إدراك كثير من شعائر الإسلام، ومقاصد الدين؛ فيكون له نصيب من هذه الهداية بقدر ما معه من الفقه في الدين.

٢. وبهداية التوفيق والإلهام يُوفَّق المرء لاتّباع هدى الله تعالى، وامتثال أمره، واجتناب نهيه، وتصديق خبره، فيحبِّب الله إليه الإيمانَ والعمل الصالحَ ويزيّنه في قلبه، ويعينه على ذكره وشكره وحسن عبادته، فيكون مهتدياً حقاً.

وهذه الهداية هي أصل الفلاح والفوز، وهي لا تتحقق للعبد إلا بتحقّق المرتبة التي قبلها؛ فيكون جامعاً بين العلم النافع والعمل الصالح.

مقاصد المهتدين من سؤال الهداية:

إذا تبيّن ما تقدّم من معنى سؤال الهداية، ومعرفة مراتبها، ودرجات المهتدين فيها؛ فاعلم أنّ لكل داعٍ بالهداية مقصدٌ من دعائه؛ والله تعالى يعطي كلَّ سائل ما أراده بسؤاله.

فأهل الإحسان مقصدهم جمع مراتب الهداية وبلوغ أعلى درجاتها؛ ويشهدون شدّة حاجتهم إلى أن يُبصرّهم الله بالحقّ في جميع شؤونهم، وأن يجعلهم مريدين لاتّباع هداه، وأن يوفّقهم ويعينهم على ذلك.

ومَن دونهم كلٌّ بحسب مقصده وعزيمته وصدق إرادته، حتى يكون منهم من يذكر الدعاء وهو لا يدري ما يقول.

وقد رُوي من حديث أبي هريرة وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله لا يستجيب لعبد دَعَاه عن ظهر قلب غافل».

ورواه ابن المبارك من حديث صفوان بن سليم مرسلاً.

والحديث حسَّنه بعض أهل العلم لتعدد مخارجه، وإن كانت أسانيده لا تخلو من ضعف.

ويشهد له ما في "سنن أبي داوود" و"السنن الكبرى" للنسائي من حديث سعيد المقبري، عن عمر بن الحكم، عن عبد الله بن عنمة، أن عمار بن ياسر قال: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: «إن الرجل لينصرف، وما كتب له إلا عُشر صلاته، تسعها، ثمنها، سبعها، خمسها ربعها ثلثها نصفها».

ورواه الإمام أحمد من طريق سعيد المقبري عن عمر بن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث، عن أبيه، أن عمارا صلى ركعتين، فقال له عبد الرحمن بن الحارث: يا أبا اليقظان، لا أراك إلا قد خففتهما.

قال: هل نقصت من حدودها شيئا؟

قال: لا، ولكن خففتها.

قال: إني بادرت بها السهو، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الرجل ليصلي، ولعله أن لا يكون له من صلاته إلا عشرها، وتسعها، أو ثمنها، أو سبعها» حتى انتهى إلى آخر العدد.

وقال سفيان الثوري: «**يكتب للرجل من صلاته ما عقل منها**» رواه أبو نعيم في "الحلية".

وأما ما اشتهر على ألسنة بعض الوعاظ والعلماء من رفع حديث: (ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها). فلا أصل له بهذا اللفظ عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا قريب منه، ولعله مما فُهِم بالمعنى فاشتهر لفظه خطأ.

وقد نسبه ابن تيمية في مواضع من كتبه إلى ابن عباس موقوفاً عليه، ولا أعلم له إسناداً في شيء من دواوين السنة التي بين أيدينا.

لكن المعنى مستفاد من دلالة حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه، ومن عمل بعض الصحابة رضي الله عنهم.

قال أبو رجاء العطاردي: قلت للزبير بن العوام رضي الله عنه: ما لي أراكم يا أصحاب محمد من أخف الناس صلاة؟

فقال: «**نبادر الوسواس**». رواه الطحاوي "شرح مشكل الآثار"، وأبو القاسم البغوي في "معجم الصحابة".

وفي رواية عند أبي نعيم في الحلية أنه قال: (ولكنكم أهل العراق يطيل أحدكم الصلاة حتى يغيب في صلاته).

اختلاف أحوال السائلين للهداية:

مما ينبغي التفطّن له ومعرفة أثره العظيم: اختلاف أحوال السائلين عند سؤالهم الهداية، فلا يستوي سؤال أهل الإحسان في دعائهم وسؤال المقصّرين فيه.

وقد دلّت الأدلّة الصحيحة على أنّ الله تعالى ينظر إلى قلوب عباده، وأنّ لما ينبعث منها من أعمال له شأنه واعتباره العظيم عند الله تعالى، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

وقال تعالى: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾.

وقال تعالى في شأن المنافقين: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾.

والآيات في هذا المعنى كثيرة، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» رواه مسلم في صحيحه، وأحمد وابن حبان وغيرهم من طريق جعفر بن برقان، عن يزيد بن الأصم، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

إذا تبيَّن ذلك؛ فما يقوم بقلب العبد عند الدعاء من شهود الاضطرار إلى هداية الله، والإنابة إليه تعالى وخشيته، وما يصحب ذلك من الخوف والرجاء، والصدق والإخلاص، والتوكّل على الله، وحسن الظنّ به؛ كلّ ذلك من الأعمال القلبية العظيمة التي إذا صاحبت الدعاء كان الداعي أسعد بالإجابة والإثابة.

وقد قال الله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

فهاتان الآيتان تدلان دلالة بيّنة على أنَّ من كان هذا حاله في دعائه فهو من أهل الإحسان، وأنَّ رحمة الله قريب منه.

ومن كان في دعائه شيء من التقصير والتفريط والإساءة كان حظّه من دعائه بقدر ما أحسن فيه.

ومن كان بالله أعرف كان منه أخوف، ومن اشتدّ حرصه على رضوان الله تعالى وكرمه وثوابه ودخول جنّته والفوز بشرف رؤيته تعالى كان خوفه مما يحول بينه وبين ذلك أعظم.

ولذلك فإنَّ أهل الإحسان أشدّ الناس حرصاً على الهداية وبصيرة بعظم الحاجة إليها في جميع شؤونهم لما يبصرونه من كثرة الفتن والابتلاءات، وما يعتبرون به من أنواع العقوبات التي حلّت بالمسيئين؛ فأورثهم هذا الفقه من المعارف الجليلة والبصائر النافعة والأعمال التعبّدية ما طهرت به قلوبهم، وزكت به نفوسهم، وخشعوا به لربّهم جلّ وعلا في صلاتهم؛ فكان من ثوابهم تحقّق فلاحهم كما قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾

﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ٢ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ٣ وَٱلَّذِينَ
هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ٤ ...﴾ الآيات.

تلخيص أوجه تفاضل السائلين في سؤال الهداية:

الذين يسألون الله تعالى الهداية ليسوا سواءً في هذا السؤال العظيم، بل يتفاضلون فيه من وجوه:

أحدها: حضور القلب عند الدعاء؛ فليس دعاء الغافل اللاهي كدعاء المدرك الواعي.

والوجه الثاني: الإحسان في الدعاء؛ فليس من يدعو الله تعالى بتضرّعٍ وتقرّبٍ خوفاً وطمعاً؛ ويشهد اضطراره لإجابة الله دعاءه كمن هو دون ذلك.

فمن كان من أهل الإحسان في الدعاء كان نصيبه من الإجابة أعظم وأكمل، ومن كان دونه كان نصيبه بقدره، وقد جعل الله لكلّ شيء قدراً.

والوجه الثالث: مقاصد الداعي من سؤال الهداية، فإنما الأعمال بالنيات، ولكلّ امرئ ما نوى، والله يعلم قصد كلّ سائل من سؤاله، ولذلك فإنّ الأكمل للإنسان أن يقصد بسؤاله الهداية التامة التي يبصر بها الحقّ، ويتّبع بها الهدى، وأن يهديه بما هدى به عباده المحسنين.

الهداية منّة من اللّه تعالى:

الهداية للحقّ منّةٌ من الله تعالى، لا تكون إلا به، وكلّ الناس ضالّون إلا من هداهم الله، كما في الحديث القدسي الجليل الذي رواه مسلم من حديث أبي إدريس الخولاني عن أبي ذرّ رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم عن ربّه جلّ وعلا أنه قال: [يا عبادي كلّكم ضالّ إلا من هديتُه فاستهدوني أهدكم].

والناس لا يهتدون إلى شيء ينفعهم في دينهم ودنياهم إجمالاً وتفصيلاً إلا بالله تعالى.

وقد جعَل الله تعالى الهداية للحق علامة بيّنة على استحقاقه للعبادة، وبطلان عبادة ما سواه؛ كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾﴾ والضمير ﴿هُوَ﴾ هنا لإفادة الحصر، أي هو وحده الذي يهدي السبيل.

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾.

والآيات في هذا المعنى كثيرة، كلّها تبيّن أنَّ الله تعالى هو الذي يمنّ بالهداية على من يشاء من عباده، وأنَّ الله يحول بين المرء وقلبه؛ فإن شاء أن

يقيم قلبه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه.

ولذلك كان من أكثر دعاء النبي صلى الله عليه وسلم الدعاء بتثبيت قلبه؛ كما في مسند الإمام أحمد وسنن الترمذي من حديث أبي معاوية، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك».

فقلت: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا؟

قال: «نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء».

وقد روي نحو هذا الحديث عن جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وشهود هذه الحقيقة يدفع عن العبد طغيان الشعور بالاستغناء عن طلب الهداية الذي هو من أعظم أسباب الحرمان.

الحكمة من سؤال المسلم الهداية:

اشتهر في كتب التفسير وغيرها السؤال عن الحكمة من سؤال المسلم الهداية إلى الصراط المستقيم وقد هداه الله إلى الإسلام، وكذلك الحكمة من تكرار هذا الدعاء في كلِّ ركعة، ولم أقف على ذكر أوّل من أثار هذا السؤال، والذي يظهر أنّ هذه المسألة لم تكن مشكلة عند السلف حتى يُسأل عنها، وإنما نشأ السؤال بعدهم، وللمفسّرين كلام مشتهر في الجواب على هذا السؤال الكبير، وما تقدّم شرحُه من المسائل كافٍ بإذن الله تعالى في إيضاح الجواب، لكن تلخيص أقوال أهل العلم فيما أجابوا به على هذا

السؤال نافع بإذن الله تعالى.

فذهب ابن جرير وأبو إسحاق الزجاج وأبو جعفر النحاس وجماعة من اللغويين إلى أنّ المعنى: ثبّتنا على الهدى.

قال الزجاج: (ومعنى ﴿ٱهۡدِنَا﴾ وهم مهتدون: ثبّتنا على الهدى، كما تقول للرجل القائم: قم لي حتى أعود إليك. تعني: اثبُتْ لي على ما أنت عليه)ا.هـ.

وشيخ الإسلام ابن تيمية أطال بحث هذه المسألة في مواضع من كتبه، وله عناية بالجواب على هذا السؤال لاتّصاله بالردّ على بعض أهل الأهواء الذين أساؤوا فهم هذه المسألة.

ومما قاله في ذلك: (وهذا كما يقول بعضهم في قوله: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ فيقولون: المؤمن قد هُدي إلى الصراط المستقيم؛ فأي فائدة في طلب الهدى؟

ثم يجيب بعضهم بأن المراد ثبتنا على الهدى كما تقول العرب للقائم: قم حتى آتيك.

- أو يقول بعضهم: أَلْزِم قلوبنا الهدى؛ فحذف الملزوم.

- ويقول بعضهم: زدني هدى.

وإنما يوردون هذا السؤال لعدم تصورهم الصراط المستقيم الذي يَطْلُب العبدُ الهداية إليه؛ فإنَّ المراد به العمل بما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه في جميع الأمور.

والإنسان وإن كان أقرَّ بأن محمداً رسول الله، وأن القرآن حقٌّ على سبيل الإجمال؛ فأكثر ما يحتاج إليه من العلم بما ينفعه ويضره وما أمر به وما نهى عنه في تفاصيل الأمور وجزئياتها لم يعرفْه، وما عرفه فكثير منه لم يعمله، ولو قدر أنه بلغه كلُّ أمرٍ ونهيٍ في القرآن والسنة؛ فالقرآن والسنة إنما تُذكر فيهما الأمور العامة الكلية لا يمكن غير ذلك، لا يذكر مايخصّ به كل عبد.

وهذا أُمِرَ الإنسان في مثل ذلك بسؤال الهدى إلى الصراط المستقيم، والهدى إلى الصراط المستقيم يتناول هذا كله:

- يتناول التعريف بما جاء به الرسول مفصلاً.
- ويتناول التعريف بما يدخل في أوامره الكليات.
- ويتناول إلهام العمل بعلمه؛ فإن مجرد العلم بالحق لا يحصل به الاهتداء إن لم يعمل بعلمه.

ولهذا قال لنبيه بعد صلح الحديبية أوّلَ سورة الفتح ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾﴾ وقال في حق موسى وهارون ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾﴾)ا.هـ.

وله في مواضع أخرى من كتبه كلام حسنٌ في الجواب على هذا السؤال، ولتلميذه ابن القيّم رحمه الله عناية أيضاً بالجواب على هذا السؤال.

وتلخيص الجواب على هذا السؤال: أن دخول المسلم في الإسلام هو أصل الهداية؛ لكنّه يحتاج إلى هدايات كثيرة متنوّعة ومتجددة، وبيان ذلك من وجوه:

١. أن الهداية قائمة على العلم والعمل، وهما يتفاضلان؛ فيحتاج المؤمن إلى البصيرة في الدين، وإلى الإعانة على الطاعة، والعصمة من الضلالة في كلّ أمرٍ من أموره.

٢. أنّ الهداية الإجمالية لا تغني عن الهداية التفصيلية.

٣. أن القلب يتقلّب، وحاجة المرء إلى سؤال الله تعالى التثبيت والهداية دائمة متجددة.

٤. أن الفتن التي تعترض المؤمن في يومه وليلته كثيرة متنوّعة ومن لم يهده الله ضلّ بها، وكم أصابت الإنسان المقصّر من فتنة تضرر بها وبعقوباتها ولو أنّه أحسن الاستعاذة بالله منها وسؤاله الهداية لَسَلِم من شرّ كثير.

٥. أنّ لكل عبد حاجات خاصّة للهداية، بما يناسب حاله، فهو محتاج إلى أن يمدّه الله بتلك الهدايات، وإن لم يهده الله لم يهتد.

معنى ضمير الجمع في قوله: ﴿ٱهۡدِنَا﴾

لا خلاف في أنّ المنفرد يدعو بهذا الدعاء كما أنزله الله تعالى بصيغة الجمع ﴿ٱهۡدِنَا﴾، وأن هذا الدعاء وإن كان من المنفرد فهو دعاء صحيح، قد وعد الله عبده الإجابة عليه، كما في الحديث القدسي المتقدّم ذكره: «فإذا قال: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾ قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل».

ولمّا أثير السؤال عن الحكمة من الإتيان بضمير الجمع في قوله: ﴿ ٱهۡدِنَا﴾ مع أنَّ الداعي قد يكون منفرداً، اختلف العلماء في جوابه على ثلاثة أقوال:

القول الأول: لأنَّ كلَّ عضو من أعضاء العبد وكل حاسة ظاهرة وباطنة مفتقرة إلى هداية خاصة به فأتى بصيغة الجمع تنزيلاً لكل عضو من أعضائه منزلة المسترشد الطالب لهداه، وهذا القول حكاه ابن القيّم في "بدائع الفوائد" عمّن لم يسمّه ثم قال: (عرضت هذا الجواب على شيخ الإسلام ابن تيمية فاستضعفه جداً، وهو كما قال؛ فإن الإنسان اسم للجملة لا لكل جزء من أجزائه وعضو من أعضائه، والقائل إذا قال: «اغفر لي وارحمني واجبرني وأصلحني واهدني» سائل من الله ما يحصل لجملته ظاهرِه وباطنِه؛ فلا يحتاج أن يستشعر لكل عضو مسألة تخصه يفرد لها لفظة)ا.هـ.

فهذا القول ضعيف، وإنما ذكرته ليعلم.

والقول الثاني: ليتضمّن دعاؤه الدعاء لإخوانه المسلمين بالهداية؛ فيكون له أجر بالدعاء لنفسه ولإخوانه، وليحظى بدعوة الملَك له بمثل ما دعا لإخوانه، وهذا القول ذكر معناه ابن كثير في تفسيره.

قال: (ثمّ يسأل حاجته وحاجة إخوانه المؤمنين بقوله: ﴿ٱهۡدِنَا﴾ لأنّه أنجح للحاجة، وأنجع للإجابة)ا.هـ.

وهذا القول وإن كان صحيحاً في نفسه إلا أنه لا يستقلّ بالجواب.

والقول الثالث: الجمعُ هنا نظير الجمع في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾، ومطابق لها، وهذا جواب ابن القيّم رحمه الله تعالى في "بدائع الفوائد"، وقد أحسن فيه وأجاد.

فقال: (الصواب أن يقال هذا مطابق لقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ والإتيان بضمير الجمع في الموضعين أحسن وأفخم فإن المقام مقام عبودية وافتقار إلى الرب تعالى وإقرار بالفاقة إلى عبوديته واستعانته وهدايته؛ فأتى به بصيغة ضمير الجمع أي نحن معاشر عبيدك مقرون لك بالعبودية، وهذا كما يقول العبد للملك المعظم شأنه: نحن عبيدك ومماليكك وتحت طاعتك ولا نخالف أمرك فيكون هذا أحسن وأعظم موقعاً عند الملك من أن يقول أنا عبدك ومملوكك، ولهذا لو قال: أنا وحدي مملوكك استدعى مقته؛ فإذا قال: أنا وكل من في البلد مماليكك وعبيدك وجند لك كان أعظم وأفخم؛ لأن ذلك يتضمن أن عبيدك كثيرٌ جداً، وأنا واحدٌ منهم وكلنا مشتركون في عبوديتك والاستعانة بك وطلب الهداية منك فقد تضمن ذلك من الثناء على الرب بسعة مجده وكثرة عبيده وكثرة سائليه الهداية ما لا يتضمنه لفظ الإفراد فتأمله وإذا تأملت أدعية القرآن رأيت عامتها على هذا النمط نحو: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝٢٠١﴾ ونحو دعاء آخر البقرة وآخر آل عمران وأولها وهو أكثر أدعية القرآن الكريم) ا.هـ.

الحكمة من تعدية فعل الهداية بنفسه في هذه الآية

تعدية فعل الهداية في القرآن له أنواع:

- فيأتي معدّى بإلى كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾ وقوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٨٧﴾ وقوله: ﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ۝٢٢﴾.

- **ويأتي معدّى باللام** كما في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّ﴾ وقوله: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾، وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾.

- **ويأتي معدّى بنفسه** كما في هذه الآية ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ وقوله: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١١٨﴾.

وقد اختلف العلماء في دلائل هذا التنويع في تعدية الفعل، وهذه المسألة من دقائق مسائل التفسير البياني، وكثير من العلماء يتجوّزون في التعبير عن الجواب؛ لأنَّ غاية المفسّر تقريب المعنى، وهذا يتأدّى بأيّ عبارة مقاربة تحصل بها الإفادة.

والقاعدة في مثل هذه المسائل مراعاة معاني الحروف، وما يحتمله السياقُ من المعاني المضمَّنة بالتعدية، وما يناسب مقاصد الآيات، وهذا يختلف من موضع لآخر.

ففي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢﴾ تضمّن فعل الهداية معنى الدعوة أي تهديهم وتدعوهم إلى صراط مستقيم؛ ففيه بيان أنّك على الهداية وأنّك مع اهتدائك تدعوهم إلى صراط مستقيم دعوة حقّ أنت مهتدٍ فيها؛ فكان **لتعدية فعل الهدى بإلى في هذا الموضع أربع فوائد ظاهرة:**

الأولى: الحكم بأنّك على الهدى.

والثانية: الحكم بأنّ دعوتك دعوة هداية.

والثالثة: الإفادة بأنك تدعوهم إلى صراط مستقيم لا إلى غيره.

والرابعة: اختصار اللفظ وحسن سبكه.

وأما في قوله تعالى عن أنبيائه صلى الله عليهم وسلم، ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَـٰهُمْ وَهَدَيْنَـٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾ فيضمّن الفعل ما يناسب السياق من معنى الإيصال والأخذ بأيديهم إلى ما تقرّ به أعينهم من المراتب العالية في الهداية.

فليس كلّ تعدية بحرف يكون المعنى جامداً عليها؛ إذ لا بدّ من مراعاة السياق.

وأما تعدية فعل الهداية باللام فهو لتحقيق ثمرة الهداية وبيان اختصاصها بالمهتدي، فقوله تعالى عن أهل الجنة: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾.

فالمشار إليه ما هم فيه من النعيم الذي هو من ثمرات هدايتهم.

وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾ أي يهدي من استهداه حتى يكون على الحقّ، ولو قال: يهدي إلى الحق، لكان المعنى محتمل الاختصاص بهداية الدلالة والبيان، لكن المراد هنا تحقيق ثمرة الهداية وأن الله ﴿يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾ أي يهيّئ لعبده ما يتحقّق به أنّه على الهدى.

وأنت إذا عرض لك عارضٌ ثمَّ اتّبعت هدى الله فحصلت لك الطمأنينة وفرّج الله عنك كربك ووجدت ثمرة اتّباعك للهدى من السكينة والطمأنينة وانشراح الصدر قلتَ: الحمد لله الذي هداني لهذا، أي هيأ لي هذا الذي أنعم به، واختصّني به.

وكذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ أي يتحقّق لمن اتّبع هداه أقوم الأمور في كلّ شيء من شؤونه؛ وهذه الثمرة تتفاضل بتفاضل اتباع الهدى؛ فمن كان أحسن اتّباعاً لهدى القرآن كان نصيبه من ثمرة الهداية أعظم.

وأمّا قوله تعالى هنا: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ فهو معنى جامع لكل ما تقدّم من البيان والدلالة والإلهام والتوفيق والتهيئة.

قال ابن القيّم رحمه الله: (فالقائل إذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ هو طالبٌ من الله أن يُعرِّفَه إيَّاه ويبيّنه له ويلهمه إياه ويقدره عليه؛ فيجعل في قلبه علمَه وإرادتَه والقدرةَ عليه؛ فجَرَّدَ الفعلَ من الحرف، وأتى به مجرَّدا معدىً بنفسه ليتضمَّن هذه المراتب كلَّها، ولو عُدِّيَ بحرفٍ تعيَّن معناه وتخصَّص بحسب معنى الحرف؛ فتأمَّله فإنه من دقائق اللغة وأسرارها) ا.هـ.

معنى الصراط لغة:

الصراط في لغة العرب: الطريق الواضح الواسع السهل المستقيم الموصل للمطلوب.

قال ابن جرير: (أجمعت الحجة من أهل التّأويل جميعًا على أنّ الصّراط المستقيم هو الطّريق الواضح الّذي لا اعوجاج فيه. وكذلك ذلك في لغة جميع العرب؛ فمن ذلك قول جرير بن عطيّة بن الخطفى:

أمير المؤمنين على صراطٍ ... إذا اعوجّ الموارد مستقيم

) ا.هـ.

وأصل الصاد في الصراط منقلبة عن السين، وفي قراءة ابن كثير المكّي [السِّراط] بالسين، وفي قراءةٍ لأبي عمرو [الزِّرَاط] بالزّاي الخالصة، ومن القُرّاء من يشمّ الزاي بالصاد.

قال ابن الجزري: (ووجه ذلك أن حروف الصفير يبدل بعضها من بعض).

وكلّها متفقة في المعنى، وإنما اختلف النطق بها لاختلاف لغات العرب، وقد رُسمت في المصحف صاداً على خلاف الأصل لتحتمل هذه الأوجه كلها.

والمقصود أنَّ الأصل هو السين، وقد نَقَل أبو منصور الأزهري عن بعض أهل اللغة أنَّ السِّرَاط إنما سُمّي سِراطاً؛ لأنه يسترط المارّة، أي يسعهم.

ومن أمثال العرب: لا تكن حلواً فتُسترَط أي: تُبتَلع.

وقال ابن القيّم رحمه الله: (الصراط ما جمع خمسة أوصاف: أن يكون طريقاً مستقيماً سهلاً مسلوكاً واسعاً موصلاً إلى المقصود؛ فلا تسمّي العربُ الطريقَ المعوجَّ صراطاً ولا الصعب المُشِقّ ولا المسدودَ غير الموصول).

قال: (وبنوا «الصراط» على زِنَةِ فِعَال لأنَّه مُشْتَمِلٌ على سالكِهِ اشتمالَ الحلقِ على الشيءِ المسرُوط)ا.هـ.

والمقصود أنَّ اختيار لفظ «الصراط» على غيره من الألفاظ كالطريق والسبيل والمنهج وغيرها له حِكَمٌ ودلائل.

المراد بالصراط المستقيم:

لا ريب أنَّ المراد بالصراط المستقيم ما فسّره الله به في الآية التي تليها بقوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾.

وهو وصف جامع مانع لما يوصل إلى رضوان الله وجنّته، وينجّي من سخط الله وعقوبته.

ولذلك سُمّي صراطاً لوضوحه واستقامته ويسره وسعته، فإنّ الله تعالى قد يسّر الدين ووسّع على عباده فلم يجعل عليهم فيه من حرج، وجعله شريعته سمحة بيّنة مستقيمة لا اعوجاج فيها، ولا تناقض ولا اختلاف؛ فمن أطاع الله ورسوله فقد اتّبع الهدى وسلك الصراط المستقيم؛ فهو صراط يُسار فيه بالإيمان والأعمال الصالحة؛ وكلما عمل العبد حسنة ازداد بها قرباً إلى الله تعالى واستقامة على صراطه.

وهذا الصراط له (سَواءٌ) وهو أوسطه وأعدله، وله مراتب، وله حدود من خرج عنها انحرف عن الصراط المستقيم وسلك سبيلاً من السبل المعوجة عن يمينه أو شماله أفضت به إلى النار والعياذ بالله.

ومن كان انحرافه بقدْرٍ لا يخرجه عن حدود هذا الصراط، وإنما يصرفه عن مراتبه العليا فهو في المرتبة التي ارتضاها لنفسه في سلوك هذا الصراط.

وبهذا يتبيّن أنَّ السالكين للصراط المستقيم يتفاضلون في سلوكهم تفاضلاً كبيراً من جهات متعددة؛ فيتفاضلون في مراتب السلوك، وفي الاستباق في هذا السلوك، وفي الاحتراز من العوارض التي تعرض لهم عند سلوكهم.

وعلم السلوك مبناه على فقه هذه المسائل الكبيرة.

تنوّع عبارات السلف في المراد بالصراط المستقيم:

تنوعت عبارات السلف في **التعريف بالصراط المستقيم** بعبارات لا اختلاف في مدلولها، وإن اختلفت مسالكهم في الدلالة على هذا الصراط، **والمحفوظ عن الصحابة والتابعين في هذه المسألة خمسة أقوال:**

القول الأول: دين الإسلام، وهو قول جابر بن عبد الله، ورواية الضحاك عن ابن عباس، وهو قول محمّد بن الحنفية وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، ورواية عن أبي العالية الرياحي، وهو قول جمهور المفسّرين.

وهذا القول هو أشهر الأقوال وأصلها، والإسلام إذا أطلق شمل مراتب الدين كلها؛ فكلّ ما أمر الله به ونهى عنه فهو من شريعة الإسلام، وكل عبادة صحيحة يتقرّب بها العبد إلى الله تعالى فهي من اتّباع دين الإسلام، ومن سلوك الصراط المستقيم.

واستدلّ بعض المفسّرين لهذا القول بحديث النوَّاس بن سمعان الكلابي رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ضرب الله مثلا صراطا مستقيما، وعلى جنبتي الصراط سوران، فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: أيها الناس، ادخلوا الصراط جميعا، ولا تتعرجوا، وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد يفتح شيئا من تلك الأبواب، قال: ويحك لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه، والصراط الإسلام، والسوران: حدود الله، والأبواب المفتحة: محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط: كتاب الله، والداعي من فوق الصراط:

واعظ الله في قلب كل مسلم». رواه أحمد وابن نصر المروزي وابن أبي عاصم والطحاوي والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان وغيرهم من طريق معاوية بن صالح عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير، عن أبيه، عن النواس بن سمعان الأنصاري مرفوعاً، ولهذا الحديث طرق أخرى بألفاظ مقاربة.

ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم مختصراً.

والشاهد فيه قوله: «والصراط الإسلام». وهذه اللفظ تفرّد بروايتها معاوية بن صالح الليثي.

- وروى الحسن بن صالح، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: «﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ٦﴾ **هو الإسلام، وهو أوسع ما بين السماء والأرض**» رواه الحاكم وصححه.

- وقال عاصم الأحول: قال أبو العالية: «**تعلَّموا الإسلام؛ فإذا تعلمتموه فلا ترغبوا عنه، وعليكم بالصراط المستقيم؛ فإنه الإسلام، ولا تحرفوا الصراط شمالا ولا يمينا**». رواه عبد الرزاق في مصنّفه وابن نصر المروزي في "السنة"، وابن وضاح في "البدع"، والآجرّي في "الشريعة".

والقول الثاني: هو كتاب الله تعالى، وهو رواية صحيحة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

- روى منصور بن المعتمر عن أبي وائل عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «**إن هذا الصراط محتضَرٌ تحضره الشياطين يقولون: يا عباد الله هذا الطريق فاعتصموا بحبل الله فإنَّ الصراط المستقيم كتاب الله**». رواه الطبراني في الكبير، وابن نصر المروزي في السنة، والحاكم في المستدرك، والبيهقي في شعب الإيمان، وإسناده صحيح على شرط الشيخين.

واستدلّ بعض المفسّرين لهذا القول بما رواه الحارث الأعور عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في حديث وصف القرآن المشهور وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم». رواه ابن أبي شيبة والدارمي والترمذي وغيرهم من طريق أبي المختار الطائي عن ابن أخي الحارث الأعور عن الحارث عن عليّ مرفوعا، ورواه الدارمي أيضاً من طريق عمرو بن مرة عن أبي البختري عن الحارث به، والحارث هو الأعور الهمداني متروك الحديث، وكان من كبار أصحاب عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، لكنَّه تغيّر بعده، وأحدث ما أحدث فترك أهل العلم حديثه، ومنهم من انتقى بعض حديثه مما لا نكارة فيه؛ كهذا الحديث ونحوه.

وهذا القول صحيح في نفسه باعتبار أنَّ من اتّبع القرآن فقد اهتدى إلى الصراط المستقيم.

والقول الثالث: هو ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وهذا القول رواية عن ابن مسعود.

روى الأعمش، عن أبي وائل، عن عبد الله قال: «**الصراط المستقيم الذي تركنا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم**» رواه الطبراني في "الكبير" والبيهقي في "شعب الإيمان"، ولفظه: «**الصراط المستقيم تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على طرفه، والطرف الآخر الجنة**».

- وروى ابن وهب في جامعه من طريق أبان بن أبي عياش عن مسلم ابن أبي عمران، عن عبيد الله بن عمر بن الخطاب أنه أتى ابنَ مسعود عشيةً خميس وهو يذكّر أصحابه، قال: فقلت يا أبا عبد الرحمن، ما الصراط المستقيم؟

قال: «**يا ابن أخي، تركَنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في أدناه، وطرفه في الجنة، وعن يمينه جوادٌّ، وعن شماله جوادٌّ، وعلى كلِّ جوادٍّ رجالٌ يدعون كلَّ من مرَّ بهم: هَلُمَّ لك، هَلُمَّ لك، فمن أخذ معهم وردوا به النار، ومن لزم الطريق الأعظم وردوا به الجنة**».

وأبان ضعيف الحديث، لكن يشهد له ما قبله.

والقول الرابع: هو النبي صلى الله عليه وسلم وصاحباه أبو بكر وعمر، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما، ورواية عن أبي العالية الرياحي والحسن البصري.

- عن عاصم الأحول، عن أبي العالية، عن ابن عباس رضي الله عنهما، في قوله تعالى: ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ قال: «**هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحباه**» قال: فذكرنا ذلك للحسن فقال: «**صدق والله ونصح، والله هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما**». رواه الحاكم موقوفاً على ابن عباس وصححه، ورواه محمد بن نصر المروزي في "السنة" مقطوعاً على أبي العالية.

وهذا القول له سبب، وإنما قاله ابن عباس وأبو العالية الرياحي بعد مقتل عثمان وظهور الفرق؛ فأرادا أن يبيّنا للناس أن الصراط المستقيم ما كانت الأمة مجتمعة عليه في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر

وعمر ليحذرا بذلك مما أُحدثَ بعده؛ فإنَّ كلّ تلك الفرق كانت تقول بالانتساب إلى الإسلام.

قال عاصم الأحول: (قال لنا أبو العالية: «**تعلموا الإسلام فإذا تعلمتموه فلا ترغبوا عنه، وعليكم بالصراط المستقيم فإنه الإسلام، ولا تحرفوا الصراط يمينا وشمالا، وعليكم بسنة نبيكم صلى الله عليه وسلم والذي كانوا عليه من قبل أن يقتلوا صاحبهم ويفعلوا الذي فعلوا، فإنا قد قرأنا القرآن من قبل أن يقتلوا صاحبهم ومن قبل أن يفعلوا الذي فعلوا بخمس عشرة سنة، وإياكم وهذه الأهواء التي تلقي بين الناس العداوة والبغضاء**».

قال: فأخبرت به الحسن فقال: «**صدق ونصح**».

قال: وحدثت به حفصة بنت سيرين فقالت لي: بأهلي أنت هل حدثت بهذا محمدا؟ قلت: لا، قالت: فحدّثه إياه) رواه محمد بن نصر المروزي في كتاب "السنة".

ولهذا اشتهر هذا القول عن أبي العالية مع تصريحه بأنّ الصراط المستقيم هو الإسلام.

القول الخامس: هو الحقّ، وهو قول مجاهد بن جبر رواه ابن أبي حاتم.

وهذا القول حقيقته بيان وصف هذا الصراط المستقيم بأنَّه الحقّ، لأنّ كلَّ ما اتّبع سواه فهو باطل.

فهذه الأقوال الخمسة هي المأثورة عن الصحابة والتابعين في بيان المراد بالصراط المستقيم.

قال ابن كثير: (وكلّ هذه الأقوال صحيحةٌ، وهي متلازمةٌ، فإنّ من اتّبع النّبيّ صلّى اللهّ عليه وسلّم، واقتدى باللّذين من بعده أبي بكرٍ وعمر، فقد اتّبع الحقّ، ومن اتّبع الحقّ فقد اتّبع الإسلام، ومن اتّبع الإسلام فقد اتّبع القرآن، وهو كتاب اللهّ وحبله المتين، وصراطه المستقيم، فكلّها صحيحةٌ يصدّق بعضها بعضًا، ولله ّالحمد)ا.هـ.

ومما ينبغي التنبّه له أن بعض هذه الأقوال تجوّز في اختصارها وروايتها بالمعنى بعض المفسّرين؛ حتى زعم بعضهم أن الصراط المستقيم هو حبّ أبي بكر وعمر، وهذا نقل مخلّ، وإن كان حبّ الشيخين من الدين، لكن الأمانة في نقل الأقوال تقتضي الإتيان بنصّها أو التعبير عنها بما لا يخلّ بالمعنى.

ولذلك ينبغي لطالب علم التفسير إذا تجاوز مرحلة المتوسّطين فيه أن لا يكتفي بما يُنقل من أقوال السلف في التفاسير المتأخرّة، بل ينبغي له أن يرجع إلى المصادر الأصلية، فيأخذ عباراتهم بنصّها، ويميّز ما يصحّ مما لا يصحّ؛ فتندفع عنه بذلك إشكالات كثيرة سببها النقل المخلّ، وحذف الأسانيد، والتوسّع في استخراج الروايات.

معنى التعريف في الصراط المستقيم:

التعريف في الصراط للعهد الذهني الذي يفيد الحصر؛ فهو صراط واحد لا غير.

والتعريف هنا مع إفادته الحصر يفيد معنى التشريف والتفضيل والكمال، وهذا كما تقول للطبيب: أعطني الدواء الناجع؛ فهو أبلغ من قولك: أعطني دواءً ناجعاً.

فالأول يفيد أنك تطلب منه أفضل ما لديه، وهو الدواء الذي يكون أحقّ بالتعريف مما دونه من الأدوية.

معنى وصف الصراط بالاستقامة:

إذا قيل: إنَّ الصراط في اللغة لا يكون إلا مستقيماً؛ فوصفه بأنَّه مستقيم في هذه الآية وصف كاشف للتأكيد على استقامته، وهذا كما يؤكَّد وصف الاستقامة بانتفاء العوج؛ فتقول: طريق مستقيم غير معوجّ، فنفي العوج وصف مؤكّد للاستقامة، وتقول: رجل صادق غير كاذب، فنَفْي الكذب عنه تأكيد لوصفه بالصدق، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا﴾ وقوله: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾، وقوله: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾.

وإذا قيل: إن وصف الصراط بالاستقامة معنى زائد؛ فالوصف هنا مؤكّد للتقييد المستفاد من التعريف في لفظ «الصراط»؛ فالتعريف في «الصراط» للعهد الذهني، وهو منصرف إلى صراط معروف باستقامته؛ فالنصّ على وصفه بالاستقامة تستفاد منه التوكيد.

فهذا من جهة التخريج البياني لمعنى وصف الصراط هنا بالاستقامة.

ومن جهة أخرى فإنّ هذا الوصف يفيد بأنَّ هذا الصراط صوابٌ كلّه لا خطأ فيه ولا ضلال، وأنَّ من هُدي إليه فقد هدي للحقّ والدين القيّم، قال ابن جرير رحمه الله: (وإنّما وصفه الله بالاستقامة، لأنّه صوابٌ لا خطأ فيه).

الباب الحادي عشر: تفسير قول الله تعالى:
﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾

مقصد الآية:

هذه الآية بيان للآية السابقة، وقد تضمَّنت على وجازة ألفاظها أحسن التعريف بالصراط المستقيم، وبيان سبب سلوكه، وأحوال سالكيه وثوابهم، وما يقتضيه هذا السبب من الواجبات، وبيّنت أنواع مخالفيه، وأحوالهم وعقوباتهم؛ ومناسبة عقوباتهم لأسباب مخالفاتهم، ببيان بديع محكم غاية الإحكام.

بيان معاني الإنعام في القرآن:

الإنعام يأتي في القرآن على معنيين:

المعنى الأوَّل: إنعام عامّ، وهو إنعام فتنة وابتلاء، كما في قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ١٥ ...﴾، وقوله: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭۚ بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٩﴾.

وهذا الإنعام عام للمؤمنين والكافرين كما قال تعالى: ﴿كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ٢٠﴾.

وهذا الإنعام حجة على العباد ودليل على المنعم جل وعلا ليخلصوا له العبادة ويشكروه على نِعَمِه كما بيَّن الله تعالى ذلك بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٣﴾.

وقال: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٥١ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ٥٢ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ٥٣ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٥٤ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٥٥﴾.

والنوع الثاني: الإنعام الخاص، وهو إنعام منَّة واجتباء، وهو الإنعام بالهداية إلى ما يحبه الله عز وجل ويرضاه من الأقوال والأعمال، وما يمنُّ به على بعض عباده من أسباب فضله ورحمته وبركاته.

والإنعام المقصود هنا هو الإنعام الخاص بالهداية والتوفيق والاجتباء، وهو المقصود في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ٧٠﴾، وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا ۩ ٥٨﴾.

بيان معنى الإنعام في هذه الآية:

إذا تبيّن ما تقدّم فالمراد بالإنعام في هذه الآية الإنعام الخاصّ بالهداية الخاصة والتوفيق والاجتباء والإعانة وصرف المعوّقات والوقاية من الفتن وكيد الشيطان وشرّ النفس.

فالإنعام في هذه الآية شامل لأسباب الهداية وأحوالها وثمراتها؛ فإنَّ العبد يحتاج إلى إنعام يعرّفه بسبيل الهدى ويبصّره به، وإنعام لإرادة اتّباع الهدى، وإنعام لإعانته على سلوك سبيله وصرف القواطع والمعوّقات عنه، وإنعام بتثبيته وتأييده حتى يجد ثمرة هدايته، وإنعام بتوفيقه للمداومة على سلوك هذا الصراط حتى يلقى ربَّه جلَّ علا وهو راضٍ عنه.

فإنعام الله تعالى على عبده في هدايته إلى صراطه المستقيم يشمل كلَّ ما ذُكِر وغيره مما لا يحيط به العبد علماً؛ ولو ذهب يعدّد هذه النعم لم يحصها، فألهمه الله وصفاً جامعاً شاملاً رضيه سبحانه وتعالى وتقبّله من عباده وأجابهم وأثابهم عليه، والله تعالى محيط بكلّ ما يحتاجه العبد من نعمه ليهتدي بهداه ويفوز برضاه ويسلم من سخطه وعقابه؛ فكان قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ كافياً في وصف الصراط المستقيم الذي يريد الهداية إليه وفيه.

المراد بالذين أنعم الله عليهم:

الذين أنعم الله عليهم قد بيّنهم الله تعالى بقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ٧٠﴾.

فهذه الآية تضمّنت بيان أصناف الذين أنعم الله عليهم، وأنّهم على درجات في هذا الإنعام؛ فمن الدرجات ما اختصّ الله أنبياءه ورسله، ومن هذه الدرجات ما جعل الأمّة تتفاضل في طلبه وإدراكه.

وكل صنف من هؤلاء قد فضّل الله بعض أهله على بعض؛ حتى الرّسل كما دلّ على ذلك قول الله تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾، فهم

وإن كانوا في درجة الرسالة؛ إلا أن بينهما تفاضلاً عظيماً فيما اختصّ به بعضهم على بعض، ففضّل أولى العزم من الرسل على غيرهم، وفضّل بعضهم بأن كلّمهم، وفضّل نبينا محمدٍ صلى الله عليه وسلم وإبراهيم عليه الصلاة والسلام بأن اتّخذهما خليلين، وفضّل نبيّنا صلى الله عليه وسلم بفضائل عظيمة من المقام المحمود والوسيلة والشفاعة الخاصة وغيرها مما اختصه الله به دون سائر النبيين والمرسلين.

فإذا كان هذا التفاضل جارياً في أفضل الدرجات وهي درجة النبوّة؛ فهو كذلك في سائر الدرجات.

فالصدّيقون يتفاضلون، والشهداء يتفاضلون، والصالحون كذلك يتفاضلون تفاضلاً عظيماً في وصف الصلاح؛ فمنهم من يكون له أصل الصلاح، وهو ما يصحّ به إسلامه؛ فيكون موعوداً بالجنّة، ومنهم من يكون من المحسنين في صلاحهم؛ فيكون من أهل الدرجات العلى.

تنوّع عبارات السلف في بيان المراد بالذين أنعم الله عليهم:

وقد تنوّعت عبارات السلف رحمهم الله تعالى في بيان المراد بالذين أنعم الله عليهم:

- فروى بشر بن عمارة، عن أبي روقٍ، عن الضّحّاك، عن ابن عبّاسٍ في قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ قال: «**طريق من أنعمت عليهم بطاعتك وعبادتك من الملائكة والنّبيّين والصّدّيقين والشّهداء والصّالحين، الّذين أطاعوك وعبدوك**». رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

- وقال الربيع بن أنس البكري: النبيون.

- وقال مجاهد: هم المؤمنون، وهي رواية ابن جريج عن ابن عباس، ولم يدرك، وإنما أخذ ابن جريج عن أصحاب مجاهد.
- وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: (النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه) رواه ابن جرير.
- وقال وكيع بن الجراح: ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ المسلمين.

وهذه الأقوال لا تعارض بينها، وهي من باب التفسير بالمثال لتوضيح المعنى للسائل والمستمع، فيقع الاختلاف في اللفظ بحسب سؤال السائل ومقتضى الخطاب والحاجة إلى البيان، فيذكر المفسّر بعض معنى الآية بما يفيد السائل والمستمع، لا على أنَّ الآية لا تحتمل من المعنى إلا ما ذكر.

وكلّ هؤلاء من طبقات الذين ذكرهم الله في سورة النساء من الذين أنعم الله عليهم.

الحكمة من حذف متعلّق الإنعام في هذه الآية:

معنى متعلّق النعمة يتبيّن بسؤال: أنعم الله عليهم بماذا؟

وما الحكمة من عدم التصريح به مع الحاجة إلى معرفته؟

وكلّ حذف في القرآن فله حكمة، ولذلك اعتنى أصحاب التفسير البياني بمسائل الحذف في القرآن، واجتهدوا في التعرّف على دلائلها، وأنواعها، وتلمّسوا الحِكَم من الحذف في القرآن الكريم، وخرجوا بأقوال تدهش لها العقول من حسن بيان القرآن وإحكامه.

وقد يقع في كلام بعضهم شيء من التكلف غير مقبول، لكن ما كان من كلامهم صحيحاً في نفسه، وله وجه صحيح في الاستدلال، فلا شكّ في اعتباره.

ومن ذلك حذف متعلّق الإنعام في هذه الآية؛ والأظهر أنَّ الحذف للدلالة على العموم في كلّ ما من شأنه حصول تمام الهداية، وقد تقدّم بيان ما يحتاجه العبد من النعم العظيمة لتتمّ له نعمة الهداية.

ولما يحتاجه العبد من الهدايات الكثيرة في كلّ شأن من شؤونه.

وهذا نظير حذف متعلّق أفعل التفضيل في قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ وذلك لإرادة العموم؛ أي أقوم في كل شيء يُحتاج إليه من أبواب الدين في العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق والسلوك والدعوة والسياسة وغيرها مما تتعلق به حاجة الفرد والأمة في الهداية إلى ما ينفع ويقرب إلى الله عز وجل، وتتحقق به النجاة والسلامة مما يُخشى ضرره.

تنبيه هذه الآية على سبب الهداية:

هذه الآية فيها تنبيه على سبب الهداية، وأنها لا تحصل إلا بإنعام الله تعالى على عبده، وأن العبد لولا إنعام الله عليه لما كان له أن يهتدي لمعرفة الحق، ولا لإرادة اتّباع الهدى، ولا للثبات على الهداية.

قال ابن جرير رحمه الله: (وفي هذه الآية دليلٌ واضحٌ على أنّ طاعة اللهّ جلّ ثناؤه لا ينالها المطيعون إلاّ بإنعام اللهّ بها عليهم وتوفيقه إيّاهم لها، أوَلا يسمعونه يقول: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾؟!!

فأضاف كلّ ما كان منهم من اهتداءٍ وطاعةٍ وعبادةٍ إلى أنّه إنعامٌ منه عليهم؟)ا.هـ.

بيان تمام نعمة الله تعالى على هذه الأمة:

قد أتمّ الله تعالى علينا نعمته بفضله ورحمته فهي نعمة تامّة غير ناقصة كما قال الله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾.

فالمراد بالنعمة هنا نعمة الهداية والبيان لما يحبّه الله عزّ وجلّ ويرضاه في كلّ شأن من شؤون المسلمين؛ فلم يترك الله أمراً يحتاج الناس فيه إلى بيان الهدى إلا وبيّنه علم ذلك من علمه وجهله من جهله.

ومع تمام هذه النعمة فإنَّ المسلمون يتفاضلون في إدراك نصيبهم منها كلّ بحسب مبلغه من العلم والفقه في الدين.

وتمام هذه النعمة له أثر عظيم على نفس المؤمن إذ يطمئنّ به إلى أنَّ ما يطلبه قد تكفّل الله ببيانه وأتمّ النعمة به؛ فيحمله ذلك على تدبّر القرآن والتفقّه فيه وفي أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم حتى يزداد نصيبه من هذه النعمة العظيمة، ويجد ما يحتاج إليه من معرفة الهدى.

بيان ما يقتضيه وصف الإنعام:

ذكر الإنعام في هذه الآية فيه تنبيه على وجوب شكر النعمة، فالمؤمن اللبيب إذا قرأ هذه الآية؛ علم أنَّه يطلبُ نِعمةً تقتضي شكراً، فيعزم على شكر الله تعالى عند طلبه؛ فيوفّق بصلاح نيّته وصدقه وإخلاصه إلى شكر

هذه النعمة؛ فيكون موعوداً بمزيدٍ من فضل الله ورحمته وبركاته، ولا يزال يسأل ربّه من نعمه، ويشكره على إنعامه، وربّه يكرمه ويزيده من فضله حتى يبلغ الدرجات العلى.

الحكمة من الإضافة في قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾:

أثار ابن القيّم رحمه الله سؤالاً عن فائدة إضافة الصراط إلى الاسم الموصول المبهم دون أن يقول: (صراط النبيين والمرسلين) مثلاً.

وأجاب على هذا السؤال جواباً حسناً، وتلخيصه أن فيه ثلاث فوائد:

إحداها: التنبيه على علّة كونهم من المُنعم عليهم، وهي الهداية؛ فبهداية الله لهم كانوا من المنعم عليهم.

والثانية: قطع التعلّق بالأشخاص ونفي التقليد المجرّد عن القلب؛ واستشعار العلم بأنّ اتّباع من أمرنا باتّباعهم إنما هو امتثال لأمر الله.

والثالثة: أن الآية عامّة في جميع طبقات المنعَم عليهم؛ وأنه تعالى هو الذي هدى إلى جميع تفاصيل الطريق التي سلكها كلّ من أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

فكان ذكرهم بالوصف الجامع أوجز وأبلغ وأعمّ فائدة.

فائدة إسناد الإنعام في قوله: ﴿أَنْعَمْتَ﴾ إلى ضمير الخطاب:

وبيان هذا السؤال أنه تعالى قال: ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ولم يقل المنعَم عليهم كما قال: ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾.

وكلام أهل العلم في بيان الحكمة من ذلك يتلخّص في أمور:

أولها: توحيد الربّ جلّ وعلا، والتصريح بذكر إنعامه وحدَه، وأنّه لولا إنعامه لم يهتدِ أحد إلى الصراط المستقيم، فكان ذكر الضمير أدلَّ على التوحيد من قول (المنعَم عليهم).

والثاني: أنَّ ذلك أبلغ في التوسّل والثناء على الله تعالى؛ فإنّ ذلك يقتضي أنَّ كل مهتدٍ إلى الصراط المستقيم فإنّما اهتدى بما أنعم الله عليه، فيتوسّل بسابق إنعامه على كلّ من أنعم عليهم بأن يُلحقه بهم وأن يُنعم عليه كما أنعم عليهم.

قال ابن عاشور: (فيقول السائلون: اهدنا الصراط المستقيم الصراط الذين هديت إليه عبيد نعمك مع ما في ذلك من التعريض بطلب أن يكونوا لاحقين في مرتبة الهدى بأولئك المنعم عليهم، وتهمُّما بالاقتداء بهم في الأخذ بالأسباب التي ارتقوا بها إلى تلك الدرجات)ا.هـ.

والثالث: أن هذا اللفظ أنسب للمناجاة والدعاء والتقرب إلى الله تعالى والتضرّع إليه.

والرابع: أنَّ مقتضى شكر النعمة التصريح بذكر المنعِم ونسبة النعمة إليه.

قال ابن القيّم رحمه الله: (الإنعام بالهداية يستوجب شكر المنعِم بها، وأصل الشكر ذكرُ المنعِم والعمل بطاعته، وكان من شكره إبراز الضمير المتضمّن لذكره تعالى الذي هو أساس الشكر وكان في قوله: ﴿أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ من ذكره وإضافة النعمة إليه ما ليس في ذكر «المنعَم عليهم» لو قاله فضمّن هذا اللفظ الأصلين وهما الشكر والذكر المذكوران في قوله: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢﴾)ا.هـ.

وقد ذكر ابن القيّم رحمه الله وغيره أوجهاً أخرى في الجواب على هذا السؤال.

الحكمة من تكرار ذكر الصراط:

وتوضيح هذا السؤال: أن قوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ..﴾ فيه ذِكْرُ الصراط أولاً معرّفاً باللام، ثمّ ذكره معرّفاً بالإضافة؛ ولم يختصر ذكر الصراط مع تقارب الموضعين.

فيقال في جواب هذا السؤال: أنّ ذكره في كلّ موضع له حكمة ومناسبة وفائدة لا تتحقق في غيره.

ففي الموضع الأول كان الأهمّ للسائل أن يُهدى إلى الصراط المستقيم، وهو الطريق الصحيح السهل المفضي إلى العاقبة الحسنة، وأنه طريق واحد كما دلّ عليه معنى التعريف والعهد الذهني.

وفي الموضع الثاني: أتى ذكر الصراط معرّفاً بالإضافة إلى الذين يُستأنس باتّباعهم واقتفاء آثارهم وليفيد بأنَّه صراط آمن مسلوك قد سلكه الذين أنعم الله عليهم ففازوا بفضل الله ورحمته وحسن ثوابه.

قال ابن القيّم رحمه الله: (وهذا كما إذا دللت رجلا على طريق لا يعرفها وأردت توكيد الدلالة وتحريضه على لزومها وأن لا يفارقها؛ فأنت تقول: (هذه الطريق الموصلة إلى مقصودك)، ثم تزيد ذلك عنده توكيدا وتقوية فتقول: (وهي الطريق التي سلكها الناس والمسافرون وأهل النجاة)، أفلا ترى كيف أفاد وصفك لها بأنها طريق السالكين الناجين قدرا زائدا على وصفك لها بأنها طريق موصلة وقريبة سهلة مستقيمة فإن النفوس مجبولة على التأسّي والمتابعة فإذا ذُكِرَ لها من تتأسّى به في سلوكها أَنِسْتَ واقتحمتها، فتأمّله)ا.هـ.

ولابن عاشور كلام حسن في جواب هذا السؤال أيضاً وخلاصته أن فيه تفصيلاً بعد إجمال مفيد؛ ليتمكّن الوصف الأوّل من النفوس، ثمّ يعقب بالتفصيل المبيّن لحدود الصراط وعلاماته وأحوال السالكين وأحكامهم.

الباب الثاني عشر: تفسير قول الله تعالى:
﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾

هذه آية مستقلة عند جمهور أهل العدد، وفي العدّ المكيّ والكوفي قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ آية واحدة.

وفي تفسير هذه الآية مسائل كثيرة ذكرها المفسّرون في تفاسيرهم، والغرض في هذا الباب تلخيص أقوال أهل العلم في المسائل المتعلّقة بتفسير هذه الآية وترك التعرّض لما ليس له صلة ببيان معاني الآية وهداياتها.

الأحاديث المروية عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في تفسير هذه الآية:

ذكر المفسّرون وأهل الحديث ثلاثة أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم عند تفسيرهم هذه الآية:

الحديث الأوَّل: حديث عديّ بن حاتم الطائي رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضلال». رواه أحمد والترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن خزيمة في التوحيد، وابن حبان والطبراني في الكبير من طرق عن سماك بن حرب، عن عباد بن حبيش، عن عدي به، وعباد بن حبيش مجهول.

ورواه ابن جرير الطبري والطبراني في "الأوسط" وتمام في فوائده من طريق عبد الله بن جعفر الرقّي عن سفيان بن عيينة عن إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي عن عديّ بن حاتم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «المغضوب عليهم: اليهود، والضالين: النصارى».

وهذا الإسناد ظاهره الصحّة ورجاله ثقات، لكن له علة وهي أن سعيد بن منصور رواه عن سفيان بن عيينة عن إسماعيل بن أبي خالد مرسلاً، وهو كذلك في تفسير سفيان بن عيينة كما في "الدر المنثور".

وهو جزء من حديث طويل في خبر إسلام عديّ بن حاتم رضي الله عنه.

والحديث الثاني: حديث بديل بن ميسرة العقيلي، قال: أخبرني عبد الله بن شقيق، أنه أخبره من سمع النبي صلى الله عليه وسلم وهو بوادي القرى، وهو على فرسه، وسأله رجل من بلقين، فقال: يا رسول الله، من هؤلاء؟

قال: «هؤلاء المغضوب عليهم»، وأشار إلى اليهود.

قال: فمن هؤلاء؟

قال: «هؤلاء الضالون» يعني النصارى.

قال: وجاءه رجل، فقال: استشهد مولاك، أو قال: غلامك فلان، قال: «بل يجر إلى النار في عباءة غلها» رواه عبد الرزاق وأحمد ومحمد بن نصر، وأبو يعلى.

ورواه ابن مردويه في تفسيره -كما في "تفسير ابن كثير" - من طريق إبراهيم بن طهمان، عن بديل بن ميسرة، عن عبد الله بن شقيق، عن أبي ذر قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المغضوب عليهم، قال: «اليهود»، قلت: الضالين؟ قال: «النصارى».

وقد حسّن الحافظ ابن حجر هذا الإسناد.

والحديث له طرق أخرى فيها اضطراب فمنها الموصول والمنقطع، وتخريجها يطول.

والحديث الثالث: حديث سليمان بن أرقم البصري عن الزهري، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتحة الكتاب، ثم قال: «قال ربكم: ابنَ آدم، أنزلت عليك سبع آيات، ثلاث لي، وثلاث لك، وواحدة بيني وبينك، فأما التي لي: فـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾، والتي بيني وبينك: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ منك العبادة، وعليَّ العون لك، وأما التي لك: فـ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ هذه لك: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾: اليهود، ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾: النصارى» رواه الطبراني في الأوسط.

وسليمان بن أرقم متروك الحديث، قال فيه أحمد: (لا يسوى حديثه شيئاً)، وقال يحيى بن معين: (ليس بشيء، ليس يسوى فلساً).

وأبو سلمة لم يسمع من أبيّ بن كعب، إنما ولد أبو سلمة عام ٢٢هـ.

لكن العمدة على حديث عديّ بن حاتم رضي الله عنه، فقد صححه جماعة من أهل العلم، واستشهد لصحة معناه من القرآن جماعة من أهل العلم، ومن أوفاهم عبارةً شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله؛ إذ قال: (وقد دل كتاب الله على معنى هذا الحديث، قال الله سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾، والضمير عائد إلى اليهود، والخطاب معهم كما دل عليه سياق الكلام.

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ وهم المنافقون الذين تولوا اليهود باتفاق أهل التفسير، وسياق الآية يدل عليه.

وقال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وذكر في آل عمران قوله تعالى: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وهذا بيان أن اليهود مغضوب عليهم.

وقال في النصارى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾.

وهذا خطاب للنصارى كما دل عليه السياق، ولهذا نهاهم عن الغلو، وهو مجاوزة الحد، كما نهاهم عنه في قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥ﴾ الآية.

واليهود مقصرون عن الحق، والنصارى غالون فيه) اهـ.

أقوال السلف في المراد بالمغضوب عليهم وبالضالين:

روي عن ابن مسعود وابن عباس تفسير المغضوب عليهم بأنّهم اليهود، وتفسير الضالين بأنّهم النصارى.

فروى بشر بن عمارة عن أبي روق عن الضّحّاك، عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ قال: «**يعني اليهود الّذين غضب اللهّ عليهم**».

﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ قال: «**وغير طريق النّصارى الّذين أضلّهم اللهّ بفريتهم عليه**».

قال: «**يقول: فألهمنا دينك الحقّ، وهو لا إله إلاّ اللهّ وحده لا شريك له، حتّى لا تغضب علينا كما غضبت على اليهود، ولا تضلّنا كما أضللت النّصارى؛ فتعذّبنا بما تعذّبهم به. يقول: امنعنا من ذلك برفقك ورحمتك وقدرتك**». رواه ابن جرير وابن أبي حاتم مفرقاً.

وهذا الأثر جزء من تفسير الضحاك بن مزاحم الهلالي، وهو لم يلقَ ابن عباس، وإنما أخذ تفسيره عن سعيد بن جبير وعن عبد الملك بن ميسرة وغيرهما وساق تفسيره مساقاً واحداً من غير تسمية الواسطة بينه وبين ابن عباس؛ فلذلك لا يجزم بثبوت نصّ التفسير عن ابن عباس من طريقه إذا تفرّد به، وإن كان الضحاك صدوقاً في نفسه إلا أنّ الآفة قد تكون من الواسطة، ولذلك يقع فيما يرويه عن ابن عباس في التفسير ما يُنكر.

وقد روي نحو هذا التفسير مختصراً عن ابن عباس من طريق حجاج بن أرطأة عن ابن جريج عن ابن عباس، وهو منقطع.

لكن صحّ هذا التفسير عن مجاهد بن جبر وهو من خاصة أصحاب ابن عباس ومن أعلمهم بالتفسير.

وابن جريج أخذ التفسير عن أصحاب مجاهد.

وروي هذا القول عن ابن مسعود ولا يصحّ عنه، وإنما نُسب إليه لما رواه ابن جرير في تفسيره من طريق السدّي الكبير عن أبي مالكٍ وعن أبي صالحٍ، عن ابن عبّاسٍ، وعن مرّة الهمدانيّ، عن ابن مسعودٍ، وعن ناسٍ من أصحاب النّبيّ صلّى اللهّ عليه وسلّم في قوله تعالى: «﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ **هم اليهود،** ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ **هم النّصارى**».

وهذا الإسناد ليس بمتحقق أنه لهذا الأثر، وإنما هو إسناد تفسير السدّي كلّه؛ فإنّه جمع صحيفة أبي مالك الغفاري عن ابن عباس في التفسير، وصحيفة أبي صالح مولى أمّ هانئ عن ابن عباس، وصحيفة مرة الهمداني عن ابن مسعود، وجمع معها نسخاً أخرى يرويها بأسانيده عن بعض الصحابة رضي الله عنهم، ولم يبيّن أسانيده إلى هؤلاء الصحابة، وقد يكون فيمن روى عنهم الضعيف والمتروك، ولم يميز روايات بعضهم من بعض، وإنما وأدخل هذه الصحف بعضها في بعض، وكمّل بعضها ببعض، وساقها مساقاً واحداً من غير تمييز، ووضع لهذا الكتاب إسناداً واحداً في أوّله؛ فكان ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما يروون ما يذكره السدّي في تفسيره مفرّقاً بإسناد واحد مختصر: «عن السدي عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس - وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود - وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم»، ويكررون هذا الإسناد في كلّ ما يروونه من تفسير السدي.

ولذلك فلا يصحّ أن ينسب ما قاله في كتابه ذلك إلى ابن مسعود ولا إلى ابن عباس، وإنما ينسب إلى السدّي نسبة اختيار.

وأما ما يروى عن السدّي بأسانيد أخرى من غير هذا الكتاب فيختلف حكمه، والسدّي ضعّفه بعض أهل الحديث، ووثّقه الإمام أحمد، وروى له مسلم في صحيحه، وهو تابعيّ رأى أنس بن مالك وروى عنه؛ فيُقبل من رواياته ما ليس له علة أخرى في الإسناد، وليس فيه ما يُنكر من جهة المتن.

فهذا ما روي عن الصحابة رضي الله عنهم في هذه المسألة.

وأما التابعون: فصحّ هذا القول عن مجاهد، وزيد بن أسلم، والسدي، والربيع بن أنس البكري.

وقال به من تابعي التابعين: عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وآثارهم مذكورة بأسانيدها في جامع ابن وهب وتفسير ابن جرير وتفسير ابن أبي حاتم.

وذكر السيوطي في الدرّ المنثور أنّ عبد بن حميد رواه عن سعيد بن جبير.

قال ابن أبي حاتم في تفسيره: (ولا أعلم بين المفسرين في هذا الحرف اختلافا).

بيان المراد بالمغضوب عليهم وبالضالين:

صحّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه وصف اليهود بأنَّهم مغضوب عليهم، ووصف النصارى بأنّهم ضالون.

ولذلك توافقت أقوال السلف على تفسير المغضوب عليهم باليهود، وتفسير الضالين بالنصارى.

وهذا لا يقتضي قصر هذا الوصف عليهم؛ لأنه وصف له سبب؛ فمن فعل فعلهم لقي مثل جزائهم.

وقد تظافرت أقوال السلف على:

- أنَّ سبب الغضب على اليهود أنَّهم لم يعملوا بما علموا؛ فهم يعرفون الحقّ كما يعرفون أبناءهم، لكنَّهم أهل عناد وشقاق وكِبْرٍ وحَسَد؛ وقسوة قلب، يكتمون الحقَّ، ويحرفون الكلم عن مواضعه، ويعادون أولياء الله؛ فاستحقّوا غضب الله.

- وأنَّ النصارى ضلوا لأنّهم عبدوا الله على جهل، متبّعين في عباداتهم أهواءهم، مبتدعين في دينهم ما لم يأذن الله به، قائلين على ربّهم ما ليس لهم به علم؛ فكانوا ضُلّالاً لأنّهم ضيّعوا ما أنزل الله إليهم من العلم، ولم يسترشدوا به، وعبدوا الله بأهوائهم، وغلوا في دينهم، واتّخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله؛ بطاعتهم فيما يشرّعون لهم من العبادات، وفي تحريم ما أحلّ الله، وتحليل ما حرّم الله؛ فضلّوا بذلك ضلالاً بعيداً.

التحذير من مشابهة اليهود والنصارى:

وقد صحّ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه حذر أمّته من التشبّه باليهود والنصاري، وأخبر أنَّ من هذه الأمّة من سيتبع سننهم؛ كما في الصحيحين من حديث زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «لتتبعن سنن من كان قبلكم، شبرا شبرا وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم»، قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمن».

وفي "مسند الإمام أحمد" و"سنن أبي داوود" من حديث حسان بن عطية، عن أبي منيب الجرشي، عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من تشبه بقوم فهو منهم».

ولأجل هذا اشتهر تحذير السلف رحمهم الله تعالى من التشبه باليهود والنصارى؛ لئلا يصيب من تشبّه بهم من جنس ما أصابهم من الجزاء.

قال ابن تيمية رحمه الله: (روى الترمذي وغيره عن عدي بن حاتم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون») قال الترمذي: حديث صحيح.

وقال سفيان بن عيينة: (كانوا يقولون من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى).

وكان غير واحد من السلف يقول: (احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل؛ فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون).

فمن عرف الحقَّ ولم يعمل به أشبه اليهود الذين قال الله فيهم: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

ومن عبد الله بغير علم بل بالغلو والشرك أشبه النصارى الذين قال الله فيهم: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٧٧﴾) ا.هـ.

الحكمة من تمييز الفريقين بوصفين متلازمين:

أثار ابن جرير الطبري سؤالاً عن الحكمة من تخصيص اليهود بوصف الغضب عليهم، والنصارى بوصف الضلال مع تلازم الوصفين، وكون الفريقين ضُلالاً مغضوباً عليهم؛ لما تقرّر من أنّ المغضوب عليه ضالّ غير مهتدٍ، وأنّ الضالّ سالكٌ سبيلاً يستحقّ به غضب الله.

ثمّ أجاب على هذا السؤال بجواب تعقّبه فيه ابن عطية وتتابعت أجوبة المفسّرين على هذا السؤال، **وذكروا في أجوبتهم أوجهاً حسنة، وتلخيصها:**

١. أن الله تعالى وَسَم كلَّ طائفة بما تُعرفُ به، حتى صارت كلّ صفة كالعلامة التي تعرف بها تلك الطائفة، وهذا حاصل جواب ابن جرير.

٢. أنَّ أفاعيل اليهود من الاعتداء والتعنّت وقتل الأنبياء وغيرها أوجبت لهم غضباً خاصّا، والنصارى ضلوا من أوّل كفرهم دون أن يقع منهم ما وقع من اليهود، وهذا حاصل جواب ابن عطية.

٣. اليهود أخص بالغضب لأنهم أمة عناد، والنصارى أخص بالضلال لأنهم أمة جهل، وهذا جواب ابن القيّم وتبعه تلميذه ابنُ كثير رحمهما الله.

وقال ابن القيم رحمه الله في "بدائع الفوائد": (الشقاء والكفر ينشأ من عدم معرفة الحق تارة، ومن عدم إرادته والعمل به أخرى..

فكفر اليهود نشأ من عدم إرادة الحق والعمل به، وإيثار غير عليه بعد معرفته؛ فلم يكن ضلالا لا محضاً.

وكفر النصارى نشأ من جهلهم بالحق وضلالهم فيه؛ فإذا تبين لهم وآثروا الباطل عليه أشبهوا الأمة الغضبية وبقوا مغضوباً عليهم ضالين.

ثم لما كان الهدى والفلاح والسعادة لا سبيل إلى نيله إلا بمعرفة الحق وإيثاره على غيره، وكان الجهل يمنع العبد من معرفته بالحق، والبغي يمنعه من إرادته؛ كان العبد أحوج شيء إلى أن يسأل الله تعالى كل وقت أن يهديه الصراط المستقيم تعريفا وبيانا وإرشادا وإلهاما وتوفيقا وإعانة؛ فيعلمه ويعرفه، ثم يجعله مريدا له قاصدا لاتباعه؛ فيخرج بذلك عن طريقة المغضوب عليهم الذين عدلوا عنه على عمد وعلم، والضالين الذين عدلوا عنه عن جهل وضلال)ا.هـ.

٤ . وظهر لي وجه آخر، وهو التنبيه على **سببي سلبِ نعمة الهداية:**

- **فمن ترك العمل بالعلم** استحقّ سلب نعمة الهداية؛ لمقابلته نعمة الله تعالى بما يُغضب الله إذ لم يتّبع الهدى بعد معرفته به؛ كما فعلت اليهود.

- **ومن أعرض عن العلم** الذي جاء من عند الله ضلَّ عن الصراط المستقيم، وابتدع في دين الله ما لم يأذن به الله؛ كما فعلت النصارى.

واستحضار هذا المعنى مما يقوّي في نفس المؤمن الحرص على اتّباع هدى الله واجتناب ما يعرّض العبد للحرمان من نعمة الهداية إلى الصراط المستقيم.

الحكمة من تقديم المغضوب عليهم على الضالين

اشتهرت مسألة الحكمة من تقديم ذكر المغضوب عليهم على الضالين، في سورة الفاتحة، ولم أقف على أوّل من أثار هذه المسألة، لكن عناية المفسّرين بالجواب على هذا السؤال ظاهرة، **وقد ذكروا أوجهاً حسنة في أجوبتهم:**

أحدها: أن ذلك لمراعاة فواصل الآيات، وهذا الجواب وإن كان صحيحاً في نفسه إلا أنّه لا يستقلّ بالجواب إذ لا بدّ من حكمة أخرى غير مجرّد مراعاة الفواصل، وقد ذكره ابن عاشور وجهاً.

والثاني: لأنَّ اليهود متقدمون في الزمان على النصارى، ذكره ابن القيّم وجهاً.

والثالث: لأن اليهود كانوا مجاورين للنبي صلى الله عليه وسلم في المدينة، بخلاف النصارى؛ فقدّمهم لقربهم، وهذا الجواب ذكره ابن القيّم أيضاً، ويشكل عليه أنَّ سورة الفاتحة مكية إلا إذا كان المراد أنَّ منازل اليهود في يثرب أقرب من منازل النصارى في نجران والشام؛ وفيه بعد.

والرابع: أن اليهود أغلظ كفراً من النصارى؛ فبدأ بهم، وهذا الجواب ذكره ابن القيّم رحمه الله، وهو جواب شيخنا ابن عثيمين رحمه الله، قال: (قدم المغضوب عليهم على الضالين؛ لأنهم أشد مخالفة للحق من الضالين؛ فإن المخالف عن علم يصعب رجوعه بخلاف المخالف عن جهل) اهـ.

والخامس: لإفادة الترتيب في التعوّذ؛ لأن الدعاء كان بسؤال النفي؛ فالتدرّج فيه يحصل بنفي الأضعف بعد نفي الأقوى مع رعاية الفواصل، وهذا حاصل جواب ابن عاشور، وهو قريب من الوجه السابق.

والسادس: لأن الغضب يقابل الإنعام، فتقديم ذكر المغضوب عليهم أحسن مقابلة من تقديم ذكر الضالين، وهذا خلاصة جواب أبي حيان الأندلسي في البحر المحيط، وذكر ابن القيّم أنّه أحسن الوجوه: قال: (فقولك: الناس منعم عليه ومغضوب عليه؛ فكن من المنعم عليهم أحسن من قولك: منعم عليه وضال)ا.هـ.

وهو وجه حسن، وأعمّ منه أن يقال: إن تقديم المغضوب عليهم على الضالين فيه **تحقيق المقابلتين**: **المقابلة الخاصة** و**المقابلة العامة**:

- **فالخاصة** بين العمل وتركه.

- **والعامة** بين العلم وعدمه.

وتوضيح ذلك أنَّ الهداية لا تتحقّق إلا بعلم وعمل، والعلم متقدّم على العمل فكانت دائرته مع ما يقابله أعمّ، والعمل بالعلم دائرته مع ما يقابله أخصّ؛ فتحقيق المقابلة الخاصة مقدّم على تحقيق المقابلة العامّة؛ لتتمّ المقابلة الخاصّة أولاً ثم تتمّ بعدها المقابلة العامّة لأنّها أشمل.

والجواب السابع: لأنَّ أوّل ذنب عصي الله به هو من جنس ذنوب المغضوب عليهم؛ لأنَّه عصيان عن علم ومعرفة، وهو إباء إبليس السجود لآدم؛ فناسب تقديم المغضوب عليهم، وهذا الوجه زاده د.فاضل السامرائي على الوجوه المتقدّمة.

الحكمة من إبهام ذكر الغاضب في قوله: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾:

في قول الله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أسند الفعل إليه جلّ وعلا، وقال هنا: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ ولم يقل: (الذين غضبت عليهم).

وهذا السؤال تكلّم في جوابه جماعة من المفسّرين وذكروا في أجوبتهم وجوها عديدة، والأظهر أنَّ ذلك لإفادة عظم شأن غضب الله عليهم، وأنه غضب الملك الجبّار الذي يغضب لغضبه جنوده في السماوات وفي الأرض، فيجد آثار ذلك الغضب في كلّ حال من أحواله.

وهذا نظير بغض الله تعالى لمن يبغض من عباده، كما في "صحيح مسلم" من حديث سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله إذا أحب عبدا دعا جبريل فقال: إني أحب فلانا فأحبه، قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، قال ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبدا دعا جبريل فيقول: إني أبغض فلانا فأبغضه، قال فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء إن الله يبغض فلانا فأبغضوه، قال: فيبغضونه، ثم توضع له البغضاء في الأرض».

وكما في "صحيح ابن حبان" من حديث عثمان بن واقد العمري، عن أبيه، عن محمد بن المنكدر، عن عروة، عن عائشة، قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من التمس رضى الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى الناس عنه، ومن التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس».

والمقصود أنَّ إبهام ذكر الغاضب هنا من فوائده عموم الغاضبين وكثرتهم.

والتعبير بالاسم دون الفعل لما في الاسم من الدلالة على تمكّن الوصف منهم، وأنَّه ملازم لهم، ففيه من المعنى ما لا يفيده قول: (غضبت عليهم) لأنه قد يدلّ على وقوع الغضب مرّة واحدة.

وذكر ابن القيّم رحمه الله تعالى وجهين بديعين آخرين:

أحدهما: أنَّ ذلك جارٍ على الطريقة المعهودة في القرآن من أن أفعال الإحسان والرحمة والجود تضاف إلى الله تعالى، وأفعال العدل والجزاء والعقوبة يُحذف ذكر الفاعل فيها أو يسند الفعل إلى من كان له سبب فيه؛ تأدّباً مع الله جلّ وعلا، ولئلا يقع في بعض النفوس ما لا يصحّ من المعاني التي يُنزّه الله عنها، كما في قول الله تعالى فيما حكاه عن الجنّ ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾.

وقول إبراهيم الخليل: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فأسند الضمير إليه جلَّ وعلا، وقوله: ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ حذف ذكر الفاعل، وقوله: ﴿ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾ أسند الفعل إلى من قام به، ولم يقل (الذين أضللتهم) لئلا يُفهم من ذلك نوع عذر لهم، مع أنّ ضلالهم بقضاء الله وقدره.

ومنها: أنّ ذلك أبلغ في تبكيتهم والإعراض عنهم وترك الالتفات إليهم؛ بخلاف المنعم عليهم ففي إسناد فعل الإنعام إلى الله تعالى في قوله ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ما يفيد عنايته بهم وتشريفهم وتكريمهم.

معنى «لا» في قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾:

لو قيل: (غير المغضوب عليهم والضالين) لأوهم ذلك أن الوصفين لطائفة واحدة؛ فأتي بحرف «لا» للتأكيد على أنه المراد بالضالين طائفة غير الطائفة المعطوفة عليها، وهذا أحسن ما قيل في هذه المسألة، وهو أحد الأوجه التي ذكرها ابن القيّم رحمه الله في بدائع الفوائد.

وقد اختلف أهل اللغة في هذه المسألة على أقوال:

القول الأول: هي زائدة، وهو قول معمر بن المثنى، وردّه الفراء وابن جرير.

والقول الثاني: بمعنى «غير»، والإتيان بها هنا للتنويع بين الحروف، وهذا معنى قول الفراء.

وتشهد له قراءة عمر بن الخطاب رضي الله عنه: [غير المغضوب عليهم . وغير الضالين] وهي قراءة صحيحة الإسناد عنه، لكن أجمع القراء على تركها لإجماع الصحابة رضي الله عنهم على ترك القراءة بما خالف المصحف الإمام.

والقول الثالث: لئلا يتوّهم أن (الضالين عطف على الذين) وهذا قول مكي بن أبي طالب في الهداية وقول الواحدي في البسيط.

قال الواحدي: (لو لم تدخل (لا) لاحتمل أن يكون قوله: (والضالين) منسوقا على قوله: (صراط الذين أنعمت عليهم والضالين)، فلما احتمل ذلك أدخل فيه (لا) ليحسم هذا الوهم)ا.هـ.

والقول الرابع: هي مؤكدة للنفي الذي تضمنه معنى (غير)، وهذا القول ذكره مكي بن أبي طالب وابن القيّم.

والقول الخامس: لإفادة المغايرة الواقعة بين النوعين وبين كلّ نوع بمفرده، أي لئلا يفهم أنّ الصراط الآخر مشترك بين النوعين الآخرين، فدخلت (لا) للتصريح بأنّ المراد صراط غير هؤلاء وغير هؤلاء، وهذا القول ذكره ابن القيّم رحمه الله وجهاً.

الباب الثالث عشر: شرح مسائل التأمين بعد الفاتحة

التأمين هو قول: (آمين)، وهو سنة عند ختم الفاتحة للقارئ والمستمع في الصلاة وخارج الصلاة، وقد ورد في التأمين أحاديث صحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم، وآثار عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان رضي الله عنهم وأرضاهم.

فيُسنّ لمن قرأ الفاتحة أو قُرئت له أن يقول عند ختمها: (آمين).

وهي كلمة دعاء بمعنى (اللهمّ استجب)، وليست من القرآن بإجماع أهل العلم، ولذلك لم يكتبها الصحابة رضي الله عنهم في المصاحف.

وقد روى ابن أبي شيبة من طريق إسرائيل بن يونس عن أبي إسحاق السبيعي، عن أبي ميسرة أن جبريل عليه السلام أقرأ النبيَّ صلى الله عليه وسلم فاتحة الكتاب، فلما قال: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ «قال: قل آمين، فقال: آمين».

وأبو ميسرة هو عمرو بن شرحبيل الهمْداني من أفاضل أصحاب ابن مسعود رضي الله عنه وخاصّتهم، كان من العلماء العباد، ثقة قليل الحديث.

وهذا الخبر على إرساله أخرجه ابن أبي شيبة مختصراً، وأصله خبر طويل معلول، فيه أنّ سورة الفاتحة أوّل ما نزل من القرآن، وقد تقدّم الكلام عليه عند الحديث عن مسائل نزول سورة الفاتحة.

وليس في هذا الخبَرَ دلالة على أنّ «آمين» من القرآن، وإنما غايته أن يدلّ على أنّ من سنن قراءة الفاتحة إذا ختمها القارئ أن يقول: «آمين».

ولأهل العلم من المفسّرين والمحدّثين والفقهاء واللغويين كلام كثير في التأمين متفرّق في كتبهم، ومن أهمّ ما ذكروا من المسائل في التأمين:

١. معنى قول «آمين».

٢. اللغات في «آمين»

٣. هل آمين من أسماء الله؟

٤. معنى قولهم: «آمين وبسلاً»

٥. حكم التأمين بعد الفاتحة.

٦. مدّ الصوت بآمين.

٧. بيان فضل التأمين.

٨. معنى موافقة الملائكة في التأمين.

٩. حرص الصحابة رضي الله عنهم على التأمين.

١٠. التنبيه على ضعف بعض المرويات في فضل التأمين.

١١. هل المؤمّن داعٍ؟

١٢. الدعاء قبل التأمين

١٣. هل يجهر الإمام بالتأمين؟

١٤. هل يجهر المأموم بالتأمين؟

١٥. هل يجهر المنفرد بالتأمين؟

١٦. هل يؤمّن القارئ في غير الصلاة؟

١٧. إذا لم يسمع المأمومُ قراءةَ الإمامِ فهل يؤمّن؟

١٨. متى يقول المأموم «آمين» ؟

١٩. حكم من نسي قول آمين.

٢٠. حكم قول «آمين ربّ العالمين».

١. معنى قول «آمين»

آمين اسم فعل، يفيد طلب الاستجابة؛ فهو بمعنى «اللهم استجب»، و«ربّنا استجب لنا» ونحو ذلك، كما أنّ «صه» اسم فعل يفيد طلب السكوت، و«مه» اسم فعل يفيد طلب الكفّ، وهكذا.

وهذا قول جمهور اللغويين والمفسّرين، وهو الصحيح إن شاء الله.

قال أبو إسحاق الزجاج: (معناه «اللهم استجب» وهما موضوعان في موضع اسم الاستجابة كما أن «قولنا: (صه) موضوع موضع سكوتاً) ا.هـ.

وقال ابن عطية: (ومعنى «آمين» عند أكثر أهل العلم: «اللهم استجب»، أو «أجب يا رب»، ونحو هذا، قاله الحسن بن أبي الحسن وغيره، ونصَّ عليه أحمد بن يحيى ثعلب وغيره)ا.هـ.

وقال أبو البقاء العكبري: (وأما «آمين» فاسْمٌ للفعل، ومعناها «اللهم استجب»، وهو مبني لوقوعه موقع المبني، وحرك بالفتح لأجل الياء قبل

آخره، كما فتحت «أين»، والفتح فيها أقوى؛ لأن قبل الياء كسرة، فلو كُسِرَت النون على الأصل لوقعت الياء بين كسرتين)ا.هـ.

وفي معنى «آمين» أقوال لأهل العلم:

القول الأول: آمين بمعنى «ربّ افعل» **وهذا القول روي عن ابن عباس من طريقين واهيين:**

أحدهما: طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس، ذكره السيوطي في الدر المنثور.

والآخر: طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، رواه الثعلبي في تفسيره.

القول الثاني: معناها «اللهم استجب» وهذا القول رواه ابن الأنباري وابن شاهين عن الحسن البصري.

قال ابن الأنباري: (أَخبرني أَبو علي المقرئ، قال: حدَّثنا الحسن بن الصباح، قال: حدَّثنا الخفاف، قال: قال إِسماعيل [بن مسلم]: كان الحسن إِذا سُئل عن تفسير آمين، قال: اللهمَّ استجب)ا.هـ.

وروى ابن شاهين في تفسيره عن الحسن البصري نحوه كما في "الدرّ المنثور".

وقال به: أبو إسحاق الزجاج، وابن الأنباري وأبو منصور الأزهري وعليه أكثر علماء اللغة.

القول الثالث: آمين اسم من أسماء الله، وهذا القول مروي عن أبي هريرة وهلال بن يساف ومجاهد وحكيم بن جبير.

ومال إليه من علماء اللغة: ابن قتيبة الدينوري، وابن خالوية، وأبو علي الفارسي، وغيرهم.

قال ابن خالويه: (ومعنى «آمين»: يا أمين أي يا الله، فأمين اسم من أسماء الله).

وأنكره جماعة من الأئمة، وعدّوه خطأ، وسيأتي بيان علّته إن شاء الله تعالى.

قال النووي في "التبيان": (قيل: هو اسم من أسماء الله تعالى وأنكر المحققون والجماهير هذا)ا.هـ.

القول الرابع: معناها «كذلك يكون»، وهذا القول ذكره الثعلبي عن ابن عباس وقتادة من غير إسناد، وذكره ابن الأنباري في الزاهر عن ابن عباس والحسن من غير إسناد أيضاً.

وقريب منه قول الجوهري في "الصحاح": (ويقال معناه: كذلك فليكن).

وقريب منه ما ذكره ابن قتيبة في "غريب القرآن" أنها بمعنى (كذلك فعل الله).

وذكر هذا القول أيضاً: أبو سليمان الخطابي في "شرح صحيح البخاري"، وابن سيده في "المحكم"، وجماعة من أهل اللغة والتفسير.

القول الخامس: هي آمّين، أي: قاصدين إليك.

قال ابن كثير: (نقل أبو نصرٍ القشيريّ عن الحسن وجعفرٍ الصّادق أنّهما شدّدا الميم من آمين مثل: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾)ا.هـ.

وأبو نصر القشيري هو عبد الرحيم بن أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري، وهو أشعريّ متكلّم، معدود من فقهاء الشافعية، وله تفسير مفقود، أكثر القرطبي من النقل عنه.

وأبوه أبو القاسم القشيري هو صاحب "الرسالة القشيرية" في التصوّف، وصاحب التفسير المسمّى "لطائف الإشارات"، وقد طُبع بعضه.

وهذا القول لا يصحّ عن جعفر الصادق، ولا عن الحسن البصري، وقد أنكره المحققون من علماء اللغة، وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله.

قال النووي في "التبيان": (عدّها أكثر أهل اللغة من لحن العوام، وقال جماعة من أصحابنا: من قالها في الصلاة بطلت صلاته)ا.هـ.

القول السادس: آمين كلمة ليست بعربية، إنما هي عبرية أو سريانية ثمّ تكلمت بها العرب فصار لغة لها، وهذا القول ذكره الثعلبي عن عطية العوفي من غير إسناد، وذكره الباقولي عن الأخفش.

قال الباقولي: (وروي عن الأخفش أنه اسم أعجمي، مثل: هابيل وقابيل؛ فإن سمّيت به رجلاً لم ينصرف)ا.هـ.

وهو قول باطل.

وفي معنى «آمين» أقوال أخرى غير مشتهرة، وعامّتها معلول، كقول بعضهم: معناها «أمّنا بخير»، وهذا قول في معنى «اللهمّ» نُقلَ خطأ إلى معنى «آمين».

وقال بعضهم: معناها «لا تخيّب رجاءنا»، وقد نُسب هذا في بعض كتب التفسير إلى الترمذي، ولم أقف على أصله.

وقيل: طابع لله على عباده يدفع به عنهم الآفات، وهذا القول مأخوذ من حديث ضعيف يأتي ذكره إن شاء الله.

وقيل غير ذلك.

٢. اللغات في «آمين»

في «آمين» لغتان مشتهرتان:

الأولى: قَصْر الأَلِف: «أمين»، على وزن «فَعِيل»، وهي لغة صحيحة فصيحة مشتهرة.

قال جبير بن الأضبط:

تباعَـدَ مني فُطْحُـلٌ إذْ دعوتُه ... أَمـينَ، فـزاد اللهُ مـا بيننـا بُعْـدا

وقال آخر:

سَقَى اللهُ حَيًّا بينَ صارَةَ والحِمَى ... حِمًى فَيْدَ صَوْبَ المُدْجِناتِ المَواطرِ
أَمِـينَ ورَدَّ اللهُ رَكْبـاً إليهـم ... بِخَـيْرٍ ووَقَّاهُـمْ حِمامَ المَقَـادِرِ

واللغة الأخرى: مدّ الألف: «آمين» على وزن فاعِيل، وهذا المدّ حقيقته إشباع فتحة الهمزة.

قال ابن المنيّر: (والمد إشباع بدليل أنه لا يوجد في العربية كلمة على فاعيل) ا.هـ.

وقد استشهد له بعض علماء اللغة بقول مجنون ليلى:

يـا ربِّ لا تَسـلبَنِّي حُبَّهـا أبـدا ... ويرحَـمُ الله عبـدا قـال آمينا

وقد ادّعى بعضهم لغة ثالثة فيها، وهي آمّين.

وقد نبّه كبار علماء اللغة على خطئها، وعدّها بعض العلماء من لحن العوامّ.

قال أبو عبد الله محمد بن إسماعيل التيمي الأصبهاني (ت:٥٢٦هـ) صاحب "التحرير" في "شرح صحيح مسلم": (وكثير من العامة يشددون الميم منها وهو خطأ لا وجه له)ا.هـ نقله النووي في "تهذيب الأسماء واللغات".

قال أبو العباس ثعلب في "الفصيح": (ولا تشدّد الميم، فإنه خطأ).

وقال أبو سهل الهروي في "إسفار الفصيح": (ولا تشدد الميم فإنه خطأ؛ لأنه يخرج من معنى الدعاء ويصير بمعنى قاصدين، كما قال تعالى: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾).

ولم أقف على أوّل من ذكر أنّ «آمّين» لغة في «آمين»، لكن ذكر أبو عليّ الفارسي في "المسائل الحلبيات" أنّ محمّد بن يزيد المبرد قال: («آمين» على مثال «عاصين») يريد في الوزن لا في حقيقة الجمع.

وهذه العبارة نسبها أبو الفتح ابن جنّي في "الخصائص" إلى أبي العباس ثعلب، وعنه اشتهرت نسبة هذه العبارة إلى ثعلب، ولم أقف عليها فيما طبع من كتب ثعلب ولا المبرّد.

وكلامهم يشعر أنّ من الناس من توهّم من هذه العبارة أنّه أراد الجمع فظنّ أنّ «آمّين» لغة في «آمين».

وقد نبّه أبو علي الفارسي وأبو الفتح ابن جنّي على خطأ هذا الفهم، ولم يقع في كلامهم تسمية لمن ادّعى هذا الفهم.

قال أبو علي الفارسي(ت:٣٧٧هـ): (فأما قول محمد بن يزيد: (آمين بمنزلة عاصين) فالذي أراد به - عندي - أن يعلم أن الميم من «آمين» خفيفة، كما أن الصاد التي هي عين من «عاصين» خفيفة، ولم يرد أن وزن «آمين» كوزن «عاصين»، ولا أن النون في «آمين» فتحت من حيث كانت نون جمع، كما فتحت في «عاصين» بهذا المعنى؛ لبعد ذلك وفساده؛ ألا ترى أن المعنى في «أمين» و «آمين» واحد، وقد ثبت أن النون من «أمين» في موضع اللام من «فعيل»، فيجب أن تكون من «آمين» مثله في أنه في موضع اللام. ولو جعلته جمعاً مثل «عاصين» للزم أن تكون اللام منه حرف علة محذوفاً لالتقاء الساكنين، كما أنه من «عاصين» كذلك، فهذا يلزم منه أن يكون «آمين» من لفظ آخر غير «آمين»).

وقال أبو الفتح ابن جنّي(ت:٣٩٢هـ): (فأما قول أبي العباس: «إن آمين بمنزلة عاصين»؛ فإنما يريد به أن الميم خفيفة كعين عاصين)ا.هـ.

قوله: (كعين عاصين) يريد عين الفعل في فاعلين، التي هي الصاد في عاصين.

وقال ابن سيده في "المحكم": (فأما قول أبي العباس: «إن آمين بمنزلة عاصين» فإنما يريد أن الميم خفيفة كصادِ عاصين، لا يريد به حقيقة الجمع) ا.هـ.

وقال ابن المنيّر: (الموجود في مشاهير الأصول المعتمدة أن التشديد خطأ، وقال بعض أهل العلم: التشديد لغة، وهو وهمٌ قديم، وذلك أن أبا العباس أحمد بن يحيى قال: «وآمين مثال عاصين لغة»؛ فتوهم أن المراد صيغة الجمع لأنه قابله بالجمع، وهو مردود بقول ابن جني وغيره أن المراد

موازنة اللفظ لا غير، قال ابن جني: «وليس المراد حقيقة الجمع»، ويؤيده قول صاحب التمثيل في الفصيح: «والتشديد خطأ».

ثم المعنى غير مستقيم على التشديد لأن التقدير ولا الضالين قاصدين إليك وهذا لا يرتبط بما قبله فافهمه)ا.هـ.

ثمّ اشتهر التنبيه على خطأ هذا الفهم في كتب اللغة من غير تسمية لمن فهمه، ولا من ادّعاه.

وقد تقدّم أن أبا نصر القشيري (ت:٥١٤هـ) نسب هذا القول في تفسيره إلى جعفر الصادق والحسن البصري، كما ذكره ابن كثير، ولا يصحّ ذلك عنهما.

ونقل النووي في "تهذيب الأسماء واللغات" عن الواحديّ أنه قال: (والتشديد مع المد، روي ذلك عن الحسن والحسين بن الفضل، ويحقق ذلك: ما ورى عن جعفر الصادق رضي الله عنه أنه قال في تأويله: «قاصدين نحوك، وأنت أكرم من أن تُخَيِّب قاصدًا»)ا.هـ.

ونقل أبو عبد الرحمن السلمي (ت:٤١٢هـ) صاحب "حقائق التفسير" عن جعفر الصادق أنه قال: (آمين أي: قاصدين نحوك وأنت أكرم من أن تخيب قاصدك). من غير إسناد.

وقد تقدّم أنه لا تصحّ نسبة هذا القول إلى جعفر الصادق.

والخلاصة أنّ آمين فيها لغتان صحيحتان: آمين، وأمين، وأما آمّين بالمدّ والتشديد فلا تصحّ.

٣. هل آمين من أسماء اللّه؟

رُوي عن بعض السلف أنّ «آمين اسم من أسماء الله»، وهذا القول له علّة وفيه لبس، وقد أنكره جماعة من العلماء، وتأوّله بعضهم.

وأصل ذلك ما رواه منصور بن المعتمر عن هلال بن يساف أنه قال: «**آمين اسم من أسماء الله**». رواه عبد الرزاق وابن أبي شيبة.

- وروى سفيان الثوري، عن طارق بن عبد الرحمن البجلي، عن حكيم بن جابر، قال: «**آمين اسم من أسماء الله**». رواه ابن أبي شيبة.

- وروى ابن علية، عن ليث، عن مجاهد أنه قال: «**آمين اسم من أسماء الله**». رواه ابن أبي شيبة.

- وروى بشر بن رافع الحارثي، عن أبي عبد الله، عن أبي هريرة يقول: «**كان موسى بن عمران إذا دعا أمّن هارون على دعائه**».

قال: وسمعت أبا هريرة يقول: «**آمين اسم من أسماء الله عز وجل**». رواه عبد الرزاق.

وأبو عبد الله هو الدوسي ابن عمّ أبي هريرة، معروف بكنيته، وقد اختلف في اسمه، وبشر بن رافع قال فيه أبو حاتم: (ضعيف الحديث منكر الحديث لا نرى له حديثاً قائماً)، وقال البخاري: (لا يتابع على حديثه)، وقال يحيى بن معين في رواية: ليس به بأس؛ فالراجح فيه أنّه ضعيف الحديث، وأنّ هذا الخبر لا يصحّ عن أبي هريرة.

وهلال بن يساف الأشجعي ثقة من كبار التابعين، لكنّه كان معروفا برواية الإسرائيليات، وكان يجالس كعب الأحبار، وأحيانا لا يصرّح بمن

روى عنه الإسرائيليات، ولذلك يحكم على ما رواه مما يشبه أخبار بني إسرائيل بأنّه من الإسرائيليات.

وحكيم بن جابر هو ابن طارق بن عوف الأحمسي، أبوه صحابيّ، وهو تابعيّ ثقة، لكنّه كان ممن يروي الإسرائيليات، وقد وقع في مروياته في كتب التفسير إسرائيليات منكرة.

فهذه الأخبار المروية في أنّ «آمين من أسماء الله» معلولة بكونها مأخوذة ممن يروي الإسرائيليات، وقد يكون من رُوي عنه هذا الخبر نقل كلمة أعجمية إلى العربية مقاربة لآمين فيها دلالة على اسم من أسماء الله، ثمّ نقل ذلك على أنّ آمين من أسماء الله، ومعلوم أنّ كتب بني إسرائيل كانت بغير العربية.

وقد أنكر علماء اللغة أن يكون «آمين» من أسماء الله.

فقال أبو إسحاق ابن قُرقُول (ت:٥٦٩هـ): (قيل: هو اسم من أسماء الله - عَزَّ وَجَلَّ -، أصله القصر فأدخلت عليه همزة النداء، كما يقال: يا آمين استجب دعاءنا. وهذا لا يصح؛ ليس في أسماء الله تعالى اسم مبنيٌّ ولا غير معرب).

قال أبو البقاء العكبري: (ت:٦١٦هـ): (**قيل: «آمين» اسم من أسماء الله تعالى، وتقديره يا آمين، وهذا خطأ لوجهين:**

أحدهما: أن أسماء الله لا تعرف إلا تلقيا ولم يرد بذلك سمع.

والثاني: أنه لو كان كذلك لبُني على الضم؛ لأنه منادى معرفة أو مقصود، وفيه لغتان: القصر وهو الأصل، والمد وليس من الأبنية العربية،

بل هو من الأبنية الأعجمية كهابيل وقابيل، والوجه فيه أن يكون أشبع فتحة الهمزة، فنشأت الألف، فعلى هذا لا تخرج عن الأبنية العربية)ا.هـ.

وقد ذكر ابن قتيبة عن بعض المفسّرين أنهم بنوا على هذا القول إعراب آمين بأنّه منادى؛ فقال: (و«آمِينَ» اسم من أسماء الله، وقال قوم من المفسرين - في قول المصلي بعد فراغه من قراءة أمِّ الكتاب: «آمينَ»: [أمينَ] قصر من ذلك؛ كأنه قال: يا الله؛ وأضمر «استجبْ لي»).

فتعقّبه أبو منصور الأزهري بقوله: (وليس يصح ما قال عند أهل اللغة أنه بمنزلة: يا الله، وأضمر: استجب لي، ولو كان كما قال لَرُفع إذا أُجري ولم يكن منصوباً)ا.هـ.

ووجّه ابن القيّم هذا القول توجيهاً آخر في "بدائع الفوائد"؛ فقال: (رُوي عن بعض السلف أنه قال في آمين أنه اسم من أسماء الله تعالى، وأنكر كثير من الناس هذا القول، وقالوا: ليس في أسمائه آمين، ولم يفهموا معنى كلامه؛ فإنما أراد أن هذه الكلمة تتضمن اسمه تبارك وتعالى فإنَّ معناها استجب وأعط ما سألناك؛ فهي متضمنة لاسمه مع دلالتها على الطلب)ا.هـ.

ومراده أنّ الداعي بآمين يستحضر مخاطبته لله تعالى بهذا الدعاء؛ فكأنّه سأل الله تعالى باسم من أسمائه ليستجيب له.

وهذا التوجيه حسن لو كان هذا المعنى ظاهراً من مراد قائله، أو فسّره سياق كلامه، والأقرب أنّه قول مأخوذ من أخبار بني إسرائيل، وقد يكون في لغتهم ما يدل على اسم من أسماء الله، وهو قريب النطق من كلمة «آمين»، لكن هذا لا يفيد في أنّ كلمة «آمين» الثابتة في السنّة أنّها غير عربية،

أو أنّها موضوعة في لغة العرب للدلالة على اسم من أسماء الله، والصحيح أنها اسم فعل بمعنى «اللهم استجب».

٤. معنى قولهم «آمين وبسلاً»

مما يدلّ على أنّ آمين اسم فعل يفيد طلب الاستجابة وتحقق المطلوب، أنّ لهذه الكلمة ما هو قريب من معناها؛ كقول بعض العرب: (بَسْلاً) أي إيجاباً للمطلوب؛ فيلحقه به بعض العرب توكيداً.

قال أبو منصور الأزهري: (وَكَانَ عمرُ يَقُول فِي آخِر دُعَائِهِ: آمينَ وبَسْلاً، مَعْنَاهُ: يَا رَبِّ إِيجَابا).

وقال أبو سليمان الخطابي: (ومن عادة العرب إذا سمعت ما تتمنى أن تقول: اللهم آمين وبَسْلًا).

وقال ابن الأنباري: (ويكون بَسْل بمَعْنَى آمين؛ قال الشَّاعر:

لا خابَ مِنْ نَفْعِكَ مَنْ رَجَاكا ... بَسْلاً وعَادَى اللهُ من عَادَاكا

أَرادَ آمين).

وأنشد الهجري في "النوادر" لابن أبي صبح المزني:

فقلتُ لهُ آمِينَ آمينَ إنّما ... دَعَوتَ على الأردى فَبَسْلاً لهُ بَسْلا

٥.حكم التأمين بعد الفاتحة

التأمين بعد الفاتحة سنّة مؤكّدة حثّ عليها النبي صلى الله عليه وسلّم في الصلاة وخارج الصلاة.

قال ابن رجب: (روى إسحاق بن إبراهيم بن هانئ، عن أحمد قال: «آمين» أَمْرٌ من النبي صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم قال: «إذا أمّن القارئ فأمنوا» فهذا أمر منه، والأمر أوكد من الفعل)ا.هـ.

٦. مدّ الصوت بآمين

قال وائل بن حجر رضي الله عنه: «سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قرأ: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ فقال: «آمين» يمدّ بها صوته». رواه أحمد وابن أبي شيبة والترمذي من طريق سلمة بن كهيل عن حجر بن عنبس عن وائل بن حجر، وفي رواية عند أبي داوود بلفظ: «قال: «آمين» ورفع بها صوته».

قال أبو عيسى الترمذي بعد ذكر حديث وائل بن حجر في الجهر بالتأمين: (وبه يقول غير واحد من أهل العلم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، والتابعين، ومن بعدهم: يرون أن يرفع الرجل صوته بالتأمين، ولا يخفيها، وبه يقول الشافعي، وأحمد، وإسحاق).

٧. بيان فضل التأمين

صحّ في فضل التأمين أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم تدلّ على أنّه من أسباب المغفرة وإجابة الدعاء وأنّ فيه من الفضل والخير ما جعل اليهود يحسدون هذه الأمّة عليه كما حسدوهم على يوم الجمعة، **ومن تلك الأحاديث:**

١. ما رواه الإمام مالك، عن ابن شهاب، عن سعيد بن المسيب وأبي سلمة بن عبد الرحمن أنهما أخبراه، عن أبي هريرة: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا أمن الإمام فأمنوا فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه». متفق عليه.

وفي رواية في "صحيح البخاري" من طريق سفيان الثوري عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا أمَّن القارئ فأمنوا؛ فإنَّ الملائكة تؤمّن، فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه».

٢. وما رواه أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا قال أحدكم: آمين، وقالت الملائكة في السماء: آمين؛ فوافقت إحداهما الأخرى غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه». متفق عليه.

روى عبد الرزاق عن ابن جريج قال: سمعت عطاء قال: سمعت أبا هريرة يقول: **«إذا وافقت آمين في الأرض آمين في السماء غفر له ما تقدم من ذنبه»**.

٣. وما رواه قتادة عن يونس بن جبير عن حطان بن عبد الله الرقاشي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبنا فبين لنا سنتنا وعلمنا صلاتنا. فقال: «إذا صليتم فأقيموا صفوفكم ثم ليؤمكم أحدكم، فإذا كبر فكبروا، وإذا قال: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾، فقولوا: آمين، يجبكم الله فإذا كبر وركع فكبروا واركعوا، فإن الإمام يركع قبلكم، ويرفع قبلكم». رواه أحمد والدارمي ومسلم وأبو داوود والنسائي وغيرهم.

٤. وما رواه سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أنه قال: «ما حسدكم اليهود على شيء ما حسدوكم على السلام والتأمين». رواه البخاري في "الأدب المفرد"، وإسحاق بن راهويه، وابن ماجه.

ورواه أحمد والبيهقي في "شعب الإيمان" من طريق حصين بن عبد الرحمن، عن عمر بن قيس، عن محمد بن الأشعث، عن عائشة قالت: بينا أنا عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ استأذن رجل من اليهود فأذن له فقال: السام عليك.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «وعليك».

قالت: فَهَمَمْتُ أن أتكلَّم.

قالت: ثم دخل الثانية؛ فقال مثل ذلك؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «وعليك».

قالت: ثم دخل الثالثة؛ فقال: السام عليك.

قالت: فقلت: بل السام عليكم، وغضب الله إخوانَ القردة والخنازير؛ أتحيّون رسول الله صلى الله عليه وسلم بما لم يحيه به الله؟!

قالت: فنظر إليَّ؛ فقال: «مَهْ! إنَّ الله لا يحب الفحش ولا التفحش، قالوا قولا فرددناه عليهم؛ فلم يضرّنا شيء، ولزمهم إلى يوم القيامة، إنهم لا يحسدونا على شيء كما يحسدونا على يوم الجمعة التي هدانا الله لها وضلوا عنها، وعلى القبلة التي هدانا الله لها وضلوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام: آمين». وأصله في الصحيحين.

- قال ابن جريج: قال لي عطاء [هو ابن أبي رباح]: «**إني لأعجب من الإنسان يدعو فيجعل دعاءه سردا، لا يؤمن على دعائه**» قال: «**يقول: آمين**». رواه عبد الرزاق.

٨. معنى موافقة الملائكة في التأمين

قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا أمَّن الإمام فأمّنوا فإنه من وافق تأمينُه تأمينَ الملائكة غُفر له ما تقدَّم من ذنبه» يفسّره قوله صلى الله عليه وسلم: «إذا قال أحدكم: آمين، وقالت الملائكة في السماء: آمين؛ فوافقت إحداهما الأخرى غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه». والحديثان في الصحيحين، وقد تقدّم ذكرهما.

وقد اختلف العلماء في تفسير هذه الموافقة، وأقرب الأقوال فيها أنّ الملائكة في السماء تؤمّن إذا أمّن الإمام، فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غُفر له ما تقدّم من ذنبه؛ فقوله صلى الله عليه وسلم: «إذا أمّن الإمام فأمّنوا» وفي رواية: «إذا قال: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ فقولوا: آمين» فيه توقيت بيّنٌ

لتأمين المأموم، وأنّ هذا هو وقت تأمين الملائكة، فمن وافقهم في التأمين غفر له ما تقدّم من ذنبه.

قال القاضي عياض: (وقد جاء فيه حديث مفسِّرٌ بيّن لا يحتاج إلى تأويل)ا.هـ.

وقال أبو سليمان الخطابي: (قوله: «فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة» معطوف على مضمر، وهو الخبر عن تأمين الملائكة كأنه قال: إذا قال الإمام: آمين، فقولوا: آمين كما تقوله الملائكة، فإن من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه، ولولا ذلك لم يصح تعقيبه بما عقبه به من حرف الفاء من قوله: «فإنه»)ا.هـ.

وقال أبو زكريا النووي: (وقوله صلى الله عليه وسلم: «من وافق قوله قول الملائكة»، و«من وافق تأمينه تأمين الملائكة» معناه وافقهم في وقت التأمين؛ فأمَّن مع تأمينهم؛ فهذا هو الصحيح)ا.هـ.

وهذا لا يقتضي أنّ جميع الملائكة في السماء تؤمّن خلف كلّ إمام، بل يصدق هذا الحديث على صنف من الملائكة موكلون بهذا العمل، وأنّ الله تعالى جعل لهم من العلم والقدرة ما يتمكنون به من أداء هذا العمل، فيعرفون كلّ جماعة تقام في الأرض، ويؤمّنون إذا أمّن الإمام.

وهذا نظير ما رواه سفيان الثوري عن عبد الله بن السائب عن زاذان عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله عز وجل ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني من أمتي السلام». رواه أحمد وابن أبي شيبة والنسائي وغيرهم، وإسناده صحيح.

وروي من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم أنّه قال: «أكثروا الصلاة علي، فإن الله وكل بي ملكا عند قبري، فإذا صلّى عليَّ رجل من أمتي قال لي ذلك الملك: يا محمد إن فلان بن فلان صلى عليك الساعة». وقد حسّنه بعض أهل العلم.

فهؤلاء ملائكة موكّلون بأمر السلام على النبي صلى الله عليه وسلم.

وفي "مسند الإمام أحمد" و"سنن الترمذي" من حديث أبي معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة أو عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن لله ملائكة سَيَّاحين في الأرض، فُضُلاً عن كُتَّاب الناس؛ فإذا وجدوا أقواما يذكرون الله تنادوا هلموا إلى بغيتكم فيجيئون فيحفون بهم إلى السماء الدنيا فيقول الله على أي شيء تركتم عبادي يصنعون فيقولون تركناهم يحمدونك ويمجدونك ويذكرونك..» الحديث.

وقوله: «فُضلاً عن كُتّاب الناس» أي غير الملائكة الكاتبين.

ولهذا قال النووي: (واختلفوا في هؤلاء الملائكة فقيل: هم الحفظة، وقيل: غيرهم لقوله صلى الله عليه وسلم: «فوافق قوله قول أهل السماء» وأجاب الأولون عنه بأنه إذا قالها الحاضرون من الحفظة قالها من فوقهم حتى ينتهي إلى أهل السماء)ا.هـ.

والله تعالى أعلم بحقيقة الحال في شأن التأمين، وهل هو كالشأن في الملائكة السيّاحين لطلب الذكر أو يختلف الأمر فيهم، فهذا من أمر الغيب، لكن الأقرب لدلالة النصوص أنّهم ملائكة موكلون بهذا العمل، وقد دلّ نصّ الحديث على أنّ ملائكة في السماء تؤمّن إذا أمّن الإمام، فنُجْري الخبرَ

على ظاهره، ونعتقد صحّته، ولا نجاوز في تفسيره ما دلّ عليه ظاهر النصّ.

قال القاضي عياض: (وكما أن الله تعالى جعل من ملائكته مستغفرين لمن فى الأرض، ومصلّين على من صلى على النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وداعين لمن ينتظر الصلاة، وكذلك يختصّ منهم من يؤمّن عند تأمين المؤمنين أو عند دعائهم، كما جعل منهم لعّانين لقوم من أهل المعاصى، وما منهم إِلا له مقام معلوم)ا.هـ.

وقد أشكل هذا الحديث على جماعة من أهل العلم فأوّلوه إلى معنى آخر؛ كما قال أبو حاتم ابن حبّان (ت:٣٥٤هـ) في صحيحه: (معنى قوله صلى الله عليه وسلم: «فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة» أنَّ الملائكة تقول: آمين، من غير علةٍ من رياء وسمعة أو إعجاب، بل تأمينها يكون خالصا لله، فإذا أمن القارئ لله من غير أن يكون فيه علةٌ من إعجاب أو رياء أو سمعة، كان موافقا تأمينُه في الإخلاصِ تأمينَ الملائكة، غفر له حينئذ ما تقدم من ذنبه)ا.هـ..

وقد تعقّبه ابن حجر في كتاب "الدراية في تخريج أحاديث الهداية" بقوله: (وفي رواية للشيخين: «إذا قال أحدكم آمين وقالت الملائكة في السماء آمين فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه»... وفيها دفع لقول ابن حبان إن المراد بقوله: «فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة» أي من غير إعجاب ولا رياء خالصاً لله تعالى، والله أعلم)ا.هـ.

ومن المعلوم أنّ المراد بقوله صلى الله عليه وسلم: «من وافق تأمينُه» إنما هو التأمينُ المعتبر شرعاً، وهو ما تحقق فيه شرطا قبول العمل من الإخلاص والمتابعة؛ فإن من أمّن غير مخلص لله تعالى في تأمينه أو غير

متّبع لسنّة نبيّه صلى الله عليه وسلم فهو غير مؤمّن شرعاً، وإن نطق لسانُه بالتأمين.

وهذا راجع إلى أصل كبير، وهو أنّ الأعمال التي علّق عليها الإجزاء والثواب إنما هي الأعمال الصحيحة شرعاً، وأمّا ما تخلفت عنه شروط الصحة من العمل فلا يعدّ صاحبه قائماً بذلك العمل وإن أدّى صورته في الظاهر، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم للمسيء صلاته: «ارجع فصلّ فإنّك لم تصلّ».

وكذلك فإنّ التأمين دعاء، وقد رُوي من حديث أبي هريرة وعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله لا يستجيب لعبد دَعَاه عن ظهر قلب غافل».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (ما منع الفهمَ وشهودَ القلب بحيث يصير الرجل غافلاً فهذا لا ريب أنه يمنع الثواب كما روى أبو داود في سننه عن عمار بن ياسر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الرجل لينصرف من صلاته ولم يكتب له منها إلا نصفها إلا ثلثها؛ إلا ربعها إلا خمسها إلا سدسها حتى قال: إلا عشرها» فأخبر صلى الله عليه وسلم أنه قد لا يكتب له منها إلا العشر، وقال ابن عباس: «**ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها**»)ا.هـ.

وما ذكره شيخ الإسلام عن ابن عباس لم أجده مسنداً عنه، وقد روي عن جماعة من السلف، وذكره بعض المتأخرين مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ولا أصل له، وإنما المحفوظ أنّه من كلام بعض السلف.

قال قاسم الجرمي: سمعت سفيان الثوري يقول: «**يكتب للرجل من صلاته ما عقل منها**» رواه أبو نعيم في "الحلية".

وقال ابن القيّم رحمه الله: (إذا استشعر [أي: المصلّي] بقلبه أن الله أكبر من كل ما يخطر بالبال استحيا منه أن يشغل قلبه في الصلاة بغيره؛ فلا يكون موفيا لمعنى «الله أكبر» ولا مؤديا لحق هذا اللفظ ولا أتى البيت من بابه، بل الباب عنه مسدود، وهذا بإجماع السلف أنه ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها وحضره بقلبه)ا.هـ.

وقد سبقه إلى نقل هذا الإجماع عبد الواحد بن زيد البصري (ت: بعد ١٥٠هـ) وهو من تلاميذ الحسن البصري وعطاء بن أبي رباح.

والمقصود أنّ ما ذكره ابن حبان وإن كان صحيحاً من جهة أنّ من شروط صحة التأمين أن يكون خالصاً لله تعالى من غير رياء ولا عجب ولا تسميع، إلا أنّه يقصر عن تفسير معنى موافقة تأمين المأموم لتأمين الملائكة.

وقد عدّ بعض شُرّاح الأحاديث كلامَ ابن حبّان قولاً في تفسير معنى الموافقة، ثم تناقله بعض المفسّرين من غير نسبة إلى ابن حبان، ثمّ ذكرت أقوال أخرى في هذه المسألة، والصحيح فيها ما تقدّم شرحه.

والخلاصة أنّ الأقوال التي قيلت في هذه المسألة أربعة:

القول الأول: الموافقة في وقت تأمينهم، وهو قول أبي سليمان الخطابي والنووي والباجي والقاضي عياض وغيرهم من شراح الأحاديث.

والقول الثاني: الموافقة في صفة الأداء من الخشية والإخلاص، وهو قول ابن حبان، وذكره القاضي عياض وابن عطية وابن كثير وغيرهم.

والقول الثالث: الموافقة في الإجابة، أي: من اسْتُجِيبَ له كما يُستجابُ للملائكةِ غُفِرَ له ما تقدّم من ذنبه، ذكره ابن العربي والقاضي عياض من غير نسبة لمعيّن، وهو قول بعيد عن ظاهر النص.

والقول الرابع: الموافقة في الغرض بأن يقصد الدعاء لنفسه وللمسلمين، ذكره ابن عبد البرّ، وابن العربي والقاضي عياض، وهو بعيد أيضاً عن ظاهر النصّ.

والراجح: أن المراد بموافقة تأمين الملائكة أن يوافقهم في وقت تأمينهم بأنْ يؤمّن تأمينا صحيحاً مع تأمين الملائكة، وذلك إذا قال الإمام: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾.

قال ابن عطية: (واختلف الناس في معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: «فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة» فقيل: في الإجابة، وقيل: في خلوص النية، وقيل: في الوقت، والذي يترجح أن المعنى فمن وافق في الوقت مع خلوص النية، والإقبال على الرغبة إلى الله تعالى بقلب سليم، والإجابة تتبع حينئذ، لأنّ من هذه حاله فهو على الصراط المستقيم)ا.هـ.

فائدة:

قال محمد بن عمران الضبّي: سمعت محمد بن سماعة القاضي يقول: (مكثت أربعين سنة لم تفتني التكبيرة الأولى إلا يوما واحدا مَاتت فيه أمي، ففاتني فيه صلاة واحدة فِي جماعة، فقمت فصليت خمسا وعشرين صلاة أريد بذلك التضعيف فغلبتني عيني، فأتاني آت فَقَالَ: يَا محمد قد صليت خمسا وعشرين صلاة ولكن كيف لك بتأمين الملائكة؟). رواه الخطيب البغدادي في "تاريخ بغداد"، وابن الجوزي في المنتظم.

ومحمد بن سماعة من كبار فقهاء الحنفية، كان قاضياً في خلافة هارون الرشيد ثمّ في خلافة أبنائه إلى أن عزله المعتصم لكبر سنّه وضعف بصره، وعمّر حتى جاوز المائة، وتوفي سنة ٢٣٣هـ، وهو تلميذ القاضي أبي يوسف، أثنى عليه يحيى بن معين في الصدق.

٩. حرص الصحابة رضي اللّه عنهم على التأمين

مما يدلّ على فضل التأمين وسنيّته حرص الصحابة رضي الله عنهم عليه، وفي ذلك آثار جياد منها:

١. قول ابن جريج: (أُخبرتُ عن نافع أن ابن عمر كان إذا ختم أمّ القرآن قال: «**آمين**»، لا يدع أن يؤمن إذا ختمها، ويحضهم على قولها قال: وسمعت منه في ذلك خبرا). رواه عبد الرزاق، وعلّقه البخاري في صحيحه، وقوله: (خبراً) رويت بالباء وبالياء (خيراً).

قال ابن حجر: (وقوله: (خيرا) بسكون التحتانية أي فضلا وثواباً، وهي رواية الكشميهني ولغيره خبرا بفتح الموحدة أي حديثا مرفوعا ويشعر به ما أخرجه البيهقي كان بن عمر إذا أمن الناس أمن معهم ويرى ذلك من السنة)ا.هـ.

٢. وروى عاصم الأحول عن أبي عثمان النهدي أنّ بلالاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم: «**لا تسبقني بآمين**». رواه أحمد وابن أبي شيبة وأبو داوود وغيرهم، ورجاله ثقات إلا أنّ الحفاظ أعلّوه بالانقطاع بين أبي عثمان وبلال؛ فرجّح إرساله أبو حاتم الرازي وغيره.

قال ابن رجب: (قيل: إن أبا عثمان لم يسمع من بلال بالكلية؛ لأنه قدم المدينة في خلافة عمر، وقد كان بلال انتقل إلى الشام قبل ذلك).

لكن صحّ هذا عن أبي هريرة رضي الله عنه من طرق لمّا كان مؤذناً في البحرين لأميرها العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه:

٣. فروى عبد الرزاق عن بشر بن رافع عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة أن أبا هريرة دخل المسجد [وقد قام] الإمام فناداه أبو هريرة: «**لا تسبقني بآمين**». وما بين المعكوفين مما نقله ابن حجر في "فتح الباري".

٤. وروى هشام بن حسان عن محمد بن سيرين أن أبا هريرة كان مؤذنا بالبحرين؛ فقال للإمام: «**لا تسبقني بآمين**». رواه ابن أبي شيبة.

٥. وقال ابن جريج لعطاء بن أبي رباح: أكان ابن الزبير يؤمن على إثر أمّ القرآن؟

قال: «**نعم، ويؤمّن من وراءه حتى إن للمسجد للجَّة**».

ثم قال: (إنما آمين دعاء، وكان أبو هريرة يدخل المسجد وقد قام الإمام قبله فيقول: «**لا تسبقني بآمين**»). رواه عبد الرزاق والشافعي وابن المنذر، وعلّقه البخاري في صحيحه.

٦. وروى معمر بن راشد عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة «**أنه كان مؤذنا للعلاء بن الحضرمي بالبحرين فاشترط عليه بأن لا يسبقه بآمين**». رواه عبد الرزاق.

٧. وروى بشر بن رافع، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي هريرة، أنه كان مؤذنا للعلاء بن الحضرمي، فقال له أبو هريرة: «**لتنظرني بآمين أو لا أؤذن لك**» رواه عبد الرزاق.

١٠. التنبيه على ضعف بعض المرويات في فضل التأمين

وقد روي في فضل التأمين أحاديث وآثار لا تصحّ، ومنها:

١. ما رواه صَبيحِ بنِ مُحرز الحمصي عن أبي مُصبّح الْمَقْرَائِي قال: كنا نجلس إلى أبي زهير النميري وكان من الصحابة؛ فيتحدَّث أحسن الحديث؛ فإذا دعا الرجل منا بدعاء قال: «**اختمه بآمين؛ فإن آمين مثل الطابع على الصحيفة**».

قال أبو زهير: (أخبركم عن ذلك خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة؛ فأتينا على رجل قد ألحّ في المسألة؛ فوقف النبي صلى الله عليه وسلم يستمع منه؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أوجب إن ختم»

فقال رجل من القوم: «**بأي شيء يختم؟**».

قال: «بآمين؛ فإنه إن ختم بآمين؛ فقد أوجب».

فانصرف الرجل الذي سأل النبي صلى الله عليه وسلم؛ فأتى الرجلَ فقال: «**اختم يا فلان بآمين وأبشر**»). رواه أبو داوود من طريق محمد بن يوسف الفريابي عن صَبيح به، وصَبيح مجهول الحال تفرّد عنه الفريابي، وقد ضعَّف الألباني هذا الحديث في مواضع من كتبه.

٢. وما رواه جرير بن عبد الحميد عن ليث بن أبي سليم عن كعب المدني عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا قال الإمام: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ فقال الذين خلفه: آمين؛ فالتقت من أهل السماء وأهل الأرض آمين؛ غفر الله للعبد ما تقدم من ذنبه».

قال: «ومثل الذي لا يقول آمين كمثل رجل غزا مع قوم؛ فاقترعوا فخرجت سهامهم ولم يخرج سهمه؛ فقال: ما لِسَهمي لم يخرج؟

قال: إنك لم تقل: آمين». رواه إسحاق بن راهويه وأبو يعلى، وليث ضعيف الحديث، وكعب المدني مجهول.

٣. وما رواه أبو أمية إسماعيل بن يعلى الثقفي، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة، رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «آمين خاتم رب العالمين على عباده المؤمنين» رواه الطبراني في "الدعاء" وابن عدي في "الكامل"، وأبو أمية ضعيف الحديث، قال البخاري: (سكتوا عنه)، وقال يحيى بن معين: (ليس بشيء).

٤. وما رواه عبد العزيز بن أبان قال: حدثنا زربي مولى خالد، حدثنا أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أعطيت ثلاث خصال: صلاة في الصفوف، وأعطيت السلام وهو تحية أهل الجنة، وأعطيت آمين، ولم يعطها أحد ممن كان قبلكم إلا أن يكون الله أعطاها هارون فإن موسى كان يدعو ويؤمن هارون». رواه الحارث ابن أبي أسامة في مسنده.

وزربي ضعيف الحديث، قال البخاري: (فيه نظر) وقال الترمذي وابن عدي: (له مناكير)، وعبد العزيز بن أبان متروك الحديث، واتّهمه يحيى بن معين وغير واحد من الحفاظ بالكذب.

١١. هل المُؤمِّنُ داعٍ؟

قول آمين بمنزلة قول «اللهمّ استجب» فهو دعاء في حقيقة الأمر، وقد استدلّ جماعة من أهل العلم على أنّ المؤمّن داع بقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

فقال: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ والداعي في الآية قبلها موسى عليه السلام، والخطاب في هذه الآية لموسى وهارون؛ فدلّ ذلك على أنّ هارون كان شريكاً لموسى في دعائه.

قال عكرمة: «**أمّن هارون على دعاء موسى، فقال الله:** ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا﴾ ». رواه ابن جرير.

وقال محمّد بن كعب القرظي: «**كان موسى يدعو وهارون يؤمّن، والدّاعي والمؤمّن شريكان**». رواه سعيد بن منصور.

وقال بهذا القول جماعة من السلف منهم: أبو العالية الرياحي، والربيع بن أنس البكري، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، والليث بن سعد.

وروي عن أبي هريرة وابن عباس رضي الله عنهم.

وروي مرفوعاً من حديث أنس أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «وأعطيت (آمين) ولم يعطها أحد ممن كان قبلكم إلا أن يكون الله أعطاها هارون فإن موسى كان يدعو وهارون يؤمّن». رواه الحارث ابن أبي أسامة

من طريق عبد العزيز بن أبان عن زربي عن أنس، وقد تقدّم بيان ضعفه.

قال مكي بن أبي طالب: (والمؤمّن داع؛ فقد قال الله لموسى وهارون: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ وموسى كان هو الداعي، وهارون يؤمّن، والمؤمن إذا قال: «اللهم استجب «فهو داع بالإجابة)ا.هـ.

وقال ابن كثير: (فذكر الدّعاء عن موسى وحده، ومن سياق الكلام ما يدلّ على أنّ هارون أمّن، فنزل منزلة من دعا، لقوله تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾، فدلّ ذلك على أنّ من أمّن على دعاءٍ فكأنّما قاله)ا.هـ.

ولذلك ذهب بعض أهل العلم إلى أنّ المأموم لا يقرأ الفاتحة لأنّ تأمينه بمثابة قراءته، والراجح عدم صحّة هذا الاستدلال لأنّ التأمين واقع على الدعاء الذي في الفاتحة، وهو قدر أخصّ من قراءة الفاتحة.

١٢. الدعاء قبل التأمين

روي في الدعاء قبل التأمين حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم لا يصحّ، وروي فيه آثار عن بعض الصحابة لا تصحّ أيضاً، لكن صحّ ذلك عن بعض السلف، والراجح أن لا يفصل بين الفاتحة والتأمين بدعاء.

- قال أحمد بن عبد الجبار العطاردي: (حدثنا أبي، عن أبي بكر النهشلي، عن أبي إسحاق، عن أبي عبد الله اليحصبي، عن وائل بن حجر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ قال: «ربي اغفر لي آمين»). رواه البيهقي.

قال ابن رجب: (وهذا الإسناد لا يحتج به).

- وقال ابن المبارك: حدثنا عاصم الأحول عن حفصة بنت سيرين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «**إذا قرأ** ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ **ووصل بآمين فإذا وافق تأمينه تأمين الملائكة استجيب الدعاء**». أورده ابن عبد البرّ في "الاستذكار" وابن رجب في "فتح الباري".

قال ابن رجب: (حفصة لم تسمع من ابن مسعود).

- وروى أبو مالك النخعي، عن المغيرة بن النعمان، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: «**إذا قال الإمام:** ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ **فسل موجبة، ثم قل: آمين**». رواه أبو نعيم في كتاب "الصلاة" كما في "فتح الباري" لابن رجب.

قال ابن رجب: (أبو مالك هذا، ضعيف).

وقد **روي عن بعض السلف وخاصة أصحاب ابن مسعود رضي الله عنه أنّهم يدعون قبل قول آمين**، ويعدّون ذلك من مواضع إجابة الدعاء لأجل تأمين الملائكة.

١. قال الربيع بن خثيم: «**إذا قال الإمام:** ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ **فاستعن من الدعاء بما شئت**». رواه ابن أبي شيبة من طريق يونس بن أبي إسحاق السبيعي عن أبيه، عن بكر بن ماعز عن الربيع.

٢. وقال أبو يعلى المنذر بن يعلى الثوري: كان الربيع بن خثيم إذا قال الإمام: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ قال: «**اللهم اغفر لي آمين**». رواه ابن أبي شيبة من طريق سفيان الثوري، عن أبيه، عن أبي يعلى.

٣. وقال إبراهيم النخعي: «**كان يستحب إذا قال الإمام**: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ **أن يقال: اللهم اغفر لي آمين**». رواه ابن أبي شيبة من طريق أبي الأحوص عن أبي حمزة عن إبراهيم.

٤. وقال مجاهد بن جبر: «**إذا قال الإمام**: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ **فقل: اللهم إني أسألك الجنة وأعوذ بك من النار**». رواه ابن أبي شيبة من طريق سفيان الثوري، عن يونس، عن مجاهد.

وجمهور أهل العلم والفتوى على أنّ المأموم يؤمّن إذا قال الإمام: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ اتّباعاً لظاهر قول النبي صلى الله عليه وسلم: «وإذا قال: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾، فقولوا: آمين» وهو نصّ صريح، وما روي عن ابن مسعود فلم يصحّ عنه من حيث الإسناد، وإن كان قد صحّ عن بعض أصحابه لكن ربّما كان ذلك فهماً فهموه من قوله: «**فإذا وافق تأمينه تأمين الملائكة استجيب الدعاء**» وهذا ليس بنصّ على أنّ المأموم يدعو بدعاء من تلقاء نفسه، وإنما ظاهره أنّ الدعاء المراد هو دعاء الفاتحة.

وربما كان مشروعاً ثمّ نُسخ كما نُسخ التطبيق في الصلاة، وقد أثر عن ابن مسعود أنه لم يتركه.

قال ابن رجب: (ولا يستحب أن يقدّم على التأمين دعاء؛ لأنَّ التأمين على دعاء الفاتحة، وهو هداية الصراط المستقيم، وهو أهم الأدعية وأجلها.

ومن السلف من استحبَّ ذلك للمأموم، منهم: الربيع بن خثيم والثوري)ا.هـ.

١٣. هل يجهر الإمام بالتأمين؟

الراجح من أقوال الفقهاء أنّ الإمام يجهر بالتأمين في الصلوات الجهرية فرضاً كانت أو نفلاً، ويسرّ بها في السريّة كما يسرّ بالقراءة، وهو ظاهر ما دلّت عليه الأحاديث الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم في التأمين.

وقد اختلف الفقهاء في مسألة جهر الإمام بالتأمين على أقوال:

القول الأول: يجهر الإمامُ بالتأمين، وهو قول عطاء والشافعيّ وأحمد وإسحاق بن راهويه وأبي ثور، ورواية الوليد بن مسلم عن الأوزاعي، ورواية جماعة من أصحاب الإمام مالك عنه، وقال به جماعة من فقهاء السلف.

القول الثاني: يخفي التأمين، وهو قول إبراهيم النخعي، وسفيان الثوري، وأبي حنيفة، وابن جرير الطبري، ورواية عن أحمد ذكرها ابن مفلح، ورواية الوليد بن يزيد عن الأوزاعي.

القول الثالث: لا يؤمّن الإمام في الصلاة الجهرية إلا إذا صلى وحده، ويؤمّن في السرية سراً، وهو رواية ابن القاسم عن الإمام مالك، وبه أخذ المشرقيون من المالكية، ورواية محمد بن الحسن عن أبي حنيفة ذكرها في "الموطأ".

قال ابن عبد البر: (وحجتهم حديث سمي عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي عليه السلام قال: «إذا قال الإمام ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ فقولوا آمين»)ا.هـ، وذكر أحاديث في هذا المعنى.

وعن الإمام مالك رواية بتأمين الإمام رواها عنه المدنيون من أصحابه منهم: عبد الملك بن الماجشون ومطرف بن عبد الله وأبو مصعب الزهري، وعبد الله بن نافع ذكر ذلك ابن عبد البر في "التمهيد".

قال ابن حبيب: (سألت مطرفا وابن الماجشون عن رواية ابن القاسم عن مالك في آمين أنه لا يقولها الإمام، فأنكروا ذلك، وقالوا: سمعنا مالكا يقول: الإمام وغيره في قول آمين سواء)ا.هـ.

وقال ابن عبد البر: (وقد اختلف في قول الإمام آمين فالمدنيون يروون عنه ذلك، والمصريون يأبونه عنه).

قال الشافعي: (وفي قول رسول الله: «إذا أمن الإمام فأمنوا» دلالة على أنه أمر الإمام أن يجهر بآمين؛ لأن من خلفه لا يعرف وقت تأمينه إلا بأن يسمع تأمينه)ا.هـ.

وقال ابن المنذر: (في قوله: «إذا أمن الإمام فأمنوا» دليل بين على أن الإمام يجهر بالناس، ولا يجوز أن يكون غير ذلك، لأن الإمام لو أسر التأمين لم يعلم بذلك المأموم فيؤمن إذا أمن الإمام، وهذا بين ظاهر لمن وفقه الله للفهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ محال أن يأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم المأموم أن يؤمّن إذا أمن إمامه وهو لا يجد السبيل إلى معرفة تأمين إمامه)ا.هـ.

ثمّ روى ابن المنذر من طريق معمر عن أبي إسحاق، عن عبد الجبار بن وائل، عن أبيه قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قال: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ قال: «آمين» حتى يسمعنا).

والذين ذهبوا إلى القول بإخفاء التأمين استدلّوا بأدلّة:

منها: أنّ شعبة روى عن سلمة بن كهيل عن حجر أبي العنبس عن علقمة بن وائل عن أبيه (أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾؛ فقال: «آمين» وخفض بها صوته).

وقد حكم البخاري وأبو زرعة والدارقطني بأنّ شعبة أخطأ في رواية هذا الحديث، وأنّ الصواب رواية الجهر، وقد رواها جماعة ثقات بألفاظ متقاربة؛ وقد بسط ابن القيّم في "إعلام الموقّعين" القول في ذلك.

ومنها: ما صحّ عن إبراهيم النخعي أنه قال: «**خمس يخفيهن الإمام: الاستعاذة، وسبحانك اللهم وبحمدك، وبسم الله الرحمن الرحيم، وآمين، واللهم ربنا لك الحمد**». رواه عبد الرزاق وابن أبي شيبة من طرق عن إبراهيم.

وقد أعلّ بما ما رواه ابن أبي شيبة عن أبي وائل عن عبد الله بن مسعود أنه كان يخفي: «**بسم الله الرحمن الرحيم، والاستعاذة، وربنا لك الحمد**». من غير ذكر «آمين»؛ وهو إسناد متّصل إلى ابن مسعود، أشار إلى ذلك ابن حجر في "الدراية".

ويُحتمل أن يكون هذا القول محفوظاً عن ابن مسعود أو بعض أصحابه، لكن أدلّة جهر الإمام بآمين أصحّ وأصرح، والمصير إليها أرجح.

وهذا كلّه إنّما هو في الصلاة الجهرية، وأمّا السريّة فيسرّ بالتأمين عند القائلين به.

قال ابن جريج: قلت لعطاء: أرأيت إذا قرأ الإمام بأم القرآن في الآخرة من المغرب، والآخرتين من العشاء كيف يؤمّن؟

قال: «**يخافت بآمين في نفسه**» رواه عبد الرزاق.

ومحلّ بسط هذه المسألة في كتب الفقه، وإنما المراد هنا بيان القول الراجح لصلته بالعمل، والإشارة إلى الخلاف في هذه المسألة ليكون طالب العلم على معرفة بالخلاف فيها.

١٤. هل يجهر المأموم بالتأمين؟

صحّ من حديث الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلّمنا يقول: «لا تبادروا الإمام، إذا كبَّر فكبّروا، وإذا قال: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ فقولوا: آمين، وإذا ركع فاركعوا، وإذا قال: سمع الله لمن حمده؛ فقولوا: اللهم ربنا لك الحمد». متفق عليه، واللفظ لمسلم، وبوّب له البخاري في صحيحه بقوله: (باب جهر المأموم بالتأمين).

وقد اتّفق العلماء على أنّ المأموم يقول: «آمين»؛ لكن **اختلفوا في الجهر بالتأمين وإخفائه على أربعة أقوال:**

القول الأول: يجهر المأموم بالتأمين في الصلوات الجهرية، وهو قول عطاء بن أبي رباح، ومالك، وأحمد، والبخاري، وهو قول للشافعي وعليه مذهب الشافعية، ونسبه القاضي عياض إلى فقهاء أهل الحديث.

والقول الثاني: يخفيها المأموم، وهو قول أبي حنيفة، وقول للشافعي، وقول لبعض المالكية.

والقول الثالث: إذا كان المسجد صغيراً يبلغهم تأمين الإمام لم يجهر به لأنه لا يحتاج إلى الجهر به، وإن كان كبيراً جهر لأنه يحتاج إلى الجهر للإبلاغ، وهذا قول لبعض الشافعية أرادوا به الجمع بين قولي الشافعي.

واتفق الشافعية على أنّ الإمام إذا نسي التأمين أمّن المأموم وجهر به ليسمع الإمام فيأتي به.

والقول الرابع: إن كثر القوم جهروا وإلا فلا، وهو قول للشافعية ذكره النووي في روضة الطالبين.

وقال النووي في الأذكار: (والصحيح: أن المأموم يجهر به أيضا، سواء كان الجمع قليلاً أو كثيراً).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (النبي صلى الله عليه وسلم كان يجهر بالتأمين، وقد أَمَرَ المأمومين أن يؤمّنوا مع تأمين الإمام، وظاهره أنهم يؤمّنون مثل تأمينه؛ لأن التأمين في حقهم أوكد؛ لكونهم أمروا به؛ فإذا كان هو يجهر به فالمأموم أولى، وقد تقدَّم التصريح بذلك، ولذلك فهم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من هذا الأمر الجهر به، وأجمعوا على ذلك؛ فروى إسحاق بن راهويه عن عطاء قال: «**أدركت مائتين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إذا قال الإمام:** ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ **سمعت لهم ضجَّة بآمين**»، وعن عكرمة قال: «**أدركت الناس في هذا المسجد ولهم ضجة بآمين**».

قال إسحاق: (كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يرفعون أصواتهم بآمين، حتى يسمعوا للمسجد رِجَّة))ا.هـ.

وقد تقدّم ذكر سؤال ابن جريج لعطاء بن أبي رباح: أكان ابن الزبير يؤمن على إثر أمّ القرآن؟

قال: «**نعم، ويؤمّن من وراءه حتى إن للمسجد للجَّة**».

ثم قال: (إنما آمين دعاء، وكان أبو هريرة يدخل المسجد وقد قام الإمام قبله فيقول: «**لا تسبقني بآمين**»). رواه عبد الرزاق والشافعي وابن المنذر، وعلّقه البخاري في صحيحه.

وقال فطر بن خليفة: سمعت عكرمة يقول: «**أدركت الناس ولهم رَجَّة في مساجدهم بآمين إذا قال الإمام:** ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾». رواه ابن أبي شيبة.

١٥. هل يجهر المنفرد بالتأمين؟

المنفرد جَهْرُه بالتأمين تبعٌ لقراءته؛ فإن جهر بالقراءة جهر بالتأمين، وإن أسرّ أسرّ، وهذا هو الراجح، وهو قول جمهور أهل العلم، وخالف الحنفية في ذلك فقالوا: يخفي التأمين مطلقاً.

قال شيخنا ابن عثيمين: (المنفرد إن جَهَرَ بقراءته؛ جَهَرَ بآمين، وإن أسرَّ؛ أسرَّ بآمين، ودليل ذلك: أن النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم كان في صلاة السِرِّ كالظُّهر والعصر لا يجهر بآمين، وهذا يقتضي أنك إذا لم تجهر بالقراءة لم تجهر بآمين، والمنفرد الذي يقوم الليل مثلاً، وأحياناً يرى أن حضورَ قلبِه وقوَّة يقظته وطرد النوم عنه بالجهر، فيجهر كما فَعَلَ النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم حين صَلَّى بحذيفة بن اليمان رضي الله عنهما.

فإذا جَهَرَ بالقراءة جَهَرَ بالتأمين، وأحياناً يرى أن الإِسرار أفضل له وأخشع، وأبعد عن الرِّياء، أو أن هناك مانعاً يمنعه من الجَهْر لكون مَن حولَه نياماً، وما أشبه ذلك، فإذا أسرَّ بالقراءة فإنه يُسِرُّ بالتأمين، ولا يجهر به)ا.هـ.

١٦. هل يؤمّن القارئ في غير الصلاة؟

يُستحبّ لمن قرأ الفاتحة في غير الصلاة أنّ يؤمّن إذا ختمها كما يستحبّ لمن قرأها في الصلاة، **وقد استدلّ بعض أهل العلم لذلك بحديثين:**

أحدهما: ما رواه ابن شهاب الزهري عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّه قال: «إذا أمّن القارئ فأمّنوا، فإن الملائكة تؤمّن، فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه» رواه أحمد والبخاري والنسائي ابن ماجة وغيرهم.

والآخر: ما رواه إسحاق بن إبراهيم الزبيدي المعروف بابن زبريق قال: حدثني عمرو بن الحارث، عن عبد الله بن سالم، عن الزبيدي قال: أخبرني الزهري، عن أبي سلمة وسعيد، عن أبي هريرة قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من قراءة أم القرآن رفع صوته قال: «آمين».

رواه ابن خزيمة وابن حبان والدارقطني والحاكم والبيهقي.

وابن زبريق متكلّم فيه، ولذلك اختلف أهل العلم في هذا الحديث؛ فحسّنه الدراقطني، واحتجّ به ابن حبان، وصححه الحاكم، وضعّفه بعضهم.

ولفظ القارئ عامّ؛ يعمّ من كان في الصلاة ومن هو خارجها.

قال النووي: (يستحب لكل من قرأ الفاتحة في الصلاة أو خارج الصلاة أن يقول عقب فراغه منها آمين، بالمد أو القصر بلا تشديد فيهما.

ويستحب أن يفصل بينهما، وبين ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾ بسكتة لطيفة، ليميزها عن القرآن)ا.هـ.

قال ابن حجر: (روى البخاري في الدعوات من صحيحه من حديث أبي هريرة رفعه: «**إذا أمن القارئ فأمنوا**» فالتعبير بالقارئ أعم من أن يكون داخل الصلاة أو خارجها)ا.هـ.

١٧. إذا لم يسمع المأمومُ قراءةَ الإمام فهل يؤمّن؟

إذا لم يسمع المأموم قراءة الإمام أو خفي عليه بعضها فللفقهاء قولان في هذه المسألة:

أحدهما: يؤمنّ لأنّ الدعاء معلوم، والتأمين سنة، وهو قول الشافعية والحنابلة، وقول ابن عبدوس من المالكية.

والقول الآخر: لا يؤمن، لأنّ التأمين فرع عن سماع الدعاء، وهو قول لبعض المالكية.

قال ابن تيمية في "شرح العمدة": (وإذا ترك الإمام التأمين أو الجهر به أمَّن المأموم وجهر به، وسواء كان قريباً من الإمام يسمع قراءته ويسمع همهمته، أو كان لا يسمع له صوتاً؛ فإنه يؤمّن)ا.هـ.

والراجح أنّ حال المأموم لا يخلو من ثلاث حالات:

١. إما أن يكون معه آخرون يسمعون قراءة الإمام ويؤمّنون فيؤمّن معهم.

٢. وإما أن يكون ومن معه يسمعون همهمة الإمام بالقراءة فيؤمّنون أيضاً.

٣. وإمّا أن يكونوا كلّهم لا يسمعون له صوتاً فلا يؤمّنون لأنّ الأمر بالتأمين معلّق بشرط لم يتحقق، وأصبحت صلاة الإمام كالسريّة لا يؤمّن فيها؛ فلا يؤمّن المأموم.

وكذلك إذا أسرّ الإمام في الجهرية سهواً منه أو كانت به علّة تمنع ظهور صوته؛ فإنّ المأموم لا يؤمّن لعدم تحقق الشرط الذي علّق عليه الأمر بالتأمين، لكن يقرأ المأموم الفاتحة لنفسه ويؤمّن إذا ختمها.

١٨. متى يقول المأموم: «آمين»؟

قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا أَمَّن الإمام فأمّنوا» يفسّره قوله صلى الله عليه وسلم: «وإذا قال: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ فقولوا: آمين».

والحديثان في الصحيحين، وقد تقدّم ذكرهما، ويدلّ لذلك عمل الصحابة رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان.

ويكون معنى قوله صلى الله عليه وسلّم: «إذا أمّن....» أي إذا شرع في التأمين أو بلغ موضع التأمين، وهو كما قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨﴾ أي: إذا أردت قراءة القرآن فاستعذ

بالله من الشيطان الرجيم، ومنه ما في الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا دخل الخلاء قال: «اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث». أي إذا أراد الدخول إلى الخلاء.

وهذا قول جمهور أهل العلم، يقولون: إنّ المأموم يؤمّن إذا قال الإمام: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ فيقع تأمين المأموم مع تأمين إمامه.

قال أبو سليمان الخطابي: (وقوله: «إذا قال الإمام: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ فقولوا آمين» معناه قولوا مع الإمام حتى يقع تأمينكم وتأمينه معاً، فأما قوله: «إذا أمن الإمام فأمنوا» فإنّه لا يخالفه ولا يدل على أنهم يؤخرونه عن وقت تأمينه، وإنما هو كقول القائل: «إذا رحل الأمير فارحلوا» يريد إذا أخذ الأمير في الرحيل فتهيأوا للارتحال؛ ليكون رحيلكم مع رحيله، وبيان هذا في الحديث الآخر: «إن الإمام يقول: «آمين» والملائكة تقول: «آمين» فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه»؛ فأحب أن يجتمع التأمينان في وقت واحد رجاء المغفرة)ا.هـ.

وقال النووي: (وأما قوله صلى الله عليه وسلم في الصحيح: «إذا أمن الإمام فأمنوا» فمعناه إذا أراد التأمين، قال أصحابنا: وليس في الصلاة موضع يستحب أن يقترن قول المأموم بقول الإمام إلا في قوله: «آمين»، وأما في الأقوال الباقية فيتأخر قول المأموم)ا.هـ.

قلت: يريد فيما يجهر فيه الإمام من الأقوال.

وقال ابن رجب: (ويكون تأمين المأمومين مع تأمين الإمام، لا قبله ولا بعده عند أصحابنا وأصحاب الشافعي، وقالوا: لا يستحب للمأموم مقارنة إمامه في شيء غير هذا، فإن الكل يؤمنون على دعاء الفاتحة، والملائكة يؤمّنون

أيضاً على هذا الدعاء، فيشرع المقارنة بالتأمين للإمام والمأموم، ليقارن ذلك تأمين الملائكة في السماء؛ بدليل قوله في رواية معمر: «فإن الملائكة تقول: آمين، والإمام يقول: آمين»، فعلل باقتران تأمين الإمام والملائكة، ويكون معنى قوله: «إذا أمن الإمام فأمنوا» أي: إذا شرع في التأمين، أو أراده)ا.هـ.

وذهب بعض الفقهاء إلى أنّ المأموم يؤمّن بعد تأمين الإمام تمسّكاً بظاهر لفظ «إذا أمّن الإمام فأمّنوا»، وهو قول مرجوح، ذكره ابن مفلح عن بعض أصحاب الإمام أحمد.

قال ابن رجب: (وورد أثر يدل على تأخير تأمين المأموم عن تأمين الإمام، من رواية ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن عبد الله بن عتاب العدوي، قال: صليت مع أبي بكر وعمر والأئمة بعدهما، فكان إذا فرغ الإمام من قراءة فاتحة الكتاب فقال: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ قال: آمين، ورفع بها صوته، ثم أنصت، وقال من خلفه: آمين، حتى يرجع الناس بها، ثم يستفتح القراءة، إسناده ضعيف)ا.هـ.

١٩. حكم من نسي قول آمين

من نسي قول «آمين» أو فاته التأمين مع المأمومين لاشتغاله بعطاس أو تثاؤب أو ألم عارض أو غير ذلك؛ **ففي تأمينه بعد ذلك أقوال لأهل العلم:**

القول الأول: يؤمّن ما لم يشرع الإمام في قراءة السورة التي بعد الفاتحة، وهو قول عند الشافعية، واختاره شيخ الإسلام ابن تيمية.

والقول الثاني: يؤمّن ما لم يركع، وهو قول عند الشافعية؛ ذكره الماوردي والنووي.

والقول الثالث: لا يؤمّن إذا فاته التأمين مع المأمومين ولو لم يشرع الإمام في القراءة؛ لأنّه ذكر مستحبّ مؤقّت بوقت، فلا يقال بعد فوات وقته، وهو أظهر الأقوال عند الشافعية، وقال النووي: (وهو ظاهر نصّ الشافعي).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وإذا ترك التأمين في موضعه لم يأتِ به بعد ذلك، مثل أن يأخذ في قراءة السورة حتى يشرع في القراءة، فقد فات في محله فلا يعيده، وإن ذكر قبل أن يطول الفصل أتى به؛ لأن محله باقٍ، ولا يجب عليه سجود السهو، نص عليه؛ لأنه دعاء لا يتميز بفعل فلم يشرع له سجود السهو، كالتعوذ من أربع في التشهد).

ولا أعلم خلافاً في أنّه لا سجود على من ترك التأمين.

قال ابن جريج: قلت لعطاء: نسيت آمين قال: «**لا تعد، ولا تسجد السهو**» رواه عبد الرزاق.

٢٠. حكم قول: «آمين ربّ العالمين»

قال السيوطي: (أخرج عبد بن حميد عن عطاء قال: لما نزلت هذه الآيات ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَا﴾ فكلما قالها جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم قال النبي صلى الله عليه وسلم: آمين رب العالمين).

وهذا مرسل عن عطاء، ولم أقف على إسناده إلى عطاء، ولا يصحّ رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، لكن يظهر من أقوال بعض الفقهاء أنّ هذه العبارة اشتهرت؛ فكان بعضهم يزيدها في آمين، فيقول في التأمين: «آمين ربّ العالمين».

ولذلك اختلف الفقهاء فيها؛ فقال الشافعي في "الأمّ": (ولو قال مع: آمين رب العالمين، وغير ذلك من ذكر الله كان حسنا، لا يقطع الصلاة شيء من ذكر الله)ا.هـ.

وقال ابن تيمية: (فإن قال: آمين رب العالمين؛ فقال القاضي والآمدي وغيرهما: قياس قول أحمد أنه غير مستحب، كما لم يستحب الزيادة على تكبيرة الافتتاح؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي» وهو صلى الله عليه وسلم إنما قال: «آمين» من غير زيادة)ا.هـ.

وقال ابن مفلح: (وإن قال: «آمين ربّ العالمين» فقياس قول أحمد لا يستحبّ).

وقال ابن رجب: (ولا يستحب أن يصل آمين بذكر آخر، مثل أن يقول: «آمين رب العالمين»؛ لأنه لم تأت به السنة، هذا قول أصحابنا)ا.هـ.

تمّ تفسير سورة الفاتحة، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وأستغفر الله وأتوب إليه، وأسأله العفو والتجاوز عن الخطأ والتقصير، وأن يمنّ بالقبول إنه سميع مجيب.

وصلى الله وسلم على نبينا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قائمة المراجع

١: **المفضليات**، المفضَّل بن محمَّد بن يحيى الضَّبِّيُّ (ت: ١٦٨هـ)، تحقيق وشرح: أحمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة.

٢: **العين**، الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت:١٧٠هـ)، تحقيق: د.مهدي المخزومي و د.إبراهيم السامرائي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

٣: **الموطأ (رواية يحيى بن يحيى الليثي)**، مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي (ت: ١٧٩هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، إحياء التراث العربي.

٤: **الموطأ (رواية أبي مصعب الزهري)**، مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي (ت: ١٧٩هـ)، تحقيق: بشار عواد معروف ومحمود محمد خليل، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٥: **الموطأ (رواية محمد بن الحسن الشيباني)**، مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي (ت: ١٧٩هـ)، تحقيق: د. تقي الدين الندوي، دار القلم، دمشق.

٦: **المدونة الكبرى (برواية سحنون بن سعيد التنوخي عن عبد الرحمن بن القاسم العتقي عن الإمام مالك)**، الإمام مالك بن أنس الأصبحي (ت: ١٧٩هـ)، دار صادر.

٧: **الكتاب**، سيبويه عمرو بن عثمان بن قنبر (ت: ١٨٠هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، دار الرفاعي بالرياض.

٨: **الزهد**، عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي المروزي (ت: ١٨١هـ)، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية، بيروت.

٩: **الأم** [رواية الربيع بن سليمان المرادي (ت:٢٧٠هـ)]، محمد بن إدريس الشافعي المطَّلبيّ (ت: ٢٠٤هـ)، تحقيق: د. رفعت فوزي عبد المطلب، دار الوفاء، المنصورة.

١٠: **أحكام القرآن**، جمع: أبي بكر البيهقي (ت: ٤٥٨هـ)، محمد بن إدريس الشافعي المطَّلبيّ (ت: ٢٠٤هـ)، تحقيق: عبد الغني عبد الخالق، دار الكتب العلمية، بيروت.

١١: **تفسير يحيى بن سلام**، يحيى بن سلام بن أبي ثعلبة البصري (ت: ٢٠٠هـ)، تحقيق: الدكتورة هند شلبي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

١٢: **مجاز القرآن**، أبو عبيدة معمر بن المثنى(ت: ٢١٠هـ)، تحقيق: محمد فؤاد سزكين، مؤسسة الرسالة.

١٣: **مصنف عبد الرزاق**، عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت: ٢١١هـ)، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت.
١٤: **تفسير القرآن العزيز**، عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت: ٢١١هـ)، تحقيق: د. مصطفى مسلم محمد، مكتبة الرشد.
١٥: **معاني القرآن**، سعيد بن مسعدة البلخي (الأخفش الأوسط) (ت: ٢١٥هـ)، تحقيق: فايز فارس، الشركة الكويتية.
١٦: **كتاب الإبل**، أبو سعيد عبدُ الملك بن قُرَيبٍ بن عبد الملك الأصمعيُّ الباهليُّ (ت: ٢١٦هـ)، تحقيق: حاتم بن صالح الضامن، دار البشائر الإسلامية، بيروت.
١٧: **فضائل القرآن**، أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي (ت: ٢٢٤هـ)، تحقيق: أحمد بن عبد الواحد الخياطي، وزارة الأوقاف المغربية.
١٨: **غريب الحديث**، أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي (ت: ٢٢٤هـ)، تحقيق: د. حسين محمد محمد شرف، راجعه: عبد السلام هارون، المطابع الأميرية، القاهرة.
١٩: **سنن سعيد بن منصور**، سعيد بن منصور بن شعبة الخراساني (ت: ٢٢٧هـ)، تحقيق: د. سعد بن عبد الله آل حميّد، دار الصميعي، الرياض.
٢٠: **مصنف ابن أبي شيبة**، أبو بكر عبد الله بن محمد ابن أبي شيبة الكوفي (ت: ٢٣٥هـ)، تحقيق: حمد بن عبد الله الجمعة ومحمد بن إبراهيم اللحيدان، مكتبة الرشد، الرياض.
٢١: **مسند الإمام أحمد**، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت: ٢٤١هـ)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعادل مرشد وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٢٢: **الألفاظ**، يعقوبُ بنُ إسحاقَ ابنُ السِّكِّيتِ البغدادِيُّ (ت: ٢٤٤هـ)، تحقيق: فخر الدين قباوة، مكتبة لبنان.
٢٣: **المنتخب من مسند عبد بن حميد**، أبو محمد عبد الحميد بن حميد بن نصر الكسّي (ت: ٢٤٩هـ)، تحقيق: صبحي السامرائي ومحمود الصعيدي، مكتبة السنة، القاهرة.
٢٤: **مسند الدارمي**، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي (ت: ٢٥٥هـ)، تحقيق: نبيل هاشم عبد الله الغمري، دار البشائر الإسلامية، بيروت.
٢٥: **صحيح البخاري**، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت: ٢٥٦هـ)، عناية: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة.

٢٦: **جزء القراءة خلف الإمام**، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت: ٢٥٦هـ)، تحقيق: د.علي عبد الباسط مزيد، مكتبة الخانجي، القاهرة.
٢٧: **الضعفاء الصغير**، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت: ٢٥٦هـ)، تحقيق: أحمد أبو العينين، دار ابن عباس، مصر.
٢٨: **التاريخ الكبير**، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت: ٢٥٦هـ)، تحقيق: السيد هاشم الندوي، دار الفكر، بيروت.
٢٩: **التاريخ الأوسط**، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت: ٢٥٦هـ)، تحقيق: تيسير بن سعد أبو حيمد ويحيى بن عبد الله الثمالي، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤٢٩هـ.
٣٠: **صحيح مسلم**، مسلم بن الحجاج القشيري (ت: ٢٦١هـ)، عناية: نظر الفريابي، دار طيبة، الرياض.
٣١: **سنن ابن ماجه**، محمد بن يزيد ابن ماجه القزويني (ت: ٢٧٣هـ)، تحقيق: د.بشار عـواد معروف، دار الغرب، بيروت.
٣٢: **سنن أبي داود السجستاني**، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني (ت: ٢٧٥هـ)، تحقيق: محمد عوامة، دارالمنهاج.
٣٣: **تأويل مشكل القرآن**، أبو محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة الدينوري (ت: ٢٧٦هـ)، تحقيق: السيد أحمد صقر، مكتبة دار التراث.
٣٤: **غريب القرآن**، أبو محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة الدينوري (ت: ٢٧٦هـ)، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار الكتب العلمية، بيروت.
٣٥: **سنن الترمذي**، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت: ٢٧٩هـ)، تحقيق: بشـار عـواد معـروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
٣٦: **الفصيح**، أبو العباس أحمد بن يحيى الشيباني [ثعلب] (ت:٢٩١هـ)، تحقيق: د. عاطف مدكور، دار المعارف، القاهرة.
٣٧: **مجالس ثعلب**، أبو العباس أحمد بن يحيى الشيباني [ثعلب] (ت:٢٩١هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة.
٣٨: **مسند البزار**، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار (ت: ٢٩٢هـ)، تحقيق: د. محفوظ الرحمن زين الله، مؤسسة علوم القرآن، بيروت.

٣٩: فضائل القرآن، محمد بن أيوب ابن الضريس البجلي (ت: ٢٩٤هـ)، تحقيق: غزوة بدير، دار الفكر، دمشق.
٤٠: مختصر قيام الليل لمحمد بن نصر المروزي (ت: ٢٩٤هـ)، اختصار أحمد بن علي المقريزي، دار الحديث بباكستان، فيصل آباد.
٤١: التعليقات والنوادر، أبو علي هارون بن زكريا الهجري (ت: نحو ٣٠٠هـ)، تحقيق: حمود عبد الأمير الحمادي، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد.
٤٢: سنن النسائي الصغرى (المجتبى)، أحمد بن علي بن شعيب النسائي (ت: ٣٠٣هـ)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، سوريا.
٤٣: السنن الكبرى للنسائي، أحمد بن علي بن شعيب النسائي (ت: ٣٠٣هـ)، تحقيق: جاد الله بن حسن الخداش، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤٢٧هـ.
٤٤: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري (ت: ٣١٠ هـ)، تحقيق: جماعة بإشراف: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، القاهرة.
٤٥: صحيح ابن خزيمة، أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي النيسابوري (ت: ٣١١هـ)، تحقيق: د. محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت.
٤٦: معاني القرآن، إبراهيم بن السَرِيّ الزجاج (ت: ٣١١هـ)، تحقيق: عبد الجليل شلبي، عالم الكتب.
٤٧: الإبانة والتفهيم عن معنى «بسم الله الرحمن الرحيم»، إبراهيمُ بنُ السَّرِيِّ بنِ سَهْلٍ الزَّجَّاج (ت: ٣١١هـ)، تحقيق: د.عبد الفتاح سليم، مكتبة الآداب، القاهرة.
٤٨: الإجماع، أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري (ت: ٣١٨هـ)، تحقيق: محمد قطب إبراهيم، دار القلم، بيروت.
٤٩: تفسير القرآن، أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري (ت: ٣١٨هـ)، تحقيق: د. سعد بن محمد السعد، دار المآثر، المدينة النبوية، السعودية.
٥٠: الأوسط، أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري (ت: ٣١٨هـ)، تحقيق: أحمد بن سليمان بن أيوب، دار الفلاح، مصر.
٥١: الإشراف على مذاهب العلماء، أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري (ت: ٣١٨هـ)، تحقيق: د. أبو حماد صغير أحمد الأنصاري، مكتبة مكة الثقافية ودار روائع الأثيرودار المدينة للطباعة.

٥٢: **شرح مشكل الآثار**، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الطحاوي (ت: ٣٢١هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة.
٥٣: **شرح معاني الآثار**، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الطحاوي (ت: ٣٢١هـ)، تحقيق: محمد زهري النجارومحمد سيد جاد الحق، راجعه د.يوسف بن عبد الرحمن المرعشلي، عالم الكتب.
٥٤: **الضعفاء**، محمد بن عمرو العقيلي (ت: ٣٢٢هـ)، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار الصميعي، الرياض، ١٤٢٠هـ.
٥٥: **تفسير القرآن العظيم**، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد ابن أبي حاتم الرازي (ت: ٣٢٧هـ)، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة.
٥٦: **كتاب الأضداد في اللغة**، محمد بن القاسم بن بشار ابن الأنباري (ت: ٣٢٨ هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت.
٥٧: **كتاب المجالسة وجواهر العلم**، أبو بكر أحمد بن مروان الدينوري المالكي (ت: ٣٣٣هـ)، تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن حزم، بيروت، جمعية التربية الإسلامية، البحرين.
٥٨: **معاني القرآن الكريم**، أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس (ت: ٣٣٨هـ)، تحقيق: محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى.
٥٩: **تاريخ ابن يونس المصري**، أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد ابن يونس المصري (ت: ٣٤٧هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت.
٦٠: **معجم الصحابة**، أبو الحسين عبد الباقي ابن قانع بن مرزوق الأموي (ت: ٣٥١هـ)، تحقيق: صلاح بن سالم المصراتي، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة، السعودية.
٦١: **صحيح ابن حبان (بترتيب ابن بلبان الفارسي)**، أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد ابن حبان البستي (ت: ٣٥٤هـ)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٦٢: **الثقات**، أبو حاتم محمد بن أحمد ابن حبان البستي (ت: ٣٥٤هـ)، تحقيق: السيد شرف الدين أحمد، دار الفكر، بيروت.
٦٣: **المعجم الكبير**، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (ت: ٣٦٠هـ)، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، وزارة الأوقاف، بغداد، ١٣٩٩هـ.

٦٤: **المعجم الأوسط**، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (ت: ٣٦٠هـ)، تحقيق: طارق بن عوض الله وعبد المحسن بن إبراهيم، دار الحرمين، القاهرة.
٦٥: **المعجم الصغير**، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (ت: ٣٦٠هـ)، تحقيق: محمد شكور بن محمود الحاج أمرير، المكتب الإسلامي ودار عمار، بيروت.
٦٦: **الدعاء**، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (ت: ٣٦٠هـ)، تحقيق: محمد سعيد بخاري، دار البشائر، بيروت.
٦٧: **الكامل في ضعفاء الرجال**، أبو أحمد عبد الله بن عَدي بن عبد الله الجرجاني (ت:٣٦٥هـ)، تحقيق: مازن بن محمد السرساوي، مكتبة الرشد، الرياض.
٦٨: **تهذيب اللغة**، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري (ت: ٣٧٠هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون وآخرين، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة.
٦٩: **معاني القراءات (القراءات وعلل النحويين فيها)**، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري (ت: ٣٧٠هـ): تحقيق: نوال بنت إبراهيم الحلوة.
٧٠: **إعراب ثلاثين سورة**، أبو عبد الله الحسينُ بنُ أحمدَ ابنُ خالويه الهمَذاني (ت:٣٧٠هـ)، تحقيق: محمد سالم الكرنكو، بمساعدة المحدّث عبد الرحمن المعلّمي، دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد، الدكن.
٧١: **بحر العلوم**، أبو الليث نصر بن محمد السمرقندي (ت:٣٧٥هـ)، تحقيق: علي معوض، عادل عبد الموجود، زكريا النوتي، دار الكتب العلمية.
٧٢: **المسائل الحلبيات**، أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسيّ (ت:٣٧٧هـ)، تحقيق: حسن هنداوي، دار القلم، دمشق.
٧٣: **الحجة للقراء السبعة**، أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسيّ (ت: ٣٧٧هـ)، تحقيق: بدر الدين قهوجي وبشير جويجابي، راجعه ودققه: عبد العزيز رباح وأحمد يوسف الدقاق، دار المأمون للتراث، دمشق - بيروت.
٧٤: **سنن الدارقطني**، أبو الحسن علي بن عمر الدارَقطني (ت: ٣٨٥هـ)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وحسن عبد المنعم شلبي وعبد اللطيف حرز الله وأحمد برهوم، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٧٥: **العلل الواردة في الأحاديث النبوية**، أبو الحسن علي بن عمر الدارَقطني (ت:٣٨٥هـ)، تحقيق: محمد صالح الدباسي، مؤسسة الريان، بيروت.

٧٦: **الرسالة**، ابن أبي زيد القيرواني: أبو محمد عبد الله عبد الرحمن النفزي المالكي (ت:٣٨٦هـ)، دار الفكر.
٧٧: **أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري**، أبو سليمان حَمْدُ بن محمد الخطَّابي البستي (ت: ٣٨٨هـ)، تحقيق: محمد بن سعد بن عبد الرحمن آل سعود، جامعة أم القرى.
٧٨: **شأن الدعاء**، أبو سليمان الخطابي: حَمْدُ بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي (ت:٣٨٨هـ)، تحقيق: أحمد يوسف الدّقاق، دار الثقافة العربية، وأعادت صفه وطباعته دار النوادر.
٧٩: **الخصائص**، أبو الفتح عثمان ابن جني الموصلي (ت: ٣٩٢هـ)، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، القاهرة.
٨٠: **الصَّحاح [تاج اللغة وصحاح العربية]**، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت: ٣٩٣هـ)، تصحيح: نصر الهوريني، مطبعة بولاق، القاهرة.
٨١: **معجم مقاييس اللغة**، أحمد بن فارس بن زكريا الرازي (ت:٣٩٥هـ)، تحقيق: عبدالسلام هارون، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة.
٨٢: **مجمل اللغة**، أحمد بن فارس بن زكريا الرازي (ت:٣٩٥هـ)، تحقيق: زهير بن عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٨٣: **الفروق اللغوية**، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (ت: بعد سنة ٣٩٥هـ): تحقيق: جمال عبد الغني مدغمش، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٨٤: **المستدرك على الصحيحين**، أبو عبد الله محمد بن عبد الله ابن حمدويه الحاكم النيسابوري (ت: ٤٠٥هـ)، تحقيق: سليمان الميمان وأيمن الحنيحن، دار الميمان، الرياض.
٨٥: **الكشف والبيان عن تفسير القرآن**، أحمد بن محمد الثعلبي (ت: ٤٢٧هـ)، تحقيق: أبي محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي.
٨٦: **مختصر القدوري في الفقه الحنفي**، أحمد بن محمد بن أحمد بن جعفر بن حمدان أبو الحسين القدوري (ت: ٤٢٨هـ)، تحقيق: كامل محمد محمد عويضة، دار الكتب العلمية.
٨٧: **حلية الأولياء**، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد ابن مهران الأصبهاني (ت: ٤٣٠هـ)، تحقيق: سعيد بن سعد الدين الدخيل، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٨٨: **معرفة الصحابة**، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد ابن مهران الأصبهاني (ت:٤٣٠هـ)، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي، دار الوطن، الرياض.

٨٩: **فضائل القرآن**، أبو العباس جعفر بن محمد المستغفري (ت: ٤٣٢هـ)، تحقيق: أحمد بن فارس السلوم، دار ابن حزم.
٩٠: **إسفار الفصيح**، أبو سهل محمد بن علي بن محمد الهروي (ت: ٤٣٣هـ)، تحقيق: أحمد بن سعيد بن محمد قشاش، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية.
٩١: **الهداية إلى بلوغ النهاية**، مكي بن أبي طالب القيسي (ت: ٤٣٧هـ)، تحقيق: فريق من الباحثين بإشراف أ. د: الشاهد البوشيخي، جامعة الشارقة، كلية الدراسات العليا والبحث العلمي.
٩٢: **من فضائل سورة الإخلاص**، أبو محمد الحسن بن محمد بن الحسن الخلال (ت:٤٣٩هـ)، تحقيق: محمد بن رزق بن طرهوني، مكتبة لينة، دمنهور، القاهرة، مصر.
٩٣: **البيان في عد آي القرآن**، أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني (ت: ٤٤٤هـ)، تحقيق: د.غانم قدروي الحمد، مركز المخطوطات والتراث والوثائق، الكويت.
٩٤: **المقنع في معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار**، أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني (ت: ٤٤٤هـ)، تحقيق: نورة بنت حسن الحميّد، دار التدمرية، الرياض.
٩٥: **النكت والعيون**، علي بن محمد بن حبيب الماوردي (ت: ٤٥٠هـ)، تحقيق: السيد بن عبد المقصود، مؤسسة الكتب الثقافية.
٩٦: **شعب الإيمان**، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت: ٤٥٨هـ)، تحقيق: د.عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي.
٩٧: **المحكم والمحيط الأعظم**، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (ت:٤٥٨هـ)، تحقيق: جماعة من الباحثين، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، القاهرة.
٩٨: **المخصص**، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (ت: ٤٥٨هـ)، المطبعة الأميرية، بولاق.
٩٩: **التمهيد**، أبو عمر يوسف بن عبد الله ابن عبد البر النمري (ت: ٤٦٣هـ)، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبدالكبير البكري، وزارة عموم الأوقاف، المغرب.
١٠٠: **الاستذكار**، أبو عمر يوسف بن عبد الله ابن عبد البر النمري (ت: ٤٦٣هـ)، تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي، دار قتيبة، دمشق.

١٠١: **تاريخ بغداد**، الخطيب البغدادي: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت (ت: ٤٦٣هـ)، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

١٠٢: **اختلاف أقوال مالك وأصحابه**، أبو عمر يوسف بن عبد الله ابن عبد البر النمري (ت: ٤٦٣هـ)، تحقيق: حميد محمد لحمر وميكلوش موراني، دار الغرب الإسلامي.

١٠٣: **لطائف الإشارات**، أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري (ت:٤٦٥هـ)، تحقيق: د.إبراهيم بسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر.

١٠٤: **أشعار الشعراء الستة الجاهليين**، أبو الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى الأعلم الشنتمري (ت: ٤٧٦هـ)، دار الآفاق الجديدة، بيروت.

١٠٥: **المبسوط**، محمد بن أحمد بن أبي سهل السرخسي (ت: ٤٨٣هـ)، دار المعرفة، بيروت.

١٠٦: **تفسير القرآن**، أبو المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني (ت: ٤٨٩هـ)، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض.

١٠٧: **معالم التنزيل**، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت: ٥١٦هـ)، تحقيق: محمد عبد الله النمر وعثمان جمعة ضميرية وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة، الرياض.

١٠٨: **غرائب التفسير وعجائب التأويل**، محمود بن حمزة الكرماني (ت: ٥٣٥هـ)، تحقيق: شمران سركال يونس العجلي، دار القبلة.

١٠٩: **الكشاف عن حقائق التنزيل**، محمود بن عمر الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ)، تحقيق : عادل عبد الموجود، علي معوض، مكتبة العبيكان.

١١٠: **أمالي ابن الشجري**، ابن الشجري ضياء الدين أبو السعادات هبة الله بن علي بن حمزة (ت: ٥٤٢هـ)، تحقيق: د. محمود محمد الطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة.

١١١: **إعراب القرآن**، جامع العلوم علي بن الحسين بن علي الباقولي الأَصْفهاني (ت:نحو ٥٤٣هـ)، تحقيق: إبراهيم الأبياري، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة.

١١٢: **إكمال المعلم بفوائد مسلم**، أبو الفضل القاضي عياض بن موسى اليحصبي (ت:٥٤٤هـ)، تحقيق: يحيى إسماعيل، دار الوفاء، مصر.

١١٣: **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (ت: ٥٤٦هـ)، تحقيق: جماعة من الباحثين، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية القطرية.

١١٤: **مسند الفردوس**، أبو منصور شهردار بن شيرويه بن شهردار بن فناخسرو الديلميّ (ت: ٥٥٨هـ)، تحقيق: فؤاد أحمد زمرلي ومحمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي.

١١٥: **البيان في غريب إعراب القرآن**، أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنباري (ت: ٥٧٧هـ)، تحقيق: طه عبد الحميد طه، مراجعة : مصطفى السقا، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

١١٦: **الروض الأنف**، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (ت:٥٨١هـ)، تحقيق: عمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١١٧: **زاد المسير**، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي (ت:٥٩٧هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت.

١١٨: **المنتظم في تاريخ الأمم والملوك**، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي (ت:٥٩٧هـ) ، تحقيق: محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت.

١١٩: **التبيان في إعراب القرآن**، أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري (ت:٦١٦هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، عيسى البابي الحلبي وشركاه.

١٢٠: **المغني**، موفق الدين عبد الله بن أحمد ابن قدامة المقدسي (ت: ٦٢٠هـ)، تحقيق: عبد الله بن المحسن التركي وعبد الفتاح الحلو، دار عالم الكتب، الرياض.

١٢١: **معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)**، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت: ٦٢٦هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

١٢٢: **الأحاديث المختارة**، ضياء الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي (ت:٦٤٣هـ)، تحقيق: عبد الملك بن عبد الله ابن دهيش، دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.

١٢٣: **جمال القراء وكمال الإقراء**، علم الدين علي بن محمد السخاوي (ت: ٦٤٣هـ)، تحقيق: عبد الحق عبد الدايم سيف القاضي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت.

١٢٤: **شرح المفصل للزمخشري**، يعيش بن علي بن يعيش النحوي (ت: ٦٤٣هـ)، تحقيق: د.عبد اللطيف الخطيب، دار العروبة.

١٢٥: **المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز**، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم أبو شامة المقدسي (ت:٦٦٥هـ)، تحقيق: طيار آلتي قولاج، دار صادر، بيروت.

١٢٦: **الجامع لأحكام القرآن**، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي (ت:٦٧١هـ)، تحقيق: د.عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة.

١٢٧: **شرح صحيح مسلم**، أبو زكريا يحيى بن شرف النووي (ت: ٦٧٦هـ)، تحقيق: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة.

١٢٨: **المجموع شرح المهذب**، أبو زكريا يحيى بن شرف النووي (ت: ٦٧٦هـ)، تحقيق: محمد نجيب المطيعي، بتكملة السبكي والمطيعي، الرياض: عالم الكتب، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

١٢٩: **التبيان في آداب حملة القرآن**، أبو زكريا يحيى بن شرف النووي (ت: ٦٧٦هـ)، تحقيق: محمد الحجار، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

١٣٠: **تهذيب الأسماء واللغات**، أبو زكريا يحيى بن شرف النووي (ت: ٦٧٦هـ)، تحقيق: شركة العلماء بمساعدة إدارة الطباعة المنيرية، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٣١: **الأذكار**، أبو زكريا يحيى بن شرف النووي (ت: ٦٧٦هـ)، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.

١٣٢: **رياض الصالحين**، أبو زكريا يحيى بن شرف النووي (ت: ٦٧٦هـ)، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت.

١٣٣: **منهاج الطالبين وعمدة المفتين في الفقه**، أبو زكريا يحيى بن شرف النووي (ت:٦٧٦هـ)، تحقيق: عوض قاسم أحمد عوض، دار الفكر.

١٣٤: **المتواري على تراجم أبواب البخاري**، أبو العباس أحمد بن محمد بن منصور ابن المنيّر الاسكندراني (ت:٦٨٣هـ)، تحقيق: صلاح الدين مقبول أحمد، مكتبة المعلا، الكويت.

١٣٥: **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي (ت: ٦٩١هـ)، تحقيق: محمود عبد القادر الأرناؤوط، دار صادر.

١٣٦: **مدارك التنزيل وحقائق التأويل**، عبد الله بن أحمد النسفي (ت: ٧١٠هـ)، تحقيق: مروان محمد الشعار، دار النفائس، الأردن.

١٣٧: **لسان العرب**، محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي (ت: ٧١١هـ)، دار صادر، بيروت.
١٣٨: **مجموع الفتاوى**، شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني (ت:٧٢٨هـ)، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي وابنه محمد، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية.
١٣٩: **العبودية**، شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني (ت: ٧٢٨هـ)، تحقيق: محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي: بيروت.
١٤٠: **شرح العمدة**، شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني (ت: ٧٢٨هـ)، [كتاب الصلاة]، تحقيق: خالد بن علي بن محمد المشيقح، دار العاصمة، الرياض.
١٤١: **التسهيل لعلوم التنزيل**، محمد بن أحمد بن جزي الكلبي (ت: ٧٤١هـ) تحقيق: أ.د.محمد بن سيدي محمد مولاي، دار الضياء.
١٤٢: **تهذيب الكمال**، جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن عبد الرحمن المزي (ت:٧٤٢هـ)، تحقيق: د.بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت.
١٤٣: **تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق**، فخر الدين عثمان بن علي بن محجن البارعي الزيلعي الحنفي (ت: ٧٤٣ هـ)، المطبعة الكبرى الأميرية، بولاق، القاهرة.
١٤٤: **البحر المحيط في التفسير**، أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي (ت: ٧٤٥هـ)، تحقيق: د. عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي.
١٤٥: **سير أعلام النبلاء**، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (ت:٧٤٨هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت.
١٤٦: **تاريخ الإسلام**، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (ت: ٧٤٨هـ)، تحقيق: الدكتور بشار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
١٤٧: **معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار**، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (ت:٧٤٨هـ)، تحقيق: د.بشار عواد معروف، شعيب الأرناؤوط، صالح مهدي عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت.
١٤٨: **ميزان الاعتدال**، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (ت:٧٤٨هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

١٤٩: **الضوء المنير على التفسير**، [جمع لكلام الإمام ابن القيّم: محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي (ت:٧٥١هـ) في التفسير]، جمع: علي بن حمد الصالحي، مؤسسة النور ودار السلام.
١٥٠: **بدائع الفوائد**، ابن قيّم الجوزية: شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزُّرعِيُّ الدمشقي (ت:٧٥١هـ)، تحقيق: علي بن محمد العمران، مجمع الفقه الإسلامي، جدة، ودار عالم الفوائد.
١٥١: **الجواب الكافي**، ابن القيم الجوزية محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي (ت:٧٥١هـ)، تحقيق: محمد أجمل الإصلاحي، خرج أحاديثه: زائد بن أحمد النشيري، بإشراف: بكر أبو زيد، دار عالم الفوائد، السعودية.
١٥٢: **مدارج السالكين**، ابن القيم محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي (ت:٧٥١هـ)، تحقيق: جماعة من أساتذة العقيدة والمذاهب المعاصرة بجامعة القصيم، دار الصميعي، السعودية.
١٥٣: **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون**، أحمد بن يوسف (السمين الحلبي) (ت: ٧٥٦هـ)، تحقيق: أحمد محمد الخراط، دار القلم.
١٥٤: **تخريج أحاديث الكشاف**، جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف بن محمد الزيلعي (ت:٧٦٢هـ)، تحقيق: سلطان بن فهد الطبيشى، تقديم: عبد الله بن عبد الرحمن السعد، دار ابن خزيمة، الرياض.
١٥٥: **الفروع**، محمد بن مفلح المقدسي (ت: ٧٦٣هـ)، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت.
١٥٦: **تفسير القرآن العظيم**، إسماعيل بن عمر ابن كثير القرشي (ت: ٧٧٤هـ)، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الرياض.
١٥٧: **البرهان في علوم القرآن**، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (ت:٧٩٤هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة.
١٥٨: **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، الحافظ زين الدين عبد الرحمن بن أحمد ابن رجب الحنبلي (ت:٧٩٥هـ)، تحقيق: جماعة من المحققين، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة النبوية، السعودية.

١٥٩: **القاموس المحيط**، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت:٨١٧هـ)، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
١٦٠: **النشر في القراءات العشر**، محمد بن محمد بن الجزري (ت: ٨٣٣هـ): تحقيق: محمد سالم محيسن، مكتبة القاهرة.
١٦١: **غاية النهاية في طبقات القراء**، محمد بن محمد بن الجزري (ت: ٨٣٣هـ)، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة.
١٦٢: **إتحاف الخيرة المهرة**، شهاب الدين أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل البوصيري (ت:٨٤٠هـ)، تحقيق: دار المشكاة للبحث العلمي بإشراف أبي تميم ياسر بن إبراهيم، دار الوطن للنشر، الرياض.
١٦٣: **فتح الباري**، أحمد بن علي بن محمد ابن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)، تحقيق: نظر الفريابي، دار طيبة، الرياض.
١٦٤: **الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف**، أحمد بن علي بن محمد ابن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)، دار عالم المعرفة، ملحقاً بتفسير الكشاف.
١٦٥: **العجاب في بيان الأسباب**، أحمد بن علي بن محمد ابن حجر العسقلاني (ت:٨٥٢هـ)، تحقيق: عبد الحكيم محمد الأنيس، دار ابن الجوزي.
١٦٦: **التلخيص الحبير**، أحمد بن علي بن محمد ابن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)، تحقيق: محمد الثاني بن عمر بن موسى، أضواء السلف، الرياض.
١٦٧: **تغليق التعليق**، أحمد بن علي بن محمد ابن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)، تحقيق: سعيد عبد الرحمن موسى القزقي، المكتب الإسلامي، بيروت ودار عمار، عمان، الأردن.
١٦٨: **المطالب العالية**، أحمد بن علي بن محمد ابن حجر العسقلاني (ت:٨٥٢هـ)، تحقيق: د.سعد بن ناصر بن عبد العزيز الشثري، دار العاصمة، السعودية.
١٦٩: **تعجيل المنفعة برواية رجال الأئمة الأربعة**، أحمد بن علي بن محمد ابن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)، تحقيق: د.إكرام الله إمداد الحق، دار البشائر، بيروت.
١٧٠: **لسان الميزان**، أحمد بن علي بن محمد ابن حجر العسقلاني (ت:٨٥٢هـ)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر الإسلامية.
١٧١: **فتح الباري**، أحمد بن علي بن محمد ابن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)، تحقيق: نظر الفريابي، دار طيبة، الرياض.

١٧٢: **الدراية في تخريج أحاديث الهداية**، أحمد بن علي بن محمد ابن حجر العسقلاني (ت:٨٥٢هـ)، تحقيق: السيد عبد الله هـاشم يماني المدني، دار المعرفة، بيروت.
١٧٣: **عمدة القاري شرح صحيح البخاري**، بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى العيني (ت:٨٥٥هـ): تحقيق: عبد الله محمود محمد عمر، دار الكتب العلمية.
١٧٤: **تصحيح الفروع**، علاء الدين أبو الحسن علي بن سليمان المرداوي (ت: ٨٨٥هـ)، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، مؤسسة الرسالة – دار المؤيد.
١٧٥: **الدر المنثور في التفسير المأثور**، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت:٩١١هـ)، تحقيق: فريق من الباحثين بعناية د.عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، القاهرة.
١٧٦: **الإتقان في علوم القرآن**، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت:٩١١هـ)، تحقيق: فريق من الباحثين بمركز الدراسات القرآنية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية.
١٧٧: **إرشاد العقل السليم**، أبو السعود محمد العمادي الحنفي (ت: ٩٥٠هـ)، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، مكتبة الرياض.
١٧٨: **الفتح السماوي بتخريج أحاديث البيضاوي**، زين الدين عبد الرؤوف بن علي المناوي (ت: ١٠٣١هـ)، تحقيق: أحمد مجتبى السلفي، دار العاصمة.
١٧٩: **تاج العروس من جواهر القاموس**، محمّد مرتضى الحسيني الزَّبيدي (ت:١٢٠٥هـ)، فريق من الباحثين، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت.
١٨٠: **مجموع مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب**، محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي (ت: ١٢٠٦هـ)، تحقيق: صالح بن عبد الرحمن الأطرم ومحمد بن عبدالرزاق الدويش، جامعة الأمام محمد بن سعود، الرياض.
١٨١: **حاشية ابن عابدين (رد المحتار على الدر المختار)**، ابن عابدين: محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدمشقي الحنفي (ت: ١٢٥٢هـ)، دار الفكر، بيروت.
١٨٢: **فتح القدير**، محمد بن علي الشوكاني (ت: ١٢٥٥هـ)، تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة، دار الوفاء.
١٨٣: **روح المعاني**، محمود بن عبد الله الألوسي (ت: ١٢٧٠هـ)، تحقيق: محمد أحمد الأمد وعمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي.

١٨٤: **التحرير والتنوير**، محمد الطاهر بن عاشور (ت: ١٣٩٣هـ)، دار سحنون، تونس.
١٨٥: **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، محمد الأمين الجكني الشنقيطي (ت:١٣٩٣هـ)، تحقيق: جماعة من الباحثين بإشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة.
١٨٦: **العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير**، محمد الأمين الجكني الشنقيطي (ت: ١٣٩٣هـ)، تحقيق: خالد بن عثمان السبت، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة.
١٨٧: **صفوة الآثار والمفاهيم**، عبد الرحمن بن محمد الدوسري (ت:١٣٩٩هـ)، دار المغني، الرياض.
١٨٨: **سلسلة الأحاديث الصحيحة**، محمد ناصر الدين الألباني (ت: ١٤٢٠هـ)، مكتبة المعارف، الرياض.
١٨٩: **سلسلة الأحاديث الضعيفة**، محمد ناصر الدين الألباني (ت: ١٤٢٠هـ)، مكتبة المعارف، الرياض.
١٩٠: **الشرح الممتع على زاد المستقنع**، محمد بن صالح بن محمد العثيمين (ت: ١٤٢١هـ)، دار ابن الجوزي.
١٩١: **ديوان طرفة بن العبد**، طَرَفَة بن العَبْد بن سفيان البكري (ت: ٦٠ ق.هـ)، تحقيق: لطفي الصقال ودريّة الخطيب، دار الثقافة والفنون، البحرين.
١٩٢: **ديوان لبيد بن ربيعة العامري**، لَبِيد بن ربيعة بن مالك العامري، (ت: ٤١هـ)، تحقيق: د. إحسان عباس، وزارة الإعلام الكويتية.
١٩٣: **مقدمات في أصول التفسير**، عبد العزيز بن داخل المطيري، مؤسسة آفاق التيسير، الرياض.
١٩٤: **تاريخ علم التفسير**، عبد العزيز بن داخل المطيري، مؤسسة آفاق التيسير، الرياض.
١٩٥: **المرتبع الأسنى**، عبد العزيز بن داخل المطيري، مؤسسة آفاق التيسير، الرياض.
١٩٦: **قرة العينين بتفسير المعوذتين**، عبد العزيز بن داخل المطيري، مؤسسة آفاق التيسير، الرياض.
١٩٧: **جمهرة التفاسير**، عبد العزيز بن داخل المطيري، موقع جمهرة العلوم.
١٩٨: **دليل المعلم لشرح ثلاثة الأصول وأدلتها**، عبد العزيز بن داخل المطيري، مؤسسة آفاق التيسير، الرياض.
١٩٩: **أعمال القلوب**، عبد العزيز بن داخل المطيري، مؤسسة آفاق التيسير، الرياض.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تمهيد	**٥**
الباب الأول: بيان فضائل سورة الفاتحة	**١١**
الأحاديث الصحيحة الصريحة في فضل سورة الفاتحة	١١
التنبيه على ضعف بعض ما يُروى في فضل سورة الفاتحة	١٩
أنواع الضعف في المرويات	١٩
أنواع المتون التي تُروى بالأسانيد الضعيفة	٢٠
أمثلة على أنواع المرويات الضعيفة في فضل سورة الفاتحة	٢١
الباب الثاني: بيان معاني أسماء سورة الفاتحة	**٣٥**
الفرق بين اسم السورة ولقبها	٣٥
تعداد أسماء سورة الفاتحة	٣٦
شرح معاني أسماء سورة الفاتحة	٣٦
١. فاتحة الكتاب	٣٦
٢. «فاتحة القرآن»	٣٧
٣. «الفاتحة»	٣٧
٤. «أم القرآن»	٣٧
أسباب تسمية الفاتحة بـ«أم القرآن»	٣٧
٥. أم الكتاب	٣٩
٦. سورة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾	٤١

٧. سورة ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾	٤٢
٨. سورة الحمد	٤٢
٩. السبع المثاني	٤٣
معنى تسمية الفاتحة بـ«السبع المثاني»	٤٤
معاني المثاني في لغة العرب	٤٧
المراد بـ(المثاني) في النصوص وفي كلام أهل العلم	٤٧
١٠. القرآن العظيم	٥٠
اختلاف المفسّرون في وصف العظيم في الآية	٥٠
١١. الشافية، الشفاء	٥١
١٢. الكافية	٥٣
١٣. الوافية	٥٣
معنى تسميتها بالوافية	٥٣
١٤. سورة الرقية	٥٤
١٥. سورة الصلاة	٥٥
الاختلاف في سبب هذه التسمية	٥٥
١٦. سورة الدعاء	٥٦
١٧. سورة السؤال	٥٦
١٨. الشكر	٥٦
١٩. الكنز	٥٦
٢٠. الأساس، أساس القرآن	٥٧
أسماء أخرى للفاتحة: النور، المناجاة، التفويض، الثناء	٥٨
الباب الثالث: شرح مسائل نزول سورة الفاتحة	**٥٩**

الخلاف في مكية سورة الفاتحة	٦٠
من ذكر أنها مكية	٦٠
تحقيق نسبة هذا القول إلى بعض الصحابة	٦١
من ذكر أنها مدنية	٦٥
بيان أنواع ما يُنسب إلى المفسّرين من الأقوال	٦٦
خبر نزول سورة الفاتحة	٧١
ترتيب نزول سورة الفاتحة	٧٤
ما روي في نزولها من كنز تحت العرش	٧٧
الباب الرابع: عدد آيات سورة الفاتحة	**٧٩**
الخلاف في عدّ البسملة آية من الفاتحة	٨١
الباب الخامس: تفسير الاستعاذة	**٨٧**
معنى الاستعاذة	٨٧
أقسام الاستعاذة	٨٧
لوازم الاستعاذة	٨٩
أثر الاستعاذة بالله تعالى على قلب العبد	٩٠
الحكمة من تقدير ما يستعاذ منه	٩٣
تحقيق الاستعاذة	٩٤
درجات الاستعاذة	٩٤
الأمر بالاستعاذة من الشيطان الرجيم	٩٨
أنواع شرور الشيطان	٩٩
درجات كيد الشيطان:	١٠٠
أسباب العصمة من كيد الشيطان	١٠٥

الاستعاذة من الشيطان عند قراءة القرآن	١٠٧
هل الاستعاذة قبل القراءة أو بعدها؟	١٠٨
الإجماع على أنّ (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) ليست قرآنا	١١٠
صيغ الاستعاذة	١١٠
الآثار المروية عن الصحابة في صيغ الاستعاذة	١١٣
حكم الاستعاذة لقراءة القرآن	١١٥
حكم الجهر بالاستعاذة	١١٦
خبر نزول الاستعاذة	١١٧
معنى الشيطان	١١٨
معنى الرجم	١١٩
معنى «الرجيم»	١١٩
معنى وصف الشيطان بأنه رجيم	١٢٠
الباب السادس: تفسير البسملة	**١٢١**
المراد بالبسملة	١٢١
هل تُعدُّ البسملة آية؟	١٢٣
مسائل في تفسير البسملة: المسألة الأولى: معنى الباء في ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾	١٢٧
المسألة الثانية: حذف الألف في ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾	١٣٠
المسألة الثالثة: تقدير متعلق الجار والمجرور المحذوف في قوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾	١٣١
المسألة الرابعة: سبب حذف متعلّق الجار والمجرور	١٣٢
المسألة الخامسة: معنى الاسم	١٣٢
المسألة السادسة: بيان مسألة الاسم والمسمَّى	١٣٣
المسألة السابعة: معنى اسم (الله) جلَّ جلاله	١٣٦

المسألة الثامنة: معنى (الرحمن)	١٣٩
المسألة التاسعة: معنى (الرحيم)	١٣٩
المسألة العاشرة: الحكمة من اقتران اسمي «الرحمن» و«الرحيم»	١٤٠
التنبيه على ضعف بعض المرويات في فضل البسملة	١٤١
الجهر والإسرار بالبسملة في الصلاة	١٤٤
الباب السابع: تفسير قول الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾	١٤٩
تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾	١٥٠
معنى ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾	١٥٠
فائدة في أنواع التعريف بـ«ال»	١٥٢
معنى اللام في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ﴾	١٥٣
الفرق بين الحمد والشكر	١٥٤
الفرق بين الحمد والمدح	١٥٥
الفرق بين الحمد والثناء	١٥٦
معنى (الرَّبّ)	١٥٧
أنواع الربوبية	١٥٧
معنى (العالمين)	١٥٨
معنى ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾	١٥٩
أقوال العلماء في المراد بالعالمين	١٦٠
تفسير قول الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾	١٦٤
الحكمة من تكرار ذكر ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ بعد ذكرهما في البسملة	١٦٤
الباب الثامن: تفسير قول الله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾	١٦٧

بيان مقصد الآية	١٦٧
القراءات في الآية	١٦٨
بيان معنى القراءتين	١٦٨
المراد بـ«يوم الدين»	١٦٩
معنى الإضافة في ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤ ﴾	١٧٠
الباب التاسع: تفسير قول الله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥ ﴾	**١٧١**
تفسير قول الله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥ ﴾	١٧١
مقصد الآية	١٧١
معنى قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾	١٧٢
بيان معنى العبادة في اللغة	١٧٣
بيان معنى العبادة شرعاً	١٧٣
فوائد تقديم المفعول ﴿إِيَّاكَ ﴾	١٧٥
معنى قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥ ﴾	١٧٦
فائدة حذف متعلَّق الاستعانة	١٧٦
بيان معنى الاستعانة	١٧٧
تحقيق الاستعانة	١٧٩
أقسام الاستعانة	١٨٠
أقسام الناس في العبادة والاستعانة	١٨٢
أنواع الاستعانة بالله	١٨٣
الحكمة من تقديم ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥ ﴾	١٨٥
معنى النون في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾	١٩٠
فائدة الإتيان بالفعل المضارع في ﴿نَعۡبُدُ ﴾ و ﴿نَسۡتَعِينُ ٥ ﴾	١٩٢

فائدة تحول الكلام من الغيبة إلى الخطاب	١٩٢
فائدة تكرر ﴿إِيَّاكَ﴾ في الآية مرتين	١٩٢
الباب العاشر: تفسير قول الله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾	١٩٥
مقصد الآية	١٩٥
بيان مراتب الهداية	١٩٦
درجات المهتدين	١٩٧
معنى ﴿ ٱهْدِنَا﴾	١٩٩
مقاصد المهتدين من سؤال الهداية	٢٠٠
اختلاف أحوال السائلين للهداية	٢٠٣
تلخيص أوجه تفاضل السائلين في سؤال الهداية	٢٠٥
الهداية منّة من الله تعالى	٢٠٦
الحكمة من سؤال المسلم الهداية	٢٠٧
معنى ضمير الجمع في قوله: ﴿ ٱهْدِنَا﴾	٢١٠
الحكمة من تعدية فعل الهداية بنفسه في هذه الآية	٢١٢
معنى الصراط لغة	٢١٥
المراد بالصراط المستقيم	٢١٧
تنوّع عبارات السلف في المراد بالصراط المستقيم	٢١٨
معنى التعريف في الصراط المستقيم	٢٢٣
معنى وصف الصراط بالاستقامة	٢٢٤
الباب الحادي عشر: تفسير قول الله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾	٢٢٥
مقصد الآية	٢٢٥
بيان معاني الإنعام في القرآن	٢٢٥

بيان معنى الإنعام في هذه الآية	٢٢٦
المراد بالذين أنعم الله عليهم	٢٢٧
تنوّع عبارات السلف في بيان المراد بالذين أنعم الله عليهم	٢٢٨
الحكمة من حذف متعلّق الإنعام في هذه الآية	٢٢٩
تنبيه هذه الآية على سبب الهداية	٢٣٠
بيان تمام نعمة الله تعالى على هذه الأمة	٢٣١
بيان ما يقتضيه وصف الإنعام	٢٣١
الحكمة من الإضافة في قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾	٢٣٢
فائدة إسناد الإنعام في قوله: ﴿أَنۡعَمۡتَ﴾ إلى ضمير الخطاب	٢٣٣
الحكمة من تكرار ذكر الصراط	٢٣٤
الباب الثاني عشر: تفسير قول الله تعالى: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾	**٢٣٧**
الأحاديث المروية عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في تفسير هذه الآية	٢٣٧
أقوال السلف في المراد بالمغضوب عليهم وبالضالين	٢٤١
بيان المراد بالمغضوب عليهم وبالضالين	٢٤٤
التحذير من مشابهة اليهود والنصارى	٢٤٥
الحكمة من تمييز الفريقين بوصفين متلازمين	٢٤٦
الحكمة من تقديم المغضوب عليهم على الضالين	٢٤٨
الحكمة من إبهام ذكر الغاضب في قوله: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾	٢٥٠
معنى «لا» في قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾	٢٥٢
الباب الثالث عشر: شرح مسائل التأمين بعد الفاتحة	**٢٥٥**
١. معنى قول «آمين»	٢٥٧
٢. اللغات في «آمين»	٢٦١

٣. هل آمين من أسماء الله؟	٢٦٥
٤. معنى قولهم: «آمين وبسلاً»	٢٦٨
٥.حكم التأمين بعد الفاتحة	٢٦٩
٦. مدّ الصوت بآمين	٢٦٩
٧. بيان فضل التأمين	٢٧٠
٨. معنى موافقة الملائكة في التأمين	٢٧٢
٩. حرص الصحابة رضي الله عنهم على التأمين	٢٧٩
١٠. التنبيه على ضعف بعض المرويات في فضل التأمين	٢٨١
١١. هل المؤمّن داعٍ؟	٢٨٣
١٢. الدعاء قبل التأمين	٢٨٤
١٣. هل يجهر الإمام بالتأمين؟	٢٨٧
١٤. هل يجهر المأموم بالتأمين؟	٢٩٠
١٥. هل يجهر المنفرد بالتأمين؟	٢٩٢
١٦. هل يؤمّن القارئ في غير الصلاة؟	٢٩٣
١٧. إذا لم يسمع المأمومُ قراءةَ الإمامِ فهل يؤمّن؟	٢٩٤
١٨. متى يقول المأموم «آمين»؟	٢٩٥
١٩. حكم من نسي قول آمين	٢٩٧
٢٠. حكم قول «آمين ربّ العالمين»	٢٩٨
قائمة المراجع	**٣٠٠**
الفهرس	**٣١٦**

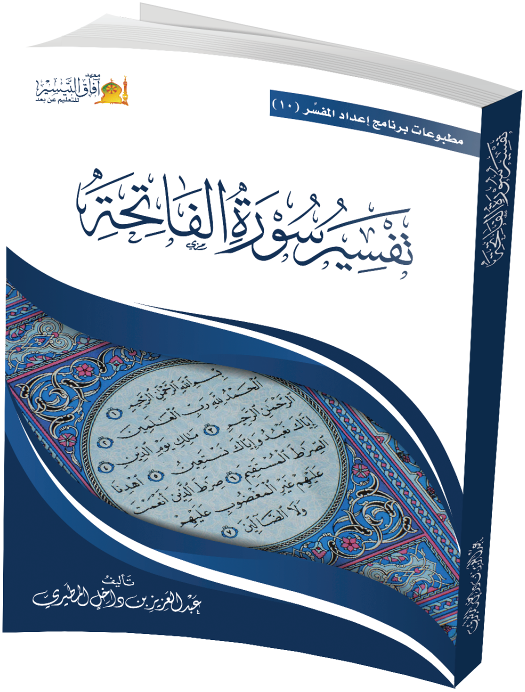

معهد آفاق التيسير
للتعليم عن بعد